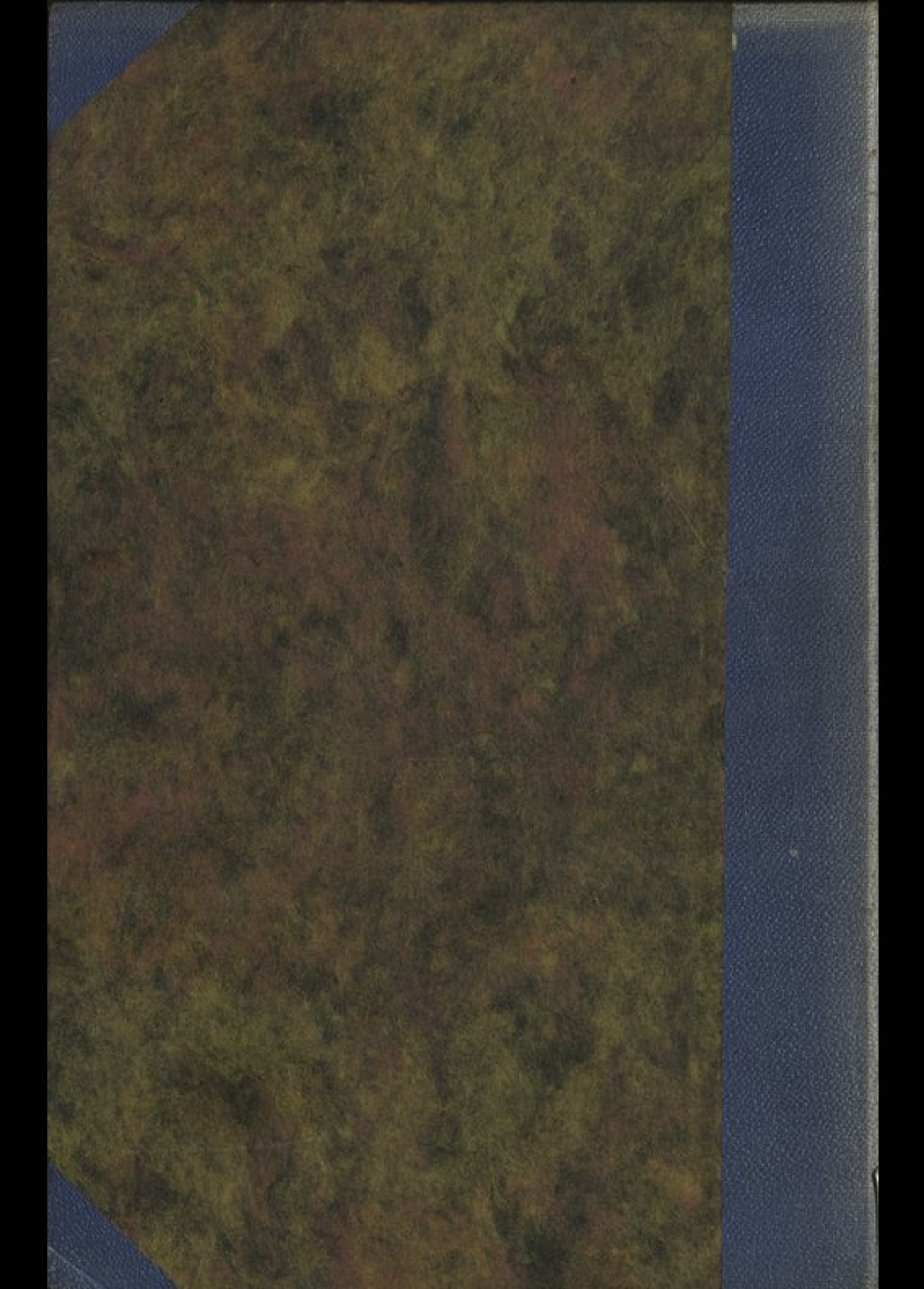


كتب بقلم محمد عبد الله عنان

مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام

(الطبعـة الثانيـة)

يتناول أهم المواقف الحاسمة بين الاسلام والنصرانية مثل حصار العرب لقسطنطينية ، وموقعة بلاط الشهداء ، والغزوات البحرية الاسلامية الشهيرة ، وغزو المسلمين لرومة ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط غرناطة ، ومصرع الحضارة الأندلسية وغيرها ، وفيه بحوث نقدية ضافية عن خواص الفتوحات العربية ، وسياسة الفتح العربى ، والدبلوماسية فى الاسلام ، والرق ، والفروسية وغيرها . يطبع للمرة الثانية مع زيادات كبيرة . ويقع فى مائتين وأربعين صفحة من القطع الكبير ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية . وثمنه ١٢ قرشا — ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر بشارع الساحة نمرة ٣٩ ، ومن جميع المكاتب .

ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) والمحاكمات الكبرى

فيه تاريخ مسهب لمحاكم التحقيق (التفتيش) الشهيرة ونظمها واجراءاتها ، وطرف كبير من محاكماتها الشهيرة ولا سيما محاكمات العرب المتنصرين بالأندلس ، وتفصيل ضاف لمأساة الموريسكيين (العرب المتنصرين) واخراجهم من الأندلس . ثم مجموعة كبيرة من أشهر المحاكمات الكبرى مثل : محاكمة لايدى جين جراى . دون كارلوس . مارى استوارت . تشارلس الأول . ايرل وتورث . أوربان جرانديه . الكنى رومانوف . مأساة السموم . عقد الملكة . لويس السادس عشر . مارى انتوانيت . شارلوت كوداى . مدام رولان . مأساة لويس السابع عشر . دوق دنجين . سليمان الحلبى . أورسينى . الماريشال بازين . قضية دريفوس ... الخ . يقع فى خمسمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، ومزين بنحو ستين صورة تاريخية ومطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية . وثمنه ٣٥ قرشا — ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بالعنوان السابق ، ومن جميع المكاتب .

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

فيه عرض نقدى مستفيض لحياة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون وتراثه الفكرى والاجتماعى، ووصف ضاف لآثاره ومنهجه وأسلوبه، واستقصاء لمذاهب السياسة الملكية عند العرب وما يتصل بها من بحثه، واستعراض لجميع المباحث الغربية النقدية التى صدرت عنه وعن تراثه؛ ومقارنة ضافية بينه وبين مكيافيللى وأثره ومذهبه فى الدولة. وفيه مباحث فرنسية جامعة عن كتاب العبر. يقع فى نحو مائتى صفحة، طبع مطبعة دار الكتب المصرية. وثمنه ٨ قروش — ويطلب من مؤلفه بدار لجنة التأليف والترجمة والنشر بالعنوان المتقدم، ومن جميع المكاتب.

مصر الإسلامية

وتاريخ الخطط المصرية

يتناول الكتاب الأول منه تاريخ الفسطاط والقاهرة، وتاريخ الخطط فى الرواية المصرية منذ ابن عبد الحكم الى المقريزى ثم الى على باشا مبارك. وفيه تراجم وتحقيقات وافية عن مؤرخى الخطط المصريين وآثارهم. ويتناول الكتاب الثانى منه عدة مواقف وحوادث شائقة فى تاريخ مصر الاسلامية. يقع فى مائة وخمس وثمانين صفحة من القطع الكبير، طبع مطبعة دار الكتب المصرية. وثمنه ١٥ قرشا — ويطلب من المؤلف بدار لجنة التأليف والترجمة والنشر بالعنوان المتقدم، ومن جميع المكاتب.

قصص اجتماعية ونماذج من أدب الغرب

مترجمة بقلم محمد عبد الله عنان

يحتوى على مجموعة مختارة من القصص الرفيع الشائق لثمانية من أعلام الأدب الفرنسى هم: پول بورجيه. أناتول فرانس. اندريه تيريه. فرنسوا كوپيه. جى دى موپاسان. دى بانفيل. مارسل بريقو. جان لوران. مقرونة بتراجم نقدية لهؤلاء الكتاب، ومترجمة بأسلوب عربى فائق اعتبر نموذجا للأسلوب البديع الذى يجمع بين متانة البيان العربى وروح المؤلف الأصل. يقع فى ثلاثمائة صفحة، طبع مطبعة دار الكتب المصرية. وثمنه ١٠ قروش — ويطلب من المترجم بدار لجنة التأليف والترجمة والنشر بالعنوان المتقدم، ومن جميع المكاتب.

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مواقف حاسمة
في تاريخ الإسلام



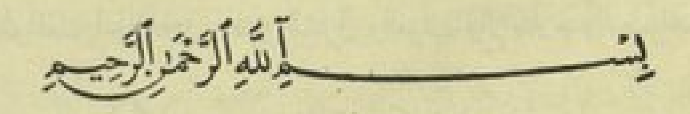
تأليف

محمد عبد الله عنان
المحامي

الطبعة الثانية

[نقحت وحققت وضمت اليها بحوث جديدة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م



مقـــدمة

منذ بضعة أعوام صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ؛ واليوم أقدمه الى القراء فى طبعته الثانية . ومازال فكرة الكتاب الجوهرية كما كانت ، ولكنى رأيت الفرصة سانحة لتناوله بكثير من الإضافة والتعديل والتنقيح ، فأضفت اليـه فصلين كبيرين جديدين ، همـا « بلاط الشهداء » (الفصل الرابع) و « سقوط طليطلة » (الفصـل الرابع عشر) ، وأعدت كتابة عدة من فصوله ولا سيما الأول والثـانى والثالث والخامس والسادس عشر ، ونقحت معظم فصوله الأخرى ، وأنفقت جهدا كبيرا فى التحقيق ودرس المصـادر ؛ ورأيت فوق ذلك أن أغير نظامه وتبويبـه لكى تبدو فكرته الأصلية أشد وضوحا واتصالا ؛ ومن ثم فإن الكتاب فى ثوبه الجديد يمكن أن يعتبر كتابا جديدا .

أما فكرة الكتاب الأصليـة ، فهى التى يعـبر عنها عنوان الكتاب ، وهى تبيان مواطن اللقاء والفصل بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . وتلك ناحية من أهم نواحى التاريخ الاسلامى ، بل ربما كانت أهمها جميعا ؛ فهى فضلا عما تفيض به من شائق الحوادث والسير ، تلق كبير ضياء على ذلك الصراع الخالد بين الشرق والغرب ؛ وقد كان لقاء الإسلام والنصرانية فى ميادين الحرب أو السلام ، دائمـا موطن الفصـل بينهما ، وكانت له فى مصايرهما أعمق الآثار . وهـذا هو الميدان الذى استقيت منـه فكرة الكتاب ومعظم موضوعاته ، ومنه اخترت هـذه المواقع والمواقف الحاسمة التى أقدمها ؛ وكلها تدور حول هـذه الرابطة المشتركة وتسودها

نفس الفكرة ؛ فليس الكتاب كما قد يبدو لأول وهلة مجموعة من الفصول المتناثرة، وإنما هو — مع استثناء بضعة من فصوله — مجموعة متصلة متماسكة فى موضوع بعينه هو المواقف الحاسمة فى ملتقى الشرق والغرب والإسلام والنصرانية .

ولا ريب انى لم أتناول هذه المواقف كلها فالميدان شاسع غزير، ولكنى استعرضت طائفة من أهم هذه المواقف وأبعدها أثرا فى سير التاريخ الإسلامى، وعنيت بالأخص بالإفاضة فى اثنين منها هما حصار العرب للقسطنطينية، وموقعة بلاط الشهداء، وهما أعظم الحوادث والمواقع الحاسمة فى لقاء الاسلام والنصرانية؛ فقد كان إخفاق العرب تحت أسوار قسطنطينية ردا لسيل الاسلام الفتى عن اقتحام أوربا من الشرق وحياة جديدة للدولة البيزنطية امتدت الى قرون؛ وكان ارتداد العرب أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ردا لسيل الاسلام عن اقتحام أمم الغرب والشمال، ومختتم ظفره فى الغرب، وموطن الخلاص للنصرانية، ومهاد البعث والحياة للأمم الأوربية؛ وما كان ظفر المسلمين فى سهول الزلاقة ظفرا لاسبانيا المسلمة، وإنما كان هزيمة الإسلام كله للنصرانية كلها، وكان ايذانا باضطرام الحروب الصليبية ؛ وما كانت الحروب الصليبية إلا طورا جديدا من أطوار ذلك الصراع الخالد بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانية؛ وما كان مصرع الأندلس والحضارة الأندلسية ضربة للاسلام وحده، وإنما كان ضربة لعظمة اسبانيا ذاتها . ولنتصور مثلا أن المسلمين ظفروا بفتح رومة ولم يخفقوا تحت أسوارها ، أو أن الجيوش الصليبية استطاعت أن تقضى على مصر وأن تستقر فى المشرق، فأى مصير كان يقدر للاسلام والأمم الاسلامية يومئذ؟ هذه الحوادث والمواقف الحاسمة فى تاريخ الإسلام والنصرانية والشرق والغرب، هى التى اخترتها مادة لموضوع هذا الكتاب وفصوله، ومنها مواطن كثيرة لم تعن الرواية الاسلامية بالإفاضة فيها، ولم تأخذ حقها من التعريف والدرس فى مباحثنا التاريخية المعاصرة ؛ ومازال علينا أن نعتمد فى كثير من حوادثها وتفاصيلها على المراجع والمباحث الغربية رغم تأثرها فى كثير من الأحيان بالعوامل والمؤثرات الدينية والقومية، التى لايصهرها سوى البحث المتزن والتحقيق المستنير .

لقد حان الوقت الذى يجب أن تتخذ فيه دراسة التاريخ الاسلامى منهج البحث العلمى المنظم ، وأن ترتفع فوق هذه الإعتبارات والأساليب التى تجعلها أدنى الى الرواية والقصة، وأن تتخذ تلك الصور النقدية القوية التى نراها ماثلة فى الآداب التاريخية الغربية؛ وانى لأرجو أن أكون بهذا المجهود الضعيف الذى نال منذ ظهوره الأول عطف القراء والباحثين، قد وفقت بعض التوفيق فى سلوك هذا المنهج المنشود فى تناول مباحث التاريخ الإسلامى .

وقد ذيلت الكتاب بثبت للمصادر التى اعتمدت عليها وانتفعت بها ، وفهرس للأعلام التاريخية والجغرافية التى وردت خلال الفصول مع مقابلها الافرنجى لكى يكون مرجعا لضبط أعلام وأسماء كثيرا ماتتردد فى مباحثنا ويكثر فيها السقط والتحريف، ثم بفهرس أبجدى عام ليكون مرشدا عاما لكل ماتناوله الكلام والبحث .

القاهرة فى مارس سنة ١٩٣٤

محمد عبد الله عنان

المحامى

فهـــرس الموضـــوعات

صفحة

مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام — ٢

بحوث مفردة — ٣

الفصل الأول

وثبة العرب

فى التاريخ حوادث ومسائل تبدو خارقة ، تكاد تقصر عن شرحها وتعليلها الظواهر والقوانين الإجتماعية . ووثبة العرب من قفار مكة إلى غزو العالم القديم، إحدى هذه الحوادث والمسائل الخارقة . فمن قفار الجزيرة، خرج العرب فى قلة من العدد، وفى نقص من الأهبة ، لغزو دولتين من أعظم دول التاريخ منعة وضخامة وحضارة ، هما الدولة الرومانية والدولة الفارسية . ولم تقف هذه القبائل التى لم تخرج بعد من غمر البداوة ، أمام هيبة هاتين الدولتين العظيمتين اللتين اقتسمتا العالم القديم ، ولم يردها ما تمتعان به من كفاية حربية مؤثلة ، وجيوش قوية مظفرة ، وموارد زاخرة لا تنضب . وكان الظفر حليف هذه القبائل فى كل فتح وكل موقعة . ولم يمض نصف قرن حتى استطاعت أن تبنى على أنقاض ما هدمت من صروح الدولتين العظيمتين — دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ : تلك معضلة تاريخية يصعب فهمها وشرحها .

بيد أن فى ظروف العصر الذى حدثت فيه وثبة العرب الأولى ، واضطرام الصراع بين دولة الخلفاء الناشئة الفتية ، وبين فارس وقسطنطينية ، ما يقرب فهم هذه المعضلة . وفى وسعنا أن نرجع وثبة العرب بالعالم القديم ، وما أصابوا من من فتوح عظيمة ، وظفر باهر ، الى عاملين أساسيين ، أولهما يتعلق بتأثير الإسلام فى نفوس تلك القبائل البدوية التى خرجت من الصحراء الى الغزو فى طلب السلطان والثروة والملك ، ويتعلق الثانى بظروف الأمم التى قضت الحوادث أن تكون مهادا لفتوح العرب .

فأما الإسلام فآثاره فى وثبة العرب قوية بارزة . طلع الدين الجديد على قبائل مشردة مشتتة متنافرة متناجزة، تعيث بعقليتها التقاليد الوثنية، وتمزقها الحروب الأهلية، فألف بينها وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة . وكانت خواص العصر الذى ظهر فيه النبى العربى، مما يمهد الى الدعوة الجديدة ويقوى ذيوعها وتقدمها. كان عصر انحطاط عقلى واجتماعى هوت فيه الطبقات الحاكمة والممتازة فى المجتمعات المتمدنة، الى أشد ضروب الفساد والانحلال؛ وكانت الشعوب تموج سأما وسخطا من أحوال العصر ونظمه، وتضطرم أملا ورغبة فى استبدالها بنظم أمثل وأرفع؛ وكانت بوادر من هذه الريح العامة تهب فى بلاد العرب . يقول جيبون: «كان مولد محمد لحسن الطالع فى أشد العصور انحطاطا بالنسبة للفرس والرومان وبربر أوربا»[1] وكان العرب يشعرون بالحاجة الى دين أمتن فى أصوله وأنقى فى مبادئه وتعاليمه من الوثنية ومذاهبها المختلفة، بل كانت شعوب فارس والشام ومصر تشعر بمثل هذه الحاجة الى مبادئ وتعاليم روحية جديدة، بعد أن عفت الزرادشتيه والمانوية[2]، وجمدت اليهودية ووقف تقدمها منذ بعيد، وغدت النصرانية مثار الخلاف والجدل المستفيض، وانقسمت الى طوائف تسوم القوية، الضعيفة منها، من الظلم والاضطهاد .

كانت بلاد العرب خلال هذه العواصف القوية، التى تهب على العالم القديم فتهزه الى الأعماق، أوفر هدوءا وحرية، تفر اليها الطوائف المضطهدة المهددة فى عقائدها وشعائرها . وكانت بذلك أصلح مهاد لنشأة هذه المُثُل العليا التى يتطلع اليها العالم القديم، وتتطلع اليها القبائل العربية . يقول فون شليجل : «لم يفتح

(١) Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire. Ch. L.

(٢) وهى مذهب زرادشت مؤسس دين الفرس القديم (نحو القرن الثامن قبل الميلاد) وقد لبثت الزرادشتية دين الفرس القومى منذ أواسط القرن السادس قبل الميلاد الى أواسط القرن السابع بعده. والمانوية مذهب مانى الفارسى أيضا (القرن الثالث الميلادى) وقد ذاع رغم مطاردته فى فارس وما حولها من بلاد العرب وكذا مصر .

العرب فاتح قط، وكانوا مدى تاريخهم أحرارا» ثم يقول « فهـذه الحرية الأثيلة ، والاستقلال التام عن كل فاتح وطاغية، كان لهما شأن كبير فى الارتفاع بالعـرب الى شعور قوى بالنفس »[1] . وفى ذلك العصر الذى كانت تضـطرم الجزيرة فيه بهـذه الأمانى والمُثـل الرفيعة، ويحفزها شغف التحرر من شوائب الحياة القـديمة، ظهر النبي العربى، وظهر الإسلام .

جاء الإسلام دستورا جامعا لحياة جديدة، تمتاز بنقائها ومتانة أسسها الأخلاقيـة والاجتماعيـة . وكان للاسلام، من ناحيته التشريعية فى تنظيم هذا المجتمع المشتت المتنافر أعظم الأثر. فقد خلقت الشريعة الجديدة، من القبائل العربية، مجتمعا منتظما متماسكا، واستبدلت حكم العرف والأهواء، بقوانين حكيمة تعبر أقوى تعبير عن أمثل الخواص والمشاعر البشرية . ولا ريب أن الشرائع التى تحكم الجانب المعنوى من الحياة، أشدّ ما تكون أثرا وأعظم ما تكون فوزا اذا استطاعت فى أحكامها أن تقود مناحى التفكير والعواطف فى المجتمع الذى سنت له . وقـد كان هذا فوز الشريعة الإسلامية ، وهـذا ما جعلها مدى القرون دستورا سياسيا واجتماعيا لمعظم الدول والمجتمعات الإسلامية ، بل هذا هو السر فى أن كثيرا من المجتمعات الإسلامية الحديثة ما زالت فى عصرنا تحتكم راضية مغتبطة، الى كثير من الأحكام والنصوص التى وضعت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا . يقول لنا جيبون فى إعجاب ودهشة : « إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره، فإن نفس الطابع النقى الكامل الذى كان له فى مكة والمدينة، لا زالت تجيش به صدور المسلمين فى الهند وإفريقية وتركيا »[2] ويقول فتلى : « قد يحـرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقـول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريتـه أساس نظام دينى سياسى ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمـد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة فى كل

---

(١) Fr. von Schlegel : Philosophie der Geschichte. Kap. XII.

(٢) Gibbon : ibid; Ch. L.

نواحى الهيكل الإجتماعى، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والإسكندر[١] » .

هذه عوامل إيجابيـة فى أثر الاسلام فى وثبة العرب . و يوجد ثمة عامل سلبى يرجع الى مشاعر الشعوب التى كانت مهادا أولى لانتشار الإسلام . ففى فارس ، وفى أقطار الدولة الرومانية، كان الإضطهاد الدينى سياسة مقررة للدولة . وكان هذا الإضطهاد يلحق أبناء الأديان والمذاهب المختلفة، حتى أبناء الدين أو المذهب الذى تقره الدولة اذا لم يعتنقوا هذا الدين أو المذهب بصورته الرسمية التى تريدها الدولة. وقد جاء الإسـلام بنعمة التسامح ، ينادى بحرية الإعتقاد والضمائر ؛ وحرص الغزاة المسلمون على تطبيق هذا المبدأ الى حدود لا بأس بها ، فى عصر كان الإسلام فيه فتيا، وكانت جذوة الحماسة الدينية تضطرم فى نفوس الخاصة والعامة معا ؛ فكانت هذه السـياسة الحكيمة كما سنرى، من أهم العوامل فى انتشار الفتوح الإسـلامية واكتساب ولاء الشعوب المفتوحة .

٢

فى تلك الصورة المتباينة التى يقدمها الينا التاريخ وقت ظهور الإسـلام ، عن انحلال الدولتين الفارسية والرومانية، وانحطاط العالم القديم ؛ ثم عن سذاجة المجتمع العربى ، وتمتعه بألوان من الحماسـة والفتوة والنقاء المعنوى ؛ نسـتطيع أن نلمس كثيرا من عوامل ظفر الإسلام والعرب .

ويرسم لنا جيبون هذه الصورة فى قوله : « و بينما كانت الدولة (الرومانيـة) قد أنهكتها الحروب الفارسية، والكنيسة قـد شغلها جدل الطوائف ؛ نهض محمد والسيف فى يد، والقرآن فى الأخرى، فأقام عرشه على أنقاض النصرانية وأنقاض رومة . إن فى عبقرية النبى العربى، وفى خلال أمته ، وفى روح دينه ، أسـباب انحلال الدولة الشرقية وسـقوطها؛ وإن أبصارنا لتتجه دهشـة الى ثورة من أعظم

---

(١) Finlay : Greece under the Romans. Ch. V - 2.

الثورات التى طبعت أمم الأرض بطابع خالد[١] » ، ويرسمها فون شليجل فى قوله : " فإذا قارنت بانحطاط الرومان ، وفساد البلاط البيزنطى ، وخنوثة الأشوريين ، وتهتك المدن الأسيوية الكبرى ، ذلك الخلق العربى البدوى الذى حفظ نقاؤه فى ظل الحرية العريقة ، فإنه يبدو بلا ريب أقل فسادا ، وأمتن خلالا وأكرم عنصرا . ولا ريب أن العرب كانوا يتمتعون فى عصور تاريخهم الأولى ، بعزم معنوى عظيم فى الإرادة ، وقوة فى الخلق ، بل انك لتلمح هذه الخلال فيهم ، حتى فى عصور انحلالهم[٢] " .

بينما كانت الجزيرة العربية تضطرم بهذه الحياة الجديدة القوية ، كانت الدولتان اللتان تسيطران على العالم القديم ، وتشرفان بحدودهما وأملاكهما على أطراف الجزيرة ، وهما الدولتان الفارسية والرومانية ، تجوزان مرحلة الإنحلال الاجتماعى والسياسى . ففى فارس كان حكم الطغيان يعصف بجميع طبقات المجتمع ، ويخنق جميع الحريات ، وكان هذا الحكم ذاته يضطرب فوق بركان من الدسائس والمؤامرات والمطامع ، وكانت حماسة الفرس الحربية التى دفعت جيوشهم من قبل الى قاصية الأناضول ، قد خبت منذ بعيد ، وغاضت فى حياة الترف والدعة ، واضمحلت سلطة العرش القوية ، وعجزت عن ضبط الأطراف البعيدة ، وسادت الفوضى فى أنحاء الدولة ، وبث حكم العسف والهوى السخط الى جميع طبقات المجتمع . وكانت الدولة الرومانية قد شاخت وتقاسمت القبائل البربرية نصفها الغربى . ولم يطل بالدولة الشرقية عصر الأحياء الذى افتتحه الأمبراطور يوستنيان باصلاحاته وفتوحاته فى أوائل القرن السادس ، ولم تلبث أن سرت اليها عوامل الانحلال والتمزق . وكانت النظم والقوانين الرومانية أكبر سبب فى هذا الانحلال . ذلك أنها كانت تمعن فى التفريق بين الطبقات والأفراد ، وتؤثر الرومانيين بجميع الحقوق والمناصب والامتيازات ، وتحرم منها غير الرومانيين من رعايا الدولة . وكان من أثر ذلك

---

(١) Gibbon: ibid; Ch. L.

(٢) Fr. von Schlegel: ibid; Kap. XII

أن قسم المجتمع الرومانى الى طبقتين ؛ السادة الحاكمون وهم الرومانيون (الروم[١]) والرعايا المحكومون ؛ وهؤلاء وهم أكثرية السكان يحرمون من جميع الحقوق والامتيازات ، ويسامون الخسف ولا سيما فى الولايات النائيـة البعيدة عن رقابة السلطة المركزية ، ويرهقون بالضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكانوا لذلك يمقتون النير الرومانى ويتوقون الى الخلاص منـه . وكانت الجيوش الرومانيـة أيضا فى العصر الذى نتحدث عنـه قد فقدت صبغتها القوميـة، وانتظم فيها المرتزقة وأبنـاء البلاد المفتوحة الذين اضطرت الدولة أن تلجأ اليهم فى حمايتها وتأييـد سلطانها فى شاسع أقطارها؛ فكان لهذا المزج بين العناصر الرومانية الخالصة، والعناصر الأجنبية، أثره فى انحـلال عصبية الجيش وهى قوام الدولة ، حيث غاضت منـه الروح القومية التى جعلت منه فيما سلف رعب العالم القديم ، ودفعته الى آكام إيقوسيا وسواحل البلطيق .

على أن ظفر العـرب الحربى يرجع من بعض الوجوه الى أسـباب عرضية لا علاقة لها بما كانوا يتمتعون به من الخواص والمزايا الحربية . والواقع أن جيوش الصحراء الناشئة لم تكن لتضارع الجيوش الرومانيـة والفارسية المنظمة فى الكفاية أو تناهضها فى الأهبة؛ على أن قسما كبيرا من الجيوش العربية تلقى تجاربه الحربيـة فى الحروب الفارسـية، وكانت الحماسـة الدينية تقوم لدى الفتية الأحداث مقام النظام والكفاية، بل كانت هذه الحماسة تبز شجاعة الجيوش الرومانية وتطغى عليها، وكانت الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة خاصة واضحـة فى الصفوف العربية، وكانت تعوضها عمـا يعتورها من نقص فى الأهبـة والخبرة . كذا كانت المفاجأة والسرعة من خواص الفتوحات العربيـة الأولى ومن عوامل نجاحها . ذلك لأن

---

(١) تطلق الرواية الاسلامية كلمة "الروم" على رعايا الدولة الرومانية الشرقيـة أو الدولة البيزنطية فنراها فى حوادث فتح الشام ومصر وآسـيا الصغرى وحصار قسطنطينية مستعملة بهـذا المعنى . وأحيانا تستعمل بطريق أعم فتطلق على جميع سكان الأمم الواقعة شمال البحر الأبيض . وقـد تطلق فى الروايات الاسلامية الأولى على جميع الأمم النصرانية (ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧) على أن الاسـتعمال الأول هو الأغلب والأصح .

الحماسة مهما بلغت من الاضطرام لا تثبت فى حرب طويلة الأمد ، ولأن النظام والكفاية ينتهيان غالبا بالفوز متى زال أثر المفاجأة والصدمة الأولى . على أن العرب استطاعوا فى معظم فتوحاتهم أن يفوزوا سريعا باجتناء الثمرة المنشودة ، وتثبيت أقدامهم فى الأرض المفتوحة بين شعوب تمزقها الخلافات الدينية ، ويضنيها الإرهاق والعسف ، وتحفزها البغضاء والسخط . فكانت الجيوش الرومانية تخسر فى معظم هذه المعارك ما كانت تتفوّق به على العرب من مزايا النظام والدربة ، وما كانت تستطيع أن تستمدّه من عطف الشعوب المحكومة ، التى ضنت منذ بعيد بعطفها ومؤازرتها على حكومة تعانى من جورها وبطشها أمر ضروب الظلم والإرهاق .

وقد تلقت الدولة الرومانية وثبات العرب فى وقت أنضبت فيه الحروب الفارسية مواردها ، وأضنت قواها ، وحطمت نفوذ الحكومة المركزية ، وعاونت جماعة من الزعماء وحكام الولايات على تحدّى السلطة المركزية والفوز بنصيب وافر من الإستقلال . وكانت العاطفة القومية قد غاضت منذ بعيد فى نفوس الزعماء والسادة ، فكانت المطامع والمصالح الشخصية وحدها تحرّكهم وتوجه سياستهم وأعمالهم ، وكانت غايتهم القصوى أن يدعموا استقلالهم المحلى بكل الوسائل . هذا إلى أن رعايا الولايات أنفسهم كانوا يبغضون نير الدولة لأنها كانت لضعف سلطتها تسلمهم الى حكام وموظفين يسومونهم الخسف ، ويثقلون كاهلهم بمختلف الضرائب والمغارم . وكانت المطاردة الدينية من جهة أخرى ، تزيد فى هذا البغض وتذكيه . ذلك لأن السياسة الرومانية كانت منذ القرن الرابع تحملها نزعة قوية من التعصب ، وكانت تذهب فى الإضطهاد الدينى الى حدود مروعة . وكان أحبار مصر والشام وأكابر النصارى الذين لا يعتنقون مذهب الدولة الرسمى ، يمقتون هذه السياسة ويقاومونها ، ويؤازرهم فى ذلك فريق كبير من الشعب . فلما ظهر الاسلام ، واندفع سيل الفتح العربى الى أراضى الدولة الرومانية ، ألفى مهادا صالحة للظفر ، واستطاع البطارقة والزعماء ، واستطاعت الشعوب المحكومة أن تقدر اعتدال أولئك الغزاة الجدد وقناعتهم فى فرض سلطانهم وأحكام دينهم .

والحقيقة أن العرب قدموا فى فتوحهم الأولى، أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس، واجتناب الكبائر والأساليب الوحشية التى كانت تسود صحف الحرب فى تلك العصور. فقارن مثلا وصية أبى بكر الى الجيش الذاهب لقتال المرتدين: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة، ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للاكل ... الخ»[١] وحديث عمر عن العمال: «وإنى والله ما أرسل عمالى اليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه الى، فوالذى نفسى بيده لأقصنه»[٢] ثم قارن مقدم عمر الى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه من أهلها نزولا على رغبتهم، فى غير ما جلبة ولا موكب، وكيف أنه نهر قادته حينما استقبلوه فى ركب فخم، وكتب عهده وهو الظافر لأهل المدينة "بأنهم آمنون على دمائهم، وأولادهم ونسائهم، وجميع كنائسهم لاتسكن ولا تهدم" وكيف أنه أبى أن يصلى داخل كنيسة القمامة (قبر المسيح) خشية ان يحتج المسلمون فيما بعد بصلاته لأخذها[٣] — قارن ذلك وغيره مما تراه مسطورا فى سير الفتوحات العربية الأولى، بما كانت الجيوش الرومانية والفارسية، تمعن فيه من صنوف السفك والتخريب والنهب فى غمار الحروب التى كانت تضطرم بينهما قبيل وثبة العرب، وما كان يحف مقدم القياصرة وعمالهم الى الأقاليم من ضروب الفخامة والبذخ، والتسامى عن مخاطبة الشعب أو الإصغاء لظلاماته؛ ثم قارن صرامة القواد العرب فى توقيع الأحكام ورفع الظلامات، وحماية أهل البلاد المفتوحة من عسف الجند الظافرين، بما كان ينزله عمال الامبراطور وضباطه بهم من صنوف المظالم والمغارم دون وازع ولا عقوبة. هذه الفروق بين العدالة والجور، والاعتدال والتطرف، والعفة والشراهة، والتسامح

(١) ابن خلدون ج ٢ (القسم الثانى) ص ٦٥

(٢) راجع ابن الجوزى — سيرة عمر بن الخطاب (مصر) ص ٨٢

(٣) راجع ابن خلدون ج ٢ (١) ص ٢٢٥ و (٢) ص ١٠٦

والإرهاق ، كانت من أقوى العوامل التى ذللت للعرب سبل الظفر والفتح ، وعاونتهم على اغتنام مسالمة الشعوب المفتوحة وتأييدها ، وبعثت الى هذه الشعوب نوعا من الطمأنينة على مصايرها فى ظل سادتها الجدد ، وخففت لديها من وقع هذا التحول فى السيادة ، فلم يحط مقدم العرب بما يحيط مقدم العدو المغير عادة ، من ضروب التوجس والجزع والارتياع .

هذه السياسة الحكيمة التى رسمها المسلمون الأوائل لم تكن عامة ، ولم تكن طويلة الأمد . بيد أنها لبثت حينا فى عصر انحلال وتطور ، تفيد من عوامل السخط واليأس التى تجيش بها مجتمعات مظلومة مهيضة ؛ وكان القليل من بوادرها المادية يشيد للعرب من العطف والتأييد قوى لا تغنمها الجيوش الجرارة ، ويمهد لهم سبلا من الوئام وحسن التفاهم لا يحققها عنف ولا بطش . ولنا من ذلك أمثلة لا حصر لها فى عصر الفتوحات الأولى ؛ فقد كان التسامح كما سنرى ، سياسة مقررة للخلافة ؛ وكان للنصرانى أو اليهودى ، ما للمسلم تقريبا من حرية الإعتقاد والشعائر ؛ وكانت الطوائف غير المسلمة تتمتع فى الغالب بالاحتكام الى شرائعها وتقاليدها الخاصة ؛ وكانت الضرائب تفرض على وجه العموم بالمساواة والاعتدال .

وأثر هذه السياسة واضح فى الظروف التى أحاطت بقيام السيادة الإسلامية فى البلاد المفتوحة ، فقد كانت تقوم فى الغالب عقب الفتح على أسس قوية لا توهنها عوامل السخط التى تجيش بها صدور المغلوبين عادة نحو الفاتح المغير ، وتجعل سلطانه محفوفا بالمخاطر ، يقوم على بركان مستتر من البغضاء وظمأ الانتقام ، ورغبة التحرر ، وينفجر لأقل بادرة ولأول فرصة . لذلك استطاع العرب رغم اشتغالهم بالفتح ، أن يعنوا فى الوقت نفسه بتنظيم الأمم والمجتمعات الجديدة ، وأن يوثقوا عرى الوئام والتفاهم مع الشعوب المغلوبة ، وأن يخضعوها لنظم الإسلام وروحه فى مراحل متفاوتة متعاقبة ، اتقاء لعواقب العنف والتسرع وما تؤذن به عادة من اضطرام الآثار والعوامل الرجعية ، وتقويضها لدعائم دولة قامت على أسس من العنف والإرهاق المستمر ، وتجاهلت كل العواطف والمشاعر والأمانى والحقوق .

تلك هى العـوامل والظروف التى أذكت فورة الفتوح الإسلاميـة الأولى ، وذللت سبلها ، وجعلت من الشعوب المفتوحة شبه حلفاء للعرب ، يرون فى مقدمهم نوعا من الخلاص وتحسين المصير . وفى مهاد هـذه العوامل والظروف اسـتطاع العرب أن يكتسحوا سواد العـالم القديم شرقه وغربه ، وأن يقتحموا البحر من الغرب الى قلب الأمم النصرانيـة ، فى أقل من قرن . على أن فورة الظفر ما لبثت أن خبت ، مذ نعم العرب فى ظل الدولة المنظمة بالسلام والرخاء والدعة ؛ وعنـدئذ استطاعت الدولة الرومانيـة ، واستطاعت النصرانية ، أن تستكملا أهبـة الدفاع والمقاومة ؛ وعنـدئذ لقى العرب هزيمتهم الحاسمة الأولى تحت أسوار قسطنطينية ، فأوصدت دونهم أبواب أوربا من جهة الشرق ؛ ثم لقوا هزيمتهم الثانية ، فى سهول تور (بلاط الشهداء) ، فكانت فصـل الختام فى سير الفتح الإسـلامى فى غرب أوربا ؛ وارتد الإسلام عندئذ الى الجنوب حيث امتنع بالأندلس ؛ ومزقت الدولة الإسلامية الكبرى الى دول عديدة خصيمة متنافسة ، واختتم الى الأبد عصر قصير من الظفر الباهر .

الفصل الثانى

سياسة العرب الدينية

إذا كان خروج العرب من القفر، ومن غمر البداوة، الى حياة الظفر الباهر، وإقدامهم فى قلة من العدد ونقص فى الموارد والأهبة، على غزو دولتين من أعظم دول العالم القديم، وأشدها منعة، وأوفرها أهبة وموارد، هما الدولتان الفارسية والرومانية، وإقامتهم فى أقل من قرن دولة عظيمة شامخة فوق أنقاض ما هدموا من صروح العالم القديم وغنموا من أقطاره : إذا كان ذلك ظاهرة مدهشة من ظواهر التاريخ، فان ظفر الإسلام بالأديان القديمة، واجتياحه للشعوب المفتوحة بسرعة خارقة، ظاهرة من أغرب ظواهر التاريخ أيضا . واذا كان ظفر العرب يرجع من بعض الوجوه الى ظروف وعوامل خارجة عن إرادتهم وتدبيرهم، فكذلك يرجع ظفر الإسلام من بعض الوجوه الى ظروف الشعوب المفتوحة، والى أحوال المجتمعات الجديدة التى انضوت تحت لواء الإسلام، والى خواصها النفسية والاجتماعية.

ليس فى صحف الدعوة الإسلامية شىء من تلك السير والمطاردات الدموية التى اقترنت بظهور معظم الأديان القديمة، والتى نراها ماثلة بالأخص فى عصور النصرانية الأولى . وقد انتشرت الدعوة الإسلامية بوسائلها السلمية الخاصة، وكان ظفرها أعظم ما سجل تاريخ الأديان والعقائد . يقول المؤرخ فون جوت شميت : «إن الإقبال العام على اعتناق دين جديد على أثر فتح أجنبى، أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم، ولكن الإسلام يقف وحيدا فى هذا الفوز» . ويقول دوزى : «إن هذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزا غريبا، ولا سيما متى علمنا أن الدين الجديد لم

يفرض فرضا على أحد»[١] . والواقع أن الدعوة الإسلامية قامت منذ البداية على مبدأ التسامح واحترام العقائد والضمائر، خصوصا إزاء اليهود والنصارى أعنى أهل الكتب التى يقر الاسلام قدسيتها . وكانت النصرانية واليهودية فى الوقت الذى ظهر فيه النبي العربي ووثب الإسلام من الصحراء، هما دين السواد فى كثير من البلاد التى فتحها العرب ، فكانت الجزية كل ما فرضه الدين الجديد على غير المسلمين للاحتفاظ بحرية عقائدهم وشعائرهم . وكان هذا الامتياز مقصورا على اليهود والنصارى بادئ بدء ، ولكنه لم يلبث أن امتد فى زمن النبي ذاته الى أبناء أديان أخرى مثل قبائل البحرين وسوادهم من الزرادشتية . وفى عهد عثمان ثالث الخلفاء، امتد هذا الامتياز الى بربر إفريقية التى فتحت فى عهده ، وشبه البربر باليهود والنصارى والزرادشتيه فى التمتع بحرية الاعتقاد والشعائر نظير الجزية . والظاهر أن الوثنية كانت ماتزال تسود يومئذ قبائل البربر، وكانت الوثنية بلا ريب دين البربر قبل الفتح الرومانى ، ولكن رومة فرضت النصرانية منذ الفتح على البربر فغلبت على سكان إفريقية منذ القرن الرابع . والظاهر أيضا أن كثيرا من القبائل كانت لعهد الفتح الإسلامى تدين باليهودية[٢] . وعلى أى حال فقد شملت سياسة التسامح الدينى كل الشعوب المفتوحة، وكانت منها مجتمعات كثيرة تدين بالشعائر الوثنية . يقوله العلامة جولدسهر : ” سار الإسلام، لكى يصبح قوة عالمية، على سياسة بارعة . ففى العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمرا محتوما . فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد ، أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتيه، كان فى وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية؛ ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ الى أعماق أرواحهم، وإنما كان يقصد الى سيادتهم الخارجية . بل لقد ذهب الإسلام فى هذه السياسة الى حدود بعيدة؛ ففى الهند مثلا كانت الشعائر القديمة تقام فى الهياكل والمعابد فى ظل الحكم

---

(١) Dozy : Essai sur l'Islamisme.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧

الإسلامى"[١] . وينوه دوزى بأهمية هـذا التسامح فى حديثه عن فتح الأندلس ويقول : "لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحدا فى شئون الدين ... ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج"[٢]. والخلاصة أن التسامح الدينى كان أصلا ثابتا من أصول السياسة الإسلامية، يرجع الى عصر النبى ذاته، وقد دفع فيما بعـد الى حدود لعلها جاوزت ما كان يراه النبى وخلفاؤه الأوائل .

هذا التسامح وان كان نسبيا معلقا على افتـداء الحرية الدينية بالجزية، إلا أنه كان ظاهرة جديدة فى عصور سودت صحفها سير الإضطهاد الدينى ، وفيها كانت تضطرم الخلافات والمعارك الدينية فلا تخمد إلا فى سيول من الدماء؛ وكانت الدولة تملى دينها على الشعوب، سيدة كانت أو مسودة، ولا تقنع بالإيمان والشعائر اللفظية ، بل تدفع العسف إلى أعمق ظروف الحياة الخاصة، فضلا عن الحياة العامة . وقد عصفت هـذه السياسة بمنعة الدولة الرومانية الشرقية أيما عصف ، وقوضت من هيكلها الاجتماعى أيما تقويض ؛ وكانت لها أيضا آثارها المخربة الهدامة فى الدولة الفارسية . أما الدولة الإسلامية فقـد عرفت منذ نشأتها قيمة التسامح، واستطاعت أن تغـزو به قلوب الشعوب والطوائف التى أضناها عسف المطاردة الدينية فى ظل العهد القديم؛ وكانت فضلا عن الاضطهاد الدينى تنوء بأعباء الضرائب والمغارم الفادحة ، ونزعات السلب والمصادرة التى ترتكب غالبا باسم الدين .

تقـدمت الدولة الإسلاميـة اذن الى الشعوب المفتوحة بمزيتـين أو نعمتين

---

(١) Goldziher: Die Religion des Islams (die Religionen des Orients) P. 106

(٢) Dozy: Hist. des musulmans de l' Espagne II, P. 41 - 43

لم تعرفهما فى عهد الحكم السابق : الأولى نعمة التسامح والحرية الدينية ، والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة ، التى تفرض طبقا لأصول وحدود معينة . وقد كان لهذا التسامح ، وهذه القناعة ، كما بينا ، أيما أثر فى تذليل سبل الفتح امام العرب ، وفى اغتنامهم لعطف الشعوب المفتوحة ، بل فى اغتنام معاونتها الفعلية فى الوقوف الى جانبهم فى وجه الدولة الرومانية فى كثير من المواطن .

أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك : كيف ذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة؟ ولماذا آثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الاعتقاد والضمائر أن تنزل عن أديانها وعقائدها لتعتنق دين الحكومة الجديدة؟ وكيف استطاعت السياسة الإسلامية فى كثير من التسامح والرفق أن تخلق فى أقل من قرن أمما إسلامية عظيمة فى فارس والشام ومصر و إفريقية واسبانيا؟ كانت هذه الظاهرة العجيبة نتيجة لعدّة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية أملت على حكومة الخلفاء سياستها نحو رعاياها الجدد ، وكان للأطماع الشخصية ، والحرص على المكانة الاجتماعية ، فى خلقها نصيب أيضا ، بل سنرى أن حدوثها بتلك السرعة لم يكن دائما متفقا مع مصالح الخلافة المادية . ذلك أن تسامح الحكومة الإسلامية كان قاصرا على حرية الضمائر والشعائر ، ولم يكن يشمل فى حياة الفرد ، كل مظاهرها الاجتماعية والمدنية . كانت الطوائف غير المسلمة تعتبر دائما فى نظر المجتمع الإسلامى منحطة من الوجهة الإجتماعية ، وكانت من أجل ذلك لا تلقى فى ميادين الحياة العامة ما يلقاه المسلمون من الرعاية والاحترام والعزة . وترجع هذه التفرقة الى عصر الإسلام الأول ، وكانت تفرقة رسمية تقررها الدولة وتقصد إليها . وكان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء ، أول من صاغ هذه السياسة نحو الذمّيين (غير المسلمين) فى تشريع وأوامر خاصة كانت مصدر هذا النوع من التشريع فى الدول الإسلامية ، وكانت تختلف باختلاف الظروف لينا وشدّة . وخلاصتها أنه لا يسمح للذميين (غير المسلمين) ببناء كنائس أو بيع جديدة ، أو إعادة بناء ما تهدم منها ، أو يرفعوا الصلبان فوق الكنائس ، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق أو الأماكن العامة ، وألا يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس

اذا كانت واقعة فى حى اسلامى ، وألا يوقدوا الشموع وأن يلزموا السكينة فى الجنائز اذا مرت بأحياء إسلامية ، وألا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون إسلام نصرانى ، وأن يحافظوا على مراسيم الخضوع والاحترام للمسلمين فى المواكب والمحافل العامة ، كألا يجلسوا فى حضرة مسلم إلا اذا أذنوا ، وألا يلبسوا أزياء المسلمين ، بل يتخذون أزياء وألوانا خاصة ؛ كذا كان يحظر عليهم أن يتسموا بالأسماء العربية أو ينقشوا الأحرف العربية على أختامهم ، أو يستعملوا السروج أو يحملوا السلاح أو يسترقوا مسلما . ومما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين : "أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ، ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى ، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم"[1] .

كانت هذه التفرقة الرسمية تخلق من الطوائف غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية مجتمعا آخر ، ذا حياة ونفسية ونظم اجتماعية خاصة ؛ تنظر إليه الحكومة الإسلامية ، وينظر اليه المسلمون بعين غير تلك التى ينظرون بها الى أبناء دينهم . وكانت هذه الأحكام الخاصة بغير المسلمين تطبق فى العصور الأولى فى رفق ولين ؛ وكان حكام النواحى والسلطات المحلية أكثر تسامحا ورفقا فى تطبيقها من السلطة المركزية ؛ وكثيرا ما عقد الذميون مع حكام النواحى معاهدات محلية للتخلص من هذه الأغلال والفوارق الإجتماعية المهينة . ومع ذلك فقد كان مركز الذميين من النصارى واليهود ، فى الدول الإسلامية ، دائما منحطا من الوجهة الاجتماعية ؛ وهو يشبه من وجوه كثيرة مركز اليهود فى الأمم الأوربية فى العصور الوسطى ، بل فى عصرنا هذا فى بعض الأمم التى ما زالت تضطرم بنزعة الخصومة السامية[2] . وكانت

---

(١) راجع طرفا من هذه الوثائق فى أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكم ص ١٥١ — وخطط المقريزى (بولاق) ج ١ ص ٧٦ ؛ وفى ج ٢ ص ٤٩٤ ، وص ٤٩٨

(٢) مثل المانيا ورومانيا والمجر .

وطأة هذه التفرقة تشتد بالذميين، ولا سيما النصارى، فى كثير من المآزق والأزمات السياسية؛ وقد تنقلب أحيانا الى مطاردة عنيفة تسام فيها الكنيسة والنصارى ألوانا من القمع والاضطهاد والذلة . وكان الذميون فوق ذلك موضع التوجس والريب من السلطات الحاكمة ، وقلما كانت الحكومات الإسلامية الأولى تجيزهم الى وظائف الدولة ، اللهم الا أعمال المحاسبة والجباية حيث كانت لهم فيها براعة خاصة ، أو ترفعهم الى مراتب النفوذ والثقة ، أو تعهد اليهم بالمهام الخطيرة ، أو تأتمنهم على مصلحة ذات شأن . فليس غريبا اذاً أن يتوق الذمّيون فى تلك العصور إلى التحرر من أعباء هذا النظام و وصماته ، وأن يؤثر الأذكياء والطامعون منهم اغتنام كل ماينعم به المسلم من المزايا الاجتماعية والاقتصادية باعتناق الإسلام ، وان يشقوا لأنفسهم الى الحياة سبلا طيبة باهرة بالاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأن يتمتعوا خلال ذلك كله بنعمة الحرية الفكرية التى كانت من أسمى ظواهر الحياة الإسلامية . ولم يكن دخول الذمى فى الإسلام يفضى دائما لأول وهلة الى تمتعه بكل مايتمتع به المسلم من الحقوق والمزايا . بيد أن اعتناق الإسلام كان أول خطوة فى تحرره من الأعباء المرهقة والتقاليد المزرية والعرف المؤذى . واذا كان الجيل الأول من الذميين الداخلين فى الاسلام يلقى صعابا فى سبيل الاندماج التام فى المجتمع الاسلامى، أو الفوز العاجل بكل ماينعم به المسلم المؤثل من صنوف التجلة والإيثار، أو اغتنام عطف السلطات الحاكمة وثقتها، فقد كان الزمن وحده كفيلا بمحو هذه التقاليد و إزالة هذه التفرقة، و إدماج أبناء الوطن الواحد فى مجتمع واحد . وكان تعاقب الأجيال والذرية وحده سبيلا الى النسيان و رفع أبناء الذين أسلموا الى صف المسلمين القدماء؛ هذا الى أن عقبهم كانوا ينتحلون الأنساب العربية فيرجعون ألقابهم وأنسابهم الى أصل من الأصول العربية المعروفة لكى يقضوا بذلك على آخر الآثار والذكريات التى قد تشوب مركزهم الإجتماعى بعد أن دخلوا فى حظيرة الاسلام وغدوا مسلمين خلص أوفياء .

وقد كان فوز الإسلام فى الشام ومصر أسرع وأيسر منه فى أى بلد آخر من

البلاد المفتوحة . وكانت النصرانية قد سادت مصر والشام لعهد الفتح الإسلامى ، ولكنها فرضت عليهما بالنار والسيف وسرى الخلاف غير بعيد الى أصولها ومبادئها ، فاضطربت أسسها ووهنت عقائدها ، وتعددت الطوائف والمذاهب ، واضطرمت بينها الخصومات ، واشتد العسف والإرهاق ، فسادت الفوضى السياسية والاجتماعية . ولم يكن فى أصول الاسلام ما يُحفظ القلوب المؤمنة ، وكانت خصومته للعقيدة النصرانية رفيقة لينة . وكان فوز العرب فى اجتياح العالم القديم بسرعة مدهشة آية قوته و رجحان دعوته ، كما أن ما اقترنت به سياسة الفاتحين من ضروب العدالة والرفق والعفة والزهد ، كان حجة ناهضة على جور الحكومات النصرانية فى تلك العصور ، وعلى أن الكنيسة لم تكن رمزا صحيحا لمثل العدالة والإخاء . ألم تكن هذه كلها شواهد قاطعة عميقة الأثر على أن الدين الجديد أجدر بالاتباع ، وأنه وهو الظافر ، دين الحق ؟ كان طبيعيا أن تطبع هذه الظواهر روح التفكير فى هذا العصر ، وكان الإيمان بالمعجزات سلاحا مسموما ارتد الى صدر الكنيسة فإنه لم تحدث معجزة ترد عادية الإسلام عن النصرانية ، ولم تنقض الصواعق على تلك الجيوش المظفرة التى اجتاحت سواد العالم القديم فى زهاء جيل فقط .

وكذا كان ظفر الإسلام سريعا فى باقى الأمم المفتوحة . وفى ذلك يقول الفيلسوف شليجل : « نستطيع أن نبحث دين العرب الجديد وفتوحهم على ضوء هجرة جديدة للأمم ، فإن قسما كبيرا من الأمة العربية هاجر الى اسبانيا . وأحدثت هذه الهجرة العربية فى آسيا و إفريقية انقلابا خطيرا فى السلطان واللغة والخلال والأنظمة السياسية ؛ أعظم وأشد من ذلك الذى أحدثته غزوات القبائل الجرمانية فى أوربا »[1] .

ولكن هل كان انتشار الإسلام بتلك السرعة الخارقة بين أبناء الشعوب المفتوحة متفقا دائما مع سياسة الخلافة ومُثلها ولا سيما بعد أن استحالت الى ملك سياسى ؟ الظاهر أنه لم يكن كذلك فى كثير من الأحيان ، بل لقد كان بالعكس يضر بمصالحها

---

(١) Fr. von Schlegel ; ibid ; Kap. XII

المادية أكبر الضرر، حتى أنها منذ العصر الأول — عصر الدعوة والفتوة الدينية — لم تكن تشجع هذه السياسة . ولذلك تعليل ظاهر . فقد كانت موارد الحكومة الإسلامية من الجزية والمغارم المختلفة التى تفرض على الذميين، عظيمة فادحة؛ وكانت هذه الموارد تتأثر كلما حدثت وثبة عامة من شعب مفتوح لاعتناق الإسلام. ولم يكن هذا الأثر عظيما بادئ بدء، لأن أغلبية الشعوب المفتوحة لبثت حينا تؤثر التمتع بمنحة الجزية — أجل منحة الجزية أو نعمتها بالقياس الى ما كانوا يلقون من الحكومات الذاهبة — للاحتفاظ بدين الآباء والأجداد، وإقامة الشعائر القومية. هذا الى أن الثروات الطائلة التى كانت تفيض على خزائن الحكومة الإسلامية من تركات الحكومات المغلوبة وأسلابها، وأموال الأمراء والحكام والقادة والزعماء المغلوبين، وفدى الأسرى، كانت أكثر من أن تعوض على الخلافه فى عصرها الأول، ما كانت تخسر من آن لآخر بإقبال جمهور الذميين على اعتناق الإسلام تحررا من الجزية وما إليها من الفروض والأعباء.

ونستطيع أن نكون فكرة عن موارد الخلافة من الجزية ومختلف المغارم والثروات التى كانت تحصل من البلاد المفتوحة، بما تذكره الرواية العربية فى فتح مصر، من أنه لما صالح عمرو بن العاص القبط على أن يدفع كل رجل منهم جزية قدرها ديناران، بلغ من وجبت عليهم الجزية السنوية ستة آلاف ألف نفس، أو ثمانية آلاف ألف على رواية أخرى، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبى. فكان دخل الخلافة من ذلك اثنى عشر مليون أو ستة عشر مليون دينار فى العام[1]. وثمة رقم آخر هو أن قرى مصر أحصيت من أجل الجزية، فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية لم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل وجبت عليهم الجزية[2].

---

(١) ابن عبد الحكيم — فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠ ، ٨٧ وهى رواية ظاهرة المبالغة إذ يجب أن يكون سكان مصر وقت الفتح على هذه النسبة نحو خمسين مليون. على أن هذا الاحصاء يقدم لنا على أى حال فكرة عن فداحة الدخل الذى كانت تقتضيه الخلافة من الجزية السنوية.

(٢) فتوح مصر — ص ١٥٦

وما تذكره الرواية العربية عما حصله العرب عند فتح الأندلس من الثروات والذخائر والمغانم الهائلة، وما تذكره غير ذلك فى سير معظم الفتوحات العربية . وقد كانت الجزية نوعين؛ جزية على رؤوس الرجال، وجزية تفرض جملة على أهل القرية، وتحصل منها جملة باعتبارها وحدة مستقلة، فمن هلك من أهلها دون وارث عادت أرضه الى القرية فى جملة ما عليها من الجزية . وقد يكون هذا النوع أحيانا كالغرامة الحربية تفرض على مدينة ثائرة أو مفتوحة أو تُقتضى كأثر لمعاهدة الصلح؛ غير أن تطبيقه بهذه الصورة لم يكن عاما، ولا يقع إلا فى ظروف خاصة[1] . أما جزية الرجال فكانت ضريبة دائمة على رأس البالغين، بيد أنها لم تكن محددة ولا مضبوطة بنسب وقيود معينة ، بل كانت تجبى طبقا لظروف الأشخاص والزمان من يسر وضيق؛ فيروى لنا ابن عبد الحكم مثلا، أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا يؤديه نظر عمر فى أمره، فاذا احتاجوا خفف عنهم، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم؛ ثم يروى ان صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال له اخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة، لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم[2] . ولم تكن الجزية تقف عند القدر المفروض من المال، بل كانت تتعدى ذلك الى جباية مقادير أخرى من الحنطة والزيت والعسل والثياب . ويلحق بذلك إضافة الذميين للمسلمين أياما معينة[3] .

على أن توزيع هذه المغارم وطرق جبايتها ، كانت تقرن فى معظم الأحوال

---

(١) هنالك آراء أخرى فى تعريف الجزية وتحديدها . وقد عقد ابن عبد الحكم فى ذلك فصلا أورد فيه عدة تفاصيل وروايات هامة (اخبار مصر وفتوحها ص ١٥١ — ١٥٦) .

(٢) فتوح مصر — ص ١٥٣ و ١٥٤

(٣) فتوح مصر — ص ١٥٢

بالاعتدال والرفق، فقد رأيت أنها لم تكن تفرض على الصبية والنساء والشيوخ، وكان يراعى فى التقدير والتحصيل أن يخرج الذميون قبل كل شىء من غلة أرضهم مايكفى لتعهد كنائسهم ومرافقهم ومؤنهم[1]؛ وكان الرفق يتعدّى الى الإمهال فى أداء الخراج ، فقد حدث مثلا أن عمرًا تأخر فى تقديم خراج مصر فى الميعاد المحدّد فكتب اليه عُمر يعزره ويؤنبه ويقول : « أما بعد ، فقد عجبت من كثرة كتبي اليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ ببُنيّات الطرق . وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ، وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فىء المسلمين » . فكتب اليه عمرو : « أما بعد، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج، ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق، وإنى والله ماأرغب عن صالح ما تعلم، ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى عنه والسلام[2] » .

فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية، زادت نفقات الدولة والجيش زيادة كبيرة، واشتدّت حاجة الخلافة الى المال، فلم يك مما يتفق مع حاجتها ومصالحها المادّية أن تشجع سياسة تؤدّى الى نضوب خزائنها واضطراب دخلها ، ولو أدّت هذه السياسة الى ذيوع دين الدولة ، وزادت فى عدد المسلمين . وفى الوقت الذى غدت فيه الطوائف غير المسلمة أشدّ شعورا بانحطاطها الاجتماعى ، وأخذت تجنح الى التحرّر من أغلال التشريع والأحكام الخاصة، باعتناق دين الدولة ؛ أخذت الخلافة تنظر الى مواردها بعين الجزع . ولما بلغ تناقص الجزية أقصاه ، رأت الخلافة أن تفرضها حتى على من اعتنق الإسلام من الذميين . وكان أوّل من فرض

(١) فتوح مصر — ص ١٥٢

(٢) راجع ابن عبد الحكم — ص ١٦٠ و ١٦١ ، وقد نقل المؤرخون المتأخرون كثيرا من أمثال هذه الوثائق عن عصر الفتح ، ولكن ابن عبد الحكم هو أوّل مصادرهم وأوثقها .

الجزية على من أسلم من أهـل الذمة ، الحجاج بن يوسف عامل العراق . ثم أمر عبـد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بن مروان حاكم مصر بجبايتها ممن أسلم من المصريين ، فاعترض على ذلك بعض رجال ديوانه وخاطبـه أحدهم بقـوله : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنّ ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف نضعها على من أسلم منهم » فتركهم عند ذلك . وكان عمر بن العزيز أشد خلفاء بنى أمية ورعا وحماسة لفكرة ذيوع الإسلام ، فرفع الجزية عمن أسلم من الذميين فى كافة أنحاء الدولة ، وسوى بينهم وبين المسلمين الخلص ؛ ومما يؤثر عنـه فى ذلك أنه كتب إلى حيان بن شريح عامل مصر "أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تبارك تعالى قال : «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم »" فكتب اليه شريح يراجعه فى ذلك ويقول « ان الإسـلام قد أضر بالجزية » وان خزائن الحكومة قد نضبت مواردها ؛ فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يؤنبه و يعزره ويقول له : "فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعُمَر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه"[1] . وهكذا لبثت الخلافة حينا تتردد بين السياستين ، حتى تم الاندماج بفعل الزمن ، وتحولت معظم الشعوب المحكومة الى كتل مسلمة ليس فيها من غير المسلمين سوى أقليات ضئيلة ؛ فزالت فوارق الدين بحكم الظروف ، وأضحى التمييـز عسيرا بل مستحيلا بين المسلم العريق والمسلم الحادث ، وتضاءلت أهميـة الجزية كسبيل للإيراد ، واستعاضت الخلافة بما كسبته من عصبية وقوة معنوية عما خسرته من المصالح المادية .

وهكذا أسفرت هذه السياسة السلمية المستنيرة التى سنتها حكومة الخلفاء نحو رعاياها الجدد ، عن اغتنام تأيـيدهم أولا عن طريق التسامح الدينى ، ثم مؤازرتهم المادية عن طريق الجزية ، ثم ضمهم أخيرا الى حظيرة الإسلام ، واغتنام مؤازرتهم

(١) راجع هـذه الوثائق فى ابن عبـد الحكم — ص ١٥٥ ، ١٥٦ — والمقريزى فى الخطط ج١ ص ٧٨

الروحية والمادية معا . وهكذا يبدو أن ذيوع الإسلام بسرعة شاملة لم يكن دائما متفقا مع سياسة الخلافة، وأنه كان فى وقت ما ضارا بمصالحها المادية . إن فى ذلك ما يفسر حقيقة تاريخية مدهشة ينكرها ويشوهها معظم كتاب الغرب الذين يتحدثون عن الإسلام ، ووسائل نشره وعوامل رسوخه ، وفيه ما يوضح لنا كيف استطاعت حكومة الخلفاء أن تكون فى وقت واحد ، حكومة طغيان (أوتوقراطية) تمعن فى الاستئثار بالسلطة ، وأداة لينة رفيقة تغلب النزعات الديموقراطية والحرة .

مواقف حاسمة

فى تاريخ الاسـلام

- ١ -

الفصل الثالث

حصار العرب للقسطنطينية

وثب العرب وثبتهم الأولى بالدولة الرومانية، فانتزعوا منها الشام ومصر وإفريقية، ثم نفذوا الى هضاب آسيا الصغرى، فاجتاحوا الولايات الرومانية الجنوبية؛ ولم يمض ربع قرن على بدء هذه الحياة الظافرة حتى اقترب العرب من أسوار قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية. ولم يقف تيار الفتح سوى فترة قصيرة شغل العرب فيها بالفتنة والحروب الداخلية. فلما انقضت الفتنة، عاد العرب الى استئناف الغزو والفتح فى ظل الدولة الأموية الفتية، فتوغلوا فى أقطار الدولة الشرقية حتى مياه البسفور، وتوغلوا فى إفريقية غربا حتى شاطىء المحيط، ثم جازوا الى اسبانيا فاقتحموا غرب أوربا حتى قلب فرنسا وضفاف اللوار.

غير أن الإسلام وصل فى ظل الدولة الأموية أيضا الى ذروة مجده الحربى ثم خبا تيار ظفره؛ وكانت ثمة كلمة فصل بينه وبين النصرانية فى المشرق والمغرب. فأما فى المشرق فقد ارتد أمام أسوار القسطنطينية التى رأى أن يجوز منها الى أوربا بادىء بدء. وأما فى المغرب فقد ارتد أدراجه فى سهول تور وبواتييه، وقنع من غرب أوربا باسبانيا، ولبث فيها قرونا يغالب النصرانية وتغالبه.

كان فتح القسطنطينية مشروع الخلافة الأول لاقتحام الغرب وسحق النصرانية فى مهادها. وكانت الدولة الشرقية بلا ريب حصن أوربا ومعقل النصرانية فى المشرق. وقد أثخن العرب لأول وثبتهم فى أراضى الدولة الشرقية، وانتزعوا أهم أقطارها، وتوغلوا فى آسيا الصغرى على مقربة من عاصمتها، فكان فتح قسطنطينية غاية طبيعية لهذه الفتوح. على أن الرواية الإسلامية تسبغ على هذا المشروع صبغة دينية تستمد

من أقوال تنسب للنبي ذاته ؛ وهنالك أكثر من حديث يُذكر فيه فتح العرب لقسطنطنية، من ذلك الحديث الآتى : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ؛ فيخرج اليهم جيش من المدينـة من خيار أهـل الأرض يومئـذ، فإذا تصافّوا قالت الروم ، خلّوا بيننا و بين الذين سُبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم و بين إخواننا، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبدا، ويقتـل ثلث أفضـل الشهداء عنـد الله ، و يفتح الثلث لا يفتنون أبدا فيفتحون قسطنطنيـة ... الخ »[1] . ومهما كان مبلغ هـذه الأحاديث من الصحة فانها عنوان ماتسبغه الرواية الاسلامية على مشروع فتح قسطنطنية من لون دينى خاص .

١

وكانت أول محاولة قام بها العرب لفتح قسطنطنية فى أواخر سنة ٣٢ هـ (٦٥٣ م) فى خلافة عثمان؛ فقصدها من البرجيش بقيادة معاوية بن أبى سـفيان حاكم الشام يومئذ، واخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور؛ ويقول لنا ثيوفانس مؤرّخ الدولة البيزنطية ، إن أسطولا عربيا بقيادة بُسْر بن أرطاه سار فى الوقت نفسه من طرابلس صوب قسطنطنية وهزم الأسطول الرومانى بقيادة الأمبراطور قسطانس الثانى تجاه جبل فينقيه (فينكس)، وهلك من الرومان زهاء عشرين ألف ؛ ولكن الأسطول الاسلامى لم يستطع بعد ما أصابه من الخسائر أن يسير الى قسطنطنية فارتد أدراجه . ويضع ثيوفانس تاريخ هذه الحملة فى سبتمبر سنة ٦٥٣ م، (صفر سنة ٣٣) متفقا بذلك مع الرواية العربية تقريبا[2] .

وفى سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) كانت الحملة الثـانية . وكانت الخلافة قد صارت يومئذ الى معاوية بن أبى سفيان، وقامت الدولة الأموية فى دمشق . وكان استئناف الغزو والفتح إحدى وسائل الزعيم الظافر لتحويل الأنظار عن ظفره، واشتغال القادة

(١) راجع هذا الحديث وأحاديث أخرى عن فتح قسطنطينية فى صحيح مسلم (مصر) ج ٨ ص١٧٦ و ١٧٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٥٠ — Finlay: Greece under the Romans Ch. V.-3

والزعماء الذين يخشى بأسهم عن منافسته ومناوأته ، فكانت إعادة الكرة على قسطنطنية ، واستئناف غزو إفريقية[١] . وكانت الحملة بقيادة عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد فاخترق هضاب الأناضول حتى برجاموس (برجان[٢]) على مقربة من قسطنطنية ، وقاد أمير البحر بسر بن أرطاه الأسطول حتى مياه المرمرة ؛ ولكن الشتاء دخل قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ مشروعهم ، فقضوا الشتاء فى الأناضول ، وقنعوا بالغارات المحلية ، ولم يتقدموا فى تلك المرة أيضا لحصار قسطنطنية .

غير أنه لم تمض أعوام قلائل حتى كان معاوية قد أتم أهبته لافتتاح عاصمة الدولة الشرقية . وكان معاوية قد خبر بنفسه مفاوز آسيا الصغرى ومسالكها، وعاث فيها بقواته أكثر من مرة ، ووقف على أحوال الدولة الشرقية ومبلغ ما انتهت اليه من الإنحلال والضعف . فحشد فى تلك المرة أعظم قواته ؛ وحشد أسطولا ضخما فى ثغور مصر والشأم ، وبعث طليعة قواته بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى فاخترق الأناضول (سنة ٤٨ هـ — ٦٦٨ م) وافتتح حصونها حتى خلقيدونه . وفى العام التالى (٤٩ هـ — ٦٦٩ م[٣]) سار الى قسطنطنية جيش ضخم بقيادة سفيان بن عوف الأزدى ، ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة والأنصار، منهم عبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصارى . وسار الأسطول بقيادة أمير البحر بسر بن أرطاه واخترق مضيق هيليس (الدردنيل) دون مقاومة، ونقل الجيش الى الشاطئ الأوربى بالقرب من قصر هبدومون على قيد أميال قليلة من عاصمة الدولة الشرقية .

وتختلف الرواية البيزنطيه ، كما تختلف الرواية العربية فى تاريخ هذا الحصار الشهير، فيقول ثيوفانس إن العرب بدأوا زحفهم على قسطنطنية فى خريف سنة ٦٦٦م

---

(١) كان استئناف غزو أفريقية سنة ٤٥ هـ

(٢) برجاموس أو برجام (وبالعربية برجان) تقع فى شمال غرب آسيا الصغرى .

(٣) تختلف الروايه العربية فى تاريخ هذه الحملة ، فيضعه البعض سنة ٤٩ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٨٦ — ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٧) والبعض سنة ٥٠ والبعض سنة ٥١ .

(٤٦ هـ) ؛ وتقول رواية أخرى إن بدأ الحصار كان فى ربيع سنة ٦٦٨ (٤٨ هـ) أو فى ربيع سنة ٦٧٢ هـ (٥٣ م)[1] . والمرجح على أى حال أن العرب كانوا تحت أسوار قسطنطنية منذ سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) . وكان الجالس على عرش الدولة الشرقية يومئذ الأمبراطور قسطنطين الرابع ، وكان قد وقف على أنباء هذه الغزوة منذ إعدادها ، واستعد لردها بكل ما وسعت وسائل الدفاع .

وهكذا بدأ العرب أعظم معاركهم البحرية بمحاصرة قسطنطنية ، فطوقوها من البر والبحر بصفوف كثيفة من السفن والجند ، ولبثوا عدة أيام من الفجر الى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبي دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة . والواقع أن المسلمين أخطأوا تقدير منعة قسطنطنية ، ومنعة وسائل الدفاع الرومانيـة ، وما أثاره الخطر الداهم فى أنفس الرومانيين من الشجاعة والاستبسال فى الدفاع عن حاضرتهم وآخر معاقلهم ، والذود عن دينهم ومدنيتهم ؛ وهالهم جلد العدو وصبره ، وراعهم بالأخص فتك النار اليونانية[2] بسفنهم وصفوفهم ومتاعهم ، وكان اليونانيون قد وقفوا على سرها قبل ذلك بقليل فكانت لديهم أنجع وسائل الدفاع . ولما لحق الإعياء صفوف المسلمين من تلك الهجمات العقيمة ، تحولوا الى نهب ضفاف البروبونتس (المرمره) الأسيويه والأوربية ؛ وبعد أن استمروا فى حصار المدينة بحرا من ابريل الى سبتمبر ، ارتدوا عند اقتراب الشتاء الى جزيرة سيزكوس الواقعة على قيد ثمانين ميلا من قسطنطنية حيث أنشأوا مراكزهم العامة ، فقضوا بها الشتاء . غير أنهم عاودوا الحصار فى صيف العام التالى ، وعاودوا الارتداد فى الشتاء الى سيزكوس . واستمروا كذلك يعاودون حصار قسطنطنية كل صيف ، ويرتدون عنها كل شتاء ستة أو سبعة أعوام متوالية قبل أن يؤمنوا بفشل محاولتهم ، أو يفكروا فى العدول عن مشروعهم الضخم . ولكن الجهود المتواليـة

---

(١) راجع : Gibbon: Roman Empire Ch. LII. و Finaly: ibid; Ch. V-3 و Ency. de l'Islam art. Const.

(٢) سنعود الى ذكر النار اليونانية فى فصل خاص .

أضنت قواهم واستنفدت جلدهم ، وفقدوا كثيرا من رجالهم وسفنهم ومؤنهم ودوابهم ، وعصف الفشـل المستمر بحماستهم ، وسرى المرض والاختـلال الى صفوفهم ، فقرروا الإنسحاب العام فى النهاية (سنة ٦٧٨م — ٥٨هـ) . واخترق الجيش الأناضول نحو الجنوب بعد أن مزقت صفوفه بالحصار والمطاردة ، وأغرقت العواصف كثيرا من الأسطول حين ارتداده ، وفقد العرب فى تلك المعارك المشهودة زهاء ثلاثين ألف مقاتل ، وقتل عدة من الزعماء منهم الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى الذى قتل ودفن تحت أسوار قسطنطنية فى الهجوم الأول أو الثانى (سـنة ٥١ أو ٥٢ هـ) واكتشف قبره بعد ذلك بثمانيـة قرون حينما فتح الترك قسطنطنية سنة ١٤٥٣ م ، فكان اكتشاف قبره حادثا دينيا كبيرا .

وكانت حوادث هـذا الحصار المشهود ، وما لقى العـرب فيه من الفشـل ، وما أصاب قواتهم وأهباتهم الزاخرة من التمزق ، عوامل أحيت هيبة الحرب الرومانية فى الشرق والغرب ، وأسبلت سحابة مؤقتة على مجد العرب ، فعاد الخليفـة الأموى (معاوية) الى التفاهم مع الأمبراطور الرومانى ، وعقـد الصلح بين الفريقـين مدى أربعين عاما[1] .

— ٢ —

ولكن الخلافة كانت ترمى بغزو القسطنطنية الى أكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية . وكانت غايتها أجل خطرا وأبعد مدى . فقد كانت ترى أن تجوز قسطنطنية الى الغرب ، وأن تحمـل دعوة الإسلام الى أمم النصرانية ، وأن تفرض عليها سيادته . فلما ارتدت جيوشها أمام أسوار قسطنطنية ، شقت الى الغرب والى النصرانية طريقا آخر ، فجازت جيوشها الى اسبانيا بعد أن اجتاحت شمال إفريقية ، وافتتحت مملكة القوط النصرانيـة ، واقتحمت جبال البرنيه الى غاليس (جول)[2] ،

(١) راجع فى حوادث هذا الحصار ، الطبرى ج ٢ ص ٨٦ — وابن الأثير ج ٣ ص ١٧٥ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٦ . وأيضا (Finlay ; ibid, Ch. V - 3 ; Gibbon ; ibid, Ch. LII.)

(٢) اسم فرنسا القديم .

وفكر موسى بن نصير منظم هـذا الفتح أن يخترق أوربا النصرانيـة من المغرب الى المشرق، وأن يصل الى دمشق من طريق قسطنطنية، فيحقق بذلك مشروع الخلافة فى القضاء على النصرانية والدولة الشرقية معا . ولكن تردد الخلافـة وتفرق الكلمة قضيا على ذلك الحلم البديع ؛ فوقف تيار الفتح الاسلامى عند جنوب فرنسا .

غير أن السياسة الأموية لبثت ترعى مشروعها فى غزو قسطنطنية واقتحام أوربا عن طريق الدولة الشرقية . ففى سنة ٩٦هـ (٧١٥م) تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك . وكانت الدولة الأموية قـد وصلت عندئذ ذروة قوتها وبأسها ومجـدها الحربى . وكانت الدولة الشرقيـة قـد انتهت بالعكس الى شر ضروب الانحلال والضعف والفوضى ؛ وغدا عرشها فريسة هينة تتناوبه عواصف الولاية والعزل بسرعة، حتى عزل من قياصرتها ستة فى نحو عشرين عاما فقط ؛ واقتحم البلغار والصقالبة أقاليمها الشمالية وأشرفوا على أسوار العاصمة ؛ واقتحم العرب آسيا الصغرى وامتدت غزواتهم الى ضفاف البسفور . وكانت قسطنطنية حينما ارتقى سليمان عرش الخلافة، مسرحا للثورة والحرب الأهلية، وقد تعاقب على عرشها ثلاثة من القياصرة الغاصبين فى ستة أعوام فقط ؛ أولهم أنستاسيوس الثانى (نسطاس) ؛ انتزع العرش سـنة ٧١١م ؛ ثم خلفه والمتغلب عليه تيودسيوس الثالث (تيدوس) ، ثم ليون الثالث (اليون) الذى انتزع العرش فى أوائل سنة ٧١٧ م .

رأى سليمان بن عبد الملك منذ ولايتـه أن ماتجوزه الدولة الشرقية من عوامل الضعف والانحلال مما يشجع على استئناف الكرة على قسطنطنية . ويقال إن بعض الفقهاء حدثوه بأن الذى يفتتح قسطنطنية اسمه اسم نبى، ولم يكن فى خلفاء بنى أمية من ينطبق عليه هذا الوصف غيره[1] . وهنا أيضا نلمس فى الرواية العربية قصد التنويه بالصبغة الدينية لهذا المشروع . وحشد سليمان قوات عظيمة فى البر والبحر، وزودها بمقادير هائلة من المؤن والذخائر والعدد وآلات الحصار لحرب الشتاء والصيف .

(١) كتاب العيون والحـدائق فى أخبار الحقائق (طبعة دى جويه) ج ٣ ص ٢٤ — وهو لمؤلف مجهول وبه رواية ضافية دقيقة عن هذا الحصار (ص ٢٤ — ٣٣) .

وسار سليمان الى دابق ؛ وانتدب أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك لقيادة الحملة، وأمره ألّا يبرح قسطنطنية حتى يفتحها أو يأتيه أمره[١]. فسار مسلمة فى أوائل سنة ٩٨ هـ (سبتمبر أو أكتوبر سنة ٧١٦ م) مخترقا هضاب الأناضول، وافتتح عدة من مدن العدو وحصونه ؛ ثم قصد عمّورية (أموريوم) قاعدة الأناضول فحاصرها . وكان حاكمها والمدافع عنها ليون الأسورى أو فى الرواية العربية ليون أو إليون المرعشى . وكان ليون جنديا مغامرا وافر الذكاء والجرأة ؛ وكان يتطلع الى عرش قسطنطنية ويدبر أمره لا نتزاعه من صاحبه الأمبراطور تيودسيوس الثالث، فتفاهم مع مسلمة على خطة وشروط تختلف فى تصويرها الروايات المختلفة . فتقول الرواية العربية إن ليون تعهد لمسلمة بأن يرشده ويعاونه فى فتح قسطنطنية ، وإنه قطع من قبل مثل هذا العهد لسليمان بن عبد الملك، وأغراه بإعداد الحملة وأقنعه بسهولة المشروع[٢] . وتقول الرواية البيزنطية إن ليون عاون العرب بالإرشاد والنصح ، ولكنه لم يقصد قط أن يسلمهم قسطنطنيه، وانما أراد أن يمهد الطريق لنفسه بإضعاف قوات الدولة وشغلها برد الفاتحين[٣] . واستطاع ليون فى الواقع أن ينتهز الفرصة لنفسه فنادى بنفسه قيصرا فى عمورية، ثم سار على رأس قواته صوب قسطنطنية؛ وهزم الجيش الذى بعثه تيودسيوس لقتاله، فنزل الأمبراطور عن عرشه وارتد الى أحد الأديار، ودخل ليون قسطنطنية بجيشه الظافر، وتوج أمبراطورا للدولة الرومانية باسم ليون الثالث فى مارس سنة ٧١٧م .

وسار مسلمة بجيشه الزاخر الى قسطنطنية فى ربيع هذا العام (أواخر سنة ٩٨ هـ — ٧١٧ م) ، وسار الأسطول الى مياه المرمره ؛ وأظهر سليمان منتهى العزم والأهبة، فأمدّ أخاه بقوات أخرى، وأخذ يحشد المدد فى جميع الجهات والثغور . واستولى مسلمة على برجاموس (برجان) ، ثم أشرف على قسطنطنية فى قوة من

---

(١) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٤

(٢) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٦ — العيون والحدائق ج ٣ ص ٢٥

(٣) Finlay - Byzantine Empire Ch. 1 - 2.

أكبر وأعظم القوى التى جردها الاسلام على النصرانية . وتقدر الرواية البيزنطية جيش مسلمة وحده بثمانين ألف مقاتل ، وتقدر ما اجتمع للعرب تحت أسوار قسطنطينية فى البر والبحر بمائة وثمانين ألف[1] . وعبر مسلمة البحر عند أبيدوس (أبِدُس) حيث التقى بالأسطول العربى ، ثم نقل جيشه الى ضفة الدردنيل (الهيليس) الأوربية ، وسار على ضفاف المرمره حتى قسطنطينية ، وطوقها من البر والبحر بقوات كثيفة ، ونصب عليها المجانيق الضخمة ، وحاول المسلمون بادئ بدء أن يقتحموا المدينة بالهجوم والمفاجأة ، ولكنهم أخفقوا بعد عدة جهود ومحاولات عنيفة ، وردتهم مناعة الأسوار ، ومهارة المهندسين البيزنطيين ووفرة آلات الدفاع من قاذفات النار اليونانية والأحجار ، فعول مسلمة عندئذ على أخذها بالحصار الصارم المستمر ، فشدد من حولها الضغط ، وقطع جميع علائقها من البر ، وحفر حول معسكره خندقا عميقا ، وأقام حوله سدا منيعا ، واطلق سريات من الجند لإتلاف المزارع والمروج القريبة ، واقتناص جميع الأقوات التى يمكن أن تتسرب الى المدينة المحصورة . وقطع الأسطول علائق المدينة من البحر . وكان هذا أعظم أسطول حشده العرب ، بل لعله أعظم قوة بحرية استطاعت أن تحشدها دولة إسلامية ، وقد بلغت سفنه طبقا للرواية البيزنطية ، ألفا وثمانمائة سفينة كبيرة للحرب والنقل . ورأى أمير البحر سليمان بن معاذ الأنطاكى[2] أن يقسم الأسطول الى قسمين كبيرين ، رابط أولهما على الشاطئ الأسيوى فى ثغرى أتربيوس وأنتيموس ليقطع سير الأقوات الواردة من بحر الأرخبيل (إيجه) ، واحتل الآخر ساحل البسفور الأوربى تجاه لسان غَلَطَه ليقطع كل صلة للمدينة بثغور البحر الأسود ولا سيما شرسون وطرابزون . ووقعت أول معركة بحرية حينما سار أسطول الشاطئ الأوربى الى مرائيه ، فقد عصفت به الريح والموج عصفا هائلا ، فاصطدمت السفن بعضها ببعض ، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فوجهوا اليها النار اليونانية فأحرقوا

---

(١) Finlay — Byzantine Empire Ch. 1 — 2

(٢) لم تذكر الرواية العربية اسم أمير البحر ، ولكن الرواية البيزنطية تذكر أن اسمه سليمان . ولما كان سليمان بن معاذ الانطاكى من قادة الحملة طبقا للرواية العربية فالظاهر أنه هو أمير البحر أيضا .

بعضها ودفعوا البعض الآخر الى أسفل السور ؛ فاعتزم سليمان أمير البحر أن ينتقم لتلك الهزيمة الجزئية بنصر كامل . فحشد أمنع سفنه وزودها بسريات من خيرة جنده شجاعة وأهبة، وزحف على أسوار المدينة وبذل جهدا عنيفا لاقتحامها، ولكن ليون كان على قدم الحذر والأهبة، فرد الهاجمين بسيل من النار الحامية، وسحب سليمان أسطوله المرابط فى الشاطىء الأوربى الى خليج سوستنيان[١] .

بدأ المسلمون حصارهم الثانى لقسطنطنية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م (ثانى المحرم سنة ٩٩) أى قبل دخول الشتاء بقليل . واستعد مسلمة لحصار صارم طويل الأمد ، بجمع حوله المؤن حتى صارت كالجبال ؛ وأنشأ لجنده أسرابا وبيوتا من الخشب[٢] . وكان مسلمة رغم جرأته وشجاعته عاجزا قليل الخبرة بفنون الحرب، كثير الإيمان، سريع الاغترار ؛ ولم يكن بين معاونيه قواد من الطراز الأول[٣] . والظاهر أنه كان يعتمد على تسليم سريع من جانب البيزنطيين، وأنه خدع بما كان يبذله له ليون الثالث من الوعود؛ وقد كان ليون كلما اشتد الحصار يلجأ الى مفاوضة مسلمة ومصانعته، فتخف وطأة الحصار وتتسرب المؤن الى المدينة . وتقول الرواية العربية إن ليون تعهد فعلا لمسلمة بأن يسلمه المدينة، وخزائن الروم، وكل الذخائر، وأن يتولى ملكه باسم الخليفة، وأن يدفع الجزية . ولكن لا ريب أن ليون لم يبذل مثل هذه الوعود إلا نفاقا وغدرا واكتسابا للوقت[٤] .

ولم تمض أسابيع قلائل على بدء الحصار حتى توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١٠ صفر سنة ٩٩) قبل أن يستطيع إمداد مسلمة ؛ ثم دخل الشتاء بقره، وكان شديدا قاسيا، فلبثت الأنحاء المجاورة للمدينة عدة أسابيع مغطاة بالثلج والجليد، وذهب كثير من خيرة الجند المحاصرين ضحية البرد وأهواله ، ونفقت معظم الخيل والدواب،

---

(١) Finlay : ibid. 1 - 2

(٢) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٥ .

(٣) العيون والحدائق ص ٢٧ و ٢٨ .

(٤) العيون والحدائق ص ٢٩ .

وعصفت ندرة الأقوات والسعى الى تحصيلها بنظام الصفوف، ودب الخلل الى الأسطول بموت أميره سليمان . أما البيزنطيون فقضوا الشتاء داخل الأسوار فى أمن وسلام . وفى الربيع التالى قدم الى مسلمة أسطول ضخم يحمل الأقوات من الإسكندرية ، فدخل البسفور ورسا فى كالوس أرجوس، ثم جاء فى أثره أسطول آخر من إفريقية رسا فى شاطىء بتنيا (شرقى المرمره) . وكان معظم بحارة هذه السفن القادمة من الاسكندرية وإفريقية من النصارى المرتزقة، فراعتهم حال المعسكر الاسلامى وخشوا عاقبة انحلاله وضعفه، فتآمر كثير منهم على الفرار، واستقلوا القوارب تحت جنح الظلام، ودخلوا المدينة وقصوا على الأمبراطور حقيقة الحال فى معسكر المسلمين، وما نزل بهم من الشدائد والصعاب . فعجل ليون بانتهاز الفرصة ودفع الى خارج الميناء بقسم من سفنه مزود بقاذفات النار فانقض على سفن المسلمين وأوقع فيها الاضطراب والخلل وأحرق بعضها وأسر البعض الآخر، وجنح كثير منها الى الشاطىء[1] .

وتبدلت الحال عندئذ ، فحل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين، بينما تنفس المحصورون الصعداء، ولكن مسلمة استمر فى حصار المدينة برا، وألح فى ذلك حتى مزقت سراياه التى تجرد فى طلب القوت، وعمت المجاعة والقحط، واستنفدت جميع المؤن والدواب، ولقى الجند أروع الشدائد والأهوال «وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شىء غير التراب»[2] . ثم وصلت أوامر الخليفة الجديد (عمر بن عبد العزيز) برفع الحصار والعودة . فقرر مسلمة الإنسحاب، ونقل بقية جيشه الى الشاطىء الأسيوى على بقية أسطوله؛ ورفع العرب حصارهم الثانى عن القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م (ثانى عشر المحرم سنة مائة) بعد أن حطمت أمام أسوارها قوة من أضخم وأعظم القوى التى استطاع الاسلام أن يجردها على النصرانية . وارتدت بقية الجيش جنوبا الى دمشق . وأما بقية الأسطول

(١) Finlay - ibid, 1-2 .

(٢) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٦ — ابن الأثير ج ٥ ص ١٠

فدهمتها العواصف الثائرة فى بحر الأرخبيل وفرقتها ، وانقض اليونانيون فى الجزائر على وحداتها فاغرقوا كثيرا منها، حتى قيل بأنه لم يعد من أسطول مسلمة الفخم الى ثغور الشام سوى سفن قلائل[١] .

* * *

وهكذا ارتد الاسلام أمام أسوار قسطنطنية فى حملتيه العظيمتين ، وأخفقت الخلافة فى مشروعها الضخم ، وقضى على آمالها فى اقتحام الغرب من طريق المشرق .

ويرجع هذا الإخفاق الى أسباب عدة : منها حداثة عهد العرب بالمعارك البحرية ، وقسوة الأقليم الى درجة لم يعتدها جند الجنوب الذين نشأوا فى أقاليم الشام ومصر وافريقية ؛ ويرجع بالأخص الى براعة البيزنطيين فى أساليب الدفاع عن الحصون والمدن المحصورة ، والى حذقهم فى استعمال النار اليونانية . وكان فن الحرب لا يزال فى الدولة الشرقية محتفظا بتفوقه رغم ذلك الإنحلال الذى سرى الى جميع نواحى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ هذا الى منعة أسوار القسطنطنية ووفرة وسائل الدفاع والآلات التى زودت بها لرد الغزاة .

كان هذا الإخفاق حاسما فى تاريخ الإسلام ، عميق الأثر فى مصايره ؛ وكان حصار قسطنطنية أعظم مجهود بذله الاسلام ليحمل لواءه الى أمم الغرب فى وقت كان يسودها فيه التفرق والضعف ، وتتنازع الوثنية والنصرانية سيادتها الروحية . ولم يكن توغل العرب فى سهول فرنسا حتى ضفاف اللوار بعد ذلك بقليل (سنة ١١٤ هـ — ٧٣٢ م) مقرونا بنفس الأهبة والخطورة ، ولا بنفس العزم والإصرار التى اقترنت بها حملات قسطنطنية وان كان هذا التوغل قد تم تنفيذا لنفس السياسة ، وتحقيقا لنفس الغاية التى قصدت الخلافة الى تحقيقها .

ولو ظفر العرب بالاستيلاء على قسطنطنية لتغيرت مصاير أوربا ومصاير التاريخ ؛ ولنشأت فى أوربا أمم غير الأمم ، وقام دين غير النصرانية ، ولكان مرجحا أن يسود

---

(١) Finlay - ibid.

الاسلام والعربية أمم الشمال . وسنرى فى الفصل القادم، كيف تستحيل المعركة بين الاسلام والنصرانية فى الغرب الى معركة الحياة والموت، وكيف تجتمع أمم الشمال على ضفاف اللوار لترد سيل الاسلام والعرب . وسنرى كيف يهتف مؤرخو الغرب بخلاص أوربا والنصرانية من قبضة الاسلام فى موقعة تور (بلاط الشهداء). وبينا يقول لنا جيبون « إن حوادث هذه الموقعة قد أنقذت أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى واستبقت لبهاء رومة وجلالها، وأخرت استعباد قسطنطنية، وشدت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والعطب » اذا بالمؤرخ فنلى يرى بالعكس أن خلاص أوربا والنصرانية كان أمام أسوار قسطنطنية وعلى يد ليون الثالث، ويقول لنا: «إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب أسبانيا، وصورته كانتصار باهر، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب الى شجاعة الفرنج، فى حين أن حجابا ألقى على عبقرية ليون الثالث وعزمه، مع أنه نشأ جنديا يبحث وراء طالعه، ولم يكد يجلس على العرش حتى أحبط خطط الفتح التى انفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[1] .

وعلى أى حال فقد كانت قسطنطنية معقل النصرانية من المشرق، وكانت ضفاف اللوار مرد الفتوح العربية فى غرب أوربا ؛ وأمام أسوار قسطنطنية وعلى ضفاف اللوار، كانت رجعة الاسلام وخلاص النصرانية، وكانت كلمة الفصل فى مصاير الاسلام والنصرانية[2] .

(١) Finlay - ibid, 1-2 .

(٢) سنعنى فى الفصل القادم بتفاصيل معركة بلاط الشهداء .

الفصل الرابع

بلاط الشهداء

فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٢ كان قد انقضى ألف ومائتا عام كاملة على حادث كان له أعظم الآثار وأبعدها فى تاريخ الإسلام والنصرانية، بل كان كلمة الفصل الحاسمة فى مصاير الاسلام والنصرانية .

هذا الحادث الجلل، هو موقعة بلاط الشهداء التى تعرف فى التواريخ الفرنجية بموقعة « تور أو بواتييه »، والتى نشبت بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا على ضفاف اللوار فى أكتوبر سنة ٧٣٢

وقد مضى على بلاط الشهداء ألف ومائتا عام، وتغير وجه التاريخ، ومحيت آثار الإسلام من غرب أوربا ومن الأندلس منذ نحو أربعة قرون . ومع ذلك فان ذكريات بلاط الشهداء ما زالت حية فى الغرب ، وما زالت وقائعها وآثارها التاريخية موضع التقدير والتأمل من جانب المؤرخ الغربى . وكان انقضاء الألف ومائتى عام على حدوثها، ذكرى جديدة نظمت من أجلها الاحتفالات فى فرنسا، وكانت مثار تأملات وتعليقات جديدة ، تدور كلها حول الصيحة التاريخية القديمة : لو لم يُرَد العرب والإسلام فى سهول تور، لما كانت ثمة أوربا نصرانية، بل لعله ما بقيت نصرانية على الاطلاق، ولكان الاسلام اليوم يسود أوربا،وكانت أوربا الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية ذوى العيون الدعج والشعور السود، بدلا من أبناء الشعوب الآرية ذوى الشقرة والعيون الزرق .

وهذا الحادث الجلل، وهذه الذكريات والتأملات التى أثارها وما زال يثيرها، هى موضوعنا فى هذا الفصل . وسنعنى بشرح مقدماته وتفاصيله على ضوء أوثق

المصادر العربية والغربية، وسيرى القارئ بعد إذ يتلو هذه التفاصيل، أن التاريخ الإسلامى كله قد لا يقدم الينا حادثا له من الخطورة والأهمية و بعد الأثر ما لموقعة بلاط الشهداء .

افتتح العرب اسبانيا، وغنموا مُلك القوط فى سنة ٩١ – ٩٢ ﻫ (٧١٠ – ٧١١ م) على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير، فى عهد الوليد بن عبد الملك ؛ وأضحت اسبانيا من ذلك التاريخ كمصر وإفريقية ولاية من ولايات الخلافة الأموية، وتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الأموى، ينظمون شئونها، و يدفعون الغزوات الاسلامية الى ما وراء جبال البرنيه[1]، فلم تمض عشرون عاما على افتتاح الأندلس حتى استطاع العرب أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية، وأن يبسطوا سلطانهم على سهول الرون وأن يتقدموا بعيدا فى قلب فرنسا .

ولكن اسبانيا المسلمة على حداثة عهدها لم تلبث أن اضطرمت بالفتن والمنازعات الداخلية . ولم تلبث النصرانية أن أفاقت من دهشتها الأولى، وتأهبت للنضال والمقاومة ؛ ولقى العرب بعد فورة الظفر التى اجتاحت جنوب فرنسا، هزيمتهم الأولى فى موقعة تولوشة (تولوز) فى ذى الحجة سنة ١٠٢ ﻫ (يونيه سنة ٧٢٢ م) وقتل أميرهم وقائدهم السَّمح بن مالك، فارتدوا الى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر .

وقطعت الأندلس بعد ذلك زهاء عشرة أعوام من الاضطراب والفوضى، وخبت ثورة الفتح، وشغل الولاة بالشئون والمنازعات الداخلية حتى عين عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى واليا للاندلس فى صفر سنة ١١٣ ﻫ (ابريل سنة ٧٣١ م) .

ولسنا نعرف كثيرا عن سيرة الغافقى الأولى، ولكنا نعرف أنه من التابعين الذين دخلوا الى الأندلس، ثم نراه بعد ذلك من زعماء اليمانية وكبار الجند، ونراه فى سنة ١٠٢ ﻫ، على أثر موقعة تولوشة ومقتل السمح بن مالك، يتولى قيادة الجيش وامارة

(١) فى الرواية العربية : جبال البرت أو الممرات .

الأندلس باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر، ثم لا نسمع عنه بعد ذلك، حتى يولى امارة الأندلس للمرة الثانية من قبل الخليفة سنة ١١٣ هـ[١]. على أن الذى لا ريب فيه هو أن عبد الرحمن الغافقى كان جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا، وحاكما قديرا، بارعا فى شئون الحكم والإدارة، ومصلحا مستنيرا يضطرم رغبة فى الاصلاح، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعا. وتجمع الرواية الاسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[٢]؛ فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر وحمير، وساد الوئام نوعا فى الادارة والجيش واستقبلت الأندلس عهدا جديدا.

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها وعهد بإدارتها الى ذوى الكفاية والعدل، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع، ورد الى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة، وقضى صدر ولايته فى اصلاح الادارة وتدارك ما سرى اليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل، وعنى باصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصه، فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقا جديدة مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصن القواعد والثغور الشمالية، وتأهب لإخماد كل نزعة الى الخروج والثورة[٣].

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن فيقول الضبى ان تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦). ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨). وابن حيان انه كان فى صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥١) وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين.

(٢) راجع ابن عبد الحكم — ص ٢١٦ و ٢١٧ — بغية الملتمس للضبى (فى المكتبة الأندلسية) رقم ١٠٢١ — المقرى عن الحميدى (نفح الطيب ٢ ص ٥٦).

(٣) Condé : Dominacion de los Aarbos in Espana 1 p. 105. (الترجمة الانكليزية).

وكانت الثورة توشك أن تنقض فى الواقع فى الشمال، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو عثمان بن أبى نِسْعَة الخثعمى حاكم الولايات الشمالية . وكان ابن أبى نسعة (أو منوزا أو مونزكا يسميه الافرنج) من زعماء البربر الذين دخلوا الأندلس عند الفتح مع طارق . وقد عين واليا للاندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام ولم يطل أمد ولايته، ثم عين حاكما لولايات البرنيه وسبتمانيا . وقد كان الخلاف يضطرم منذ الفتح بين العرب والبربر، وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون أنهم قاموا بمعظم أعباء الفتح واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرياسة . وكان ابن أبى نسعة كثير الأطماع شديد التعصب لبنى جنسه، وكان يؤمل أن يعود الى ولاية الأندلس، ولكن عبد الرحمن فاز بها دونه فزاد ذلك فى حقده وسخطه، وأخذ يترقب الفرص للخروج والثورة .وكان أثناء غاراته أو رحلاته فى أكوتين قد اتصل بأميرها الدوق أودو وتفاهم معه . وكان الدوق مذ رأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى الى مهادنة المسلمين، وقد فاوضهم فعلا مذ اقتحموا أراضيه، فانتهز كارل مارتل محافظ القصر الفرنجى هذه الفرصة لإعلان الحرب على الدوق ، وكان يخشى نفوذه واستقلاله؛ وغزا اكوتين مرتين وهزم الدوق، فكان اودو فى الواقع بين نارين يخشى الفرنج من الشمال، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١ م) فى نفس الوقت الذى سعى فيه عثمان ابن أبى نسعة لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الاندلس والاستقلال بحكم الولايات الشمالية. فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء لامپجيا عروسا لعثمان . وفى بعض الروايات ان ابن أبى نسعة أسر ابنة الدوق فى بعض غاراته على اكوتين ثم هام بها حبا وتزوج بها . وعلى أى حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم . ورأى ابن أبى نسعة كتمانا لمشروعه أن يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج . ولكن عبد الرحمن ارتاب فى أمر الثائر ونياته، وأبى اقرار الهدنة التى عقدها، وأرسل الى الشمال جيشا بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية؛ ففر

ابن أبى نسعة من مقامه بمدينة الباب[١] الواقعة على البرنيه الى شعب الجبال الداخلية، فطارده ابن زيان من صخرة الى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه ، وأسرت زوجه لامپجيا وأرسلت الى بلاط دمشق حيث زوجت هنالك من أمير مسلم[٢] .
ولما رأى أودو ما حل بحليفه، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الاسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق الى الانتقام لمقتل السَّمْح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها ؛ فلما رأى الخطر محدقا بالولايات الشمالية لم يربدا من السير الى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون الى غاليس (فرنسا) منذ الفتح .
وفى اوائل سنة ٧٣٢م (اوائل سنة ١١٤ ﻫ) سار عبد الرحمن الى الشمال مخترقا أراجون (الثغر الاعلى) وناڤار (بلاد البشكنس)ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢م، وزحف توا على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن اداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو. ثم زحف غربا وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية اكوتين[٣] يثخنون فى مدنها وضياعها، فحاول أودو ان يقف زحفهم ، والتقى الفريقان ضفاف الدردون، فهزم الدوق هزيمة فادحة ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » .
وطارد عبد الرحمن الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق فى نفر من صحبه الى الشمال ، وسقطت اكوتين كلها فى يد

---

(١) واسمها بالقشتالية Cuidad de la Peurta وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحيانا بوربكاردا .

(٢) تحيط الرواية سيرة لامپجيا بكثير من القصص الخيالية الشائقة التى اتخذت فيما بعد مستقى لخيال الكتاب والشعراء . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

(٣) كانت امارة اكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقا وخليج وسقونية غربا ، وبين اللوار شمالا ونهر الجارون جنوبا وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو وفنده وجزءا من انجو .

المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة اخرى ، واخترق الجيش الاسلامى برجونيا ، واستولى على ليون وبيزانصون[١] ، ووصلت سرياته حتى صانص التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غربا الى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد الى عاصمة الفرنج[٢] . وتم هذا السير الباهر وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق الى الغرب فى بضعة أشهر فقط . قال ادوارد جيبون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق الى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب الى حدود بولونيا وربى ايقوسيا . فليس الرين بامنع من النيل أو الفرات ، ولعل اسطولا عربيا كان يصل الى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت احكام القرآن تدرس الآن فى معاهد اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة[٣] » .

— ٢ —

أجل كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، والشرق والغرب ، على وشك الوقوع . وكان اجتياح الاسلام للعالم القديم سريعا مدهشا ، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام الى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقا والمحيط غربا ، وامتدت شمالا حتى قلب

---

(١) وهى مسقط راس الشاعر الفرنسى الاشهر فكتور هوجو .

(٢) يقدم كاردون شرحا آخر لسير عبد الرحمن فيقول إنه زحف اولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت الى انجادها فلقيه عبد الرحمن وهزمه والجأه الى الفرار . ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشا جديدا وحاول رده فهزم مرة اخرى . ثم اخترق عبد الرحمن بريجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الانحاء حتى انتهى الى تور (Cardonne: Hist. de l'Afrique et de l'Espagne, I - 129). ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون ايضا كما بينا وقد شرحنا سيره طبقا لجميع الروايات مجتمعة وطبقا للواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو بورجونيا ولكن الجيش الاسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

(٣) Gibbon ; ibid, Ch. LII.

الأناضول . وكانت سياسة الفتح الاسلامى مذ توطدت دولة الاسلام ، ترمى الى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك . فقد كان الاسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم ، أنظمة راسخة مدنية واجتماعية تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة نظماً حديثة ، تستمد روحها من الاسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الاسلام ، سواء بنشر الاسلام بين الشعوب المفتوحة أو بإخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الاسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الاسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الاسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات اسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها الى أقاصى الأناضول من المشرق وجازت الى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الاسلام أن ينفذ الى الغرب من طريق قسطنطنية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة الى عاصمة الدولة الشرقية مراراً ، وحاصرتها مرتين كما قدمنا . وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطنية غاية الاصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين وارتدت عن أسوار قسطنطنية منهوكة خائرة ، واخفق مشروع الخلافة فى فتح الغرب من تلك الناحية . ولقى الاسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطيه ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الاسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الاسلام جازت الى الغرب من طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من المشرق الى المغرب والوصول الى دار الخلافة بطريق قسطنطنية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ وأن يسود الاسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب . ولكن الفكرة قبرت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوب فرنسا كانت طورا آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية، على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق. بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب، إذ بينما كان الاسلام يهدد النصرانية من الجنوب، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق. وكانت الغزوات الاسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها، ولكنها امتدت بعدئذ الى اكوتين وضفاف الجارون، ثم امتدت الى شمال الرون ، وولاية بورجونيا وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ؛ وبذا بدا الخطر الاسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قويا ساطعا ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم الذى يجب أن يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا اذاً بين الاسلام والنصرانية . بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب، وبين الفرنج الذين حلّوا فى ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من أولئك البربر الذين غزوا رومة وتقاسموا تراثها من واندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا أكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثرا، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية، تضم مجتمعا متنافرا لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة. ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت الرين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة، كانت مزيجا مضطربا من الغزاة الظمأى الى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمال ايطاليا منذ القرن الخامس، وحلوا فى جنوب غاليس واسبانيا .

ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ؛ ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص أن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين الذين لبثوا قرونا يخضعون لسلطان رومة ، ما تزال تسود فيهم لغة رومة ، وحضارتها . ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعا منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقابا قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوفيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، واذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس قد تطورت فى أوائل القرن الثامن الى مجتمع مستقر متماسك نوعا ؛ ولم تكن غاليس ، قد استحالت عندئذ الى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب الى فرنسا فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما بينا . وكانت اكوتين وباقى فرنسا الجنوبية فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما

وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ، ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضا عاملا قويا فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها (١) .

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن أعنى حينما نفذ تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا الى جنوب فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى الى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢ م) مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقا والمحيط غربا ، واكتسحوا العالم القديم فى وابل مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام الى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه الى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات اسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، اذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومه من الشمال ، ما يزال اذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع الذى نشب فى سهول فرنسا ، وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين الى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاما ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة

---

(١) راجع Creasy : Decisive Battles of the World, Ch. VII. (الفصل السابع) — ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور — وراجع أيضا Zeller : Hist. de l'Allemagne, I, p. 67.

موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون واكوتين أكثر من مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطا ن والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وانفق أعواما أخرى فى توطيد سلطانه بينما كان خصمه ومنافسه أودوأمير أكوتين يتلق وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الاسلامى وانساب نحو الشمال حتى بورجونيا ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهما حقيقيا فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الاسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر براعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع انقاذ الجيش الاسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح والارتداد الى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته فتقدره بأربع مائة الف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة[1]. وهو قول ظاهر المبالغة. وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب الى الحقيقة والمعقول . بل لقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة وهذا الجيش الفخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث، فنرى الشاعر الانجليزى سوذى يقول فى منظومته عن رودريك آخر ملوك القوط :

« جمع لا يحصى .

« من شام وبربروعرب وروم خوارج؛

« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien I, p. 61.

« يجمعها إيمان هائم راسخ الفتوة ؛
« وحمية مضطرمة، وأخوة مروعة .
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر، وقد شمخوا بطول ظفر .
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ؛
« التي أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ؛ ستندفع ظافرة الى الأمام .
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ؛
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد .
« وينهض الحاج من أقاصي المنجمد .
« ليطأ بأقدام الإيمان، الرمال المحرقة ؛
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضي مكة الصلدة »[1] .

ونفذ عبد الرحمن في جيشه الزاخر الى فرنسا كما قدمنا في ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) واقتحم وادي الرون وولاية أكوتين، وشتت قوى الدوق أودو طبق ما أسلفنا؛ وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار . وتقول بعض الروايات الكنسية إن أودو هو الذي استدعى عبد الرحمن الى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل . ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذي بادر الى مقاومة عبد الرحمن ورده؛ وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين[2] . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحا قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقي، يستأثر بكل سلطة حقيقية، وعليه يقع عبء

(١) Southy : Roderic the last of the Goths.

(٢) موسوعة Bouquet رواية القديس دني (Vol. III. p. 310.) — راجع أيضا موسوعة (Bayle) تحت كلمة (Abderame) .

الدفاع عن ملكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن نفذ الى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا البطىء الى خطة مرسومة مقصودة فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج الى ملكها الأعظم قارله وهذه سمة لملوكهم، فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدّة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه، فانهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم فى اقبال أمرهم، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ؛ ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر[1] » ونستطيع أيضا أن نعلل تمهل كارل مارتل بقصده الى ترك خصمه ومنافسه أودو دون غوث، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم اكوتين وجنوب فرنسا كله حينما تأهب كارل مارتل للسير الى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه وتمزيق قواته يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل . وكان كارل قد حشد جيشا ضخما من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة، فيما وراء الرين، يمترج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ؛ وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ؛ وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى، حتى يفاجأ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة

---

(١) المقرى عن الحجارى فى المسهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) — ويورد الحجارى هذه الرواية لمناسبة عبور موسى بن نصير الى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارله (كارل) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها — والبا ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية (راجع Gibbon ; ibid. Ch. LII. حيث يترجم نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

لده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى اكوتين التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى «الكريز» «والفيين» «والكاين» .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب والإسلام والنصرانية، ولكن المتفق عليه أنه هو السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور حول نهرى كلين وفيين فرعى اللوار، على مقربة من مدينة تور . والرواية الاسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الاسلامية عن الموقعة نقلها الينا المؤرخ الاسبانى كوندى سنعود اليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة وتقدم الينا عنها تفاصيل شائقة، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية، وقد رأينا أن نجمل وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين ثم نورد كلتيهما بعدئذ بتفاصيلها .

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه الى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا، واستولى المسلمون على بواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضا، وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى الى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء، وأخطأت الطلائع الاسلامية تقدير عدده وعدته؛ فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة، وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى الكثرة، فارتد من ضفاف النهر ثانية الى السهل الواقع بين تور وبواتييه ، وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه الى يسار الجيش الاسلامى بأميال قليلة بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الاسلامى فى حال تدعو الى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان

يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ،وكانت تتوق الى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة ، وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأُثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى ؛ فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثير فى نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثا أن يحملهم على ترك شىء منها ،ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد ، وكان المسلمون من جهة أخرى قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة ؛ ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدّة وتعادل ، حتى دخول الليل ؛ واستأنفا القتال فى اليوم التالى وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ولاح النصر فى جانب المسلمين ؛ ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة الى معسكر الغنائم الاسلامى ، وخُشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الاسلامية بأن معسكر الغنائم يكاد يقع فى يد العدو ، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ،فدب الخلل الى صفوف المسلمين ،وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ؛ وبينا يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ؛ وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسلامى ، واشتدت وطأة

الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم ؛ ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ)[1] .

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع ، ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الأثر ؛ وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنما للعدو . وفى فجر الغد لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية فتقدمها منها بحذر وإحجام ، فالفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه الى الشمال .

هذه هى أدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة طبقا لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله وأنه لايستطيع الإنتقام اذا لم يتلق النجدة من إحدى

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرة شعبان سنة ١١٤ هـ . بيد أن الرواية الاسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ فالبعض يقول انها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٢١٧ — الضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ — ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٦٤) وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ — ويقول الأخيران أنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

النواحى، تحالف مع عرب اسبانيا ودعاهم الى غوثه ضد الأمير شارل وضد النصرانية . وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن، من اسبانيا مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم فى جموع لا تحصى ولا تقدّر، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا . ثم اخترقوا مقاطعة چيروند واقتحموا مدينة بوردو وقتلوا الناس ونهبوا الكنائس وخربوا كل البسائط وساروا حتى پواتيو ...» (١) .

وتقول أخرى : «ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه، اقتحم الجبال ووطىء السهول بسيطها ووعرها، وتوغل مثخنا فى بلاد الفرنج ومحق بسيفه كل شىء، حتى أن أودو حينما تقدّم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزما أمامه، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده . ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهنالك قضى الفريقان أسبوعا فى التأهب واصطفا أخيرا للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ومنطقة من الثلج لا تخترق، وأثخنت فى العرب بحد السيف» .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوّة أطرافهم الضخمة وأيديهم الحديدية التى ترسل من الصدر توا ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو التقوا أخيرا بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقارا للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين قد فرّت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون

---

(١) هذه هى رواية القديس دنى (Saint Denis) وردت فى موسوعة بوكيه : (Dom Bouquet : Recueil des Historiens de Gaule et de la France : III. p. 310.) ووردت فى هذه الموسوعة أيضا أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

هـذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا . وبعـد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين الى ديارهم [(١)] » .

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة بالصمت أو الاشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الأسـبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال الرواية الأندلسية المسلمة [(٢)] عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ننقلها مترجمة فيما يلى :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانيـة بمقتل عثمان بن أبى نسعة، وسمعوا بضخامة الجيش الاسلامى الذى سير اليهم، استعدوا للدفاع جهدهم وكتبوا الى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هـذه الأنحاء (يريد أودو) قواته، وسار للقـاء العرب، ووقعت بينهما معارك سجال . ولكن النصر كان الى جانب عبد الرحمن بوجه عام، فاستولى تباعا على كل مدن الكونت . وكان جنـده قد نفخ فيهـم حسن طالعهم المستمر، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعـارك واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته .

---

(١) هذه هى رواية ايزيدور الباجى وهو معاصر للوقعة – راجع (Creasy ; ibid ; Ch. VII.) و (Hodgkin : Charles the Great Ch. III.) وكذلك (Gibbon : Ch. LII) ففيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

(٢) لم نقف فى أى المصادر العربيـة التى بين أيدينا على أصل هـذه الأقوال التى يقول كوندى أنه اقتبسها من الرواية العربيـة ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ومن المحقق أنه نقلها عن بعض مخطوطات الاسكوريال أو المجموعات الخاصة التى لم تتداول حتى عصرنا . ولعله نقلها على الأغلب من كتاب «جذوة المقتبس» لحميدى حيث يقول فى مقدمته إنه انتفع به فى عصر الفتح والولاة الأوائل . ولعله أيضا نقل شيئا منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال . ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شـذرة تفيد ذلك (نفح ١ ص ١٢٩) . ولعل كوندى وقف على شىء منها . غير أن هذه المصادر جميعها لاتوجد للأسف بين أيدينا، وليست بين محتويات دار الكتب المصرية . ومازال مخطوطة فى ظلمات الاسكوريال وغيره من المكاتب الأوربيـة . وقد يتاح لنا يوما أن نظفر بالاطلاع عليها والانتفاع بها . راجع حديث كوندى عن مصادره فى مقدمة الترجمـة الانكليزية (ج ١ ص ٢٣) .

« وعبر المسلمون نهر الجارون وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع ، وسبوا جموعا لا تحصى . وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند نجاح غزواتهم واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

«ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شيء . ومات الكونت مدافعا عن مدينته واحتز الغزاة رأسه[1] . ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد الفرنج كلها رعبا لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج الى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، واخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة و بردال[2] وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلق . وكان جيشه قد دب اليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولو الحزم من زملائه أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين ، واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم قد أتوا جهودا لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة وأمعنوا القتل فيهم .

(١) وهذا خطأ بين لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر الى الشمال وعاد لقتال عبد الرحمن فى تور كما قدمنا .

(٢) مدينة بوردو .

قالوا، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام، وكان طالعهم قد ولى.

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » (اللوار) اصطف رجال اللغتين، والتقى المسلمون والنصارى، وكلاهما جزع من الآخر. وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر، هو البادئ بالهجوم، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة وقابله الفرنج بالمثل. ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل وفرق بين الجيشين. وفي اليوم التالي استؤنف القتال منذ الفجر بشدة، وشق بعض مقدمي المسلمين طريقهم الى صفوف العدو وتوغلوا فيها. ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة في أوج اضطرامها، أن جماعة كبيرة من فرسانه غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة في المعسكر العربي، لأن العدو أخذ يهددها. فأحدثت هذه الحركة خللا في صفوف المسلمين، وخشي عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب فأخذ يثب من صف الى صف يحث جنوده على القتال، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة، حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعانا. وهنا ساد الخلل في الجيش الاسلامي، وارتد المسلمون في كل ناحية، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل.

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياما عديدة، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة.

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ. ثم إن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة متناهية حتى أرغم على رفع الحصار، وارتد الى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة » [١].

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الموقعة فقرة ذكر أنه نقلها

---

(١) كوندى في الترجمة الانكليزية — ج ١ ص ١٠٨ — ١١١

عن ابن خلكان جاء فيها : لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله (كارل) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة (فرنسا) فى جيش ضخم، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة فعولوا على الارتداد. وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلق أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفر الباقون الى أربونة . فحاصر قارله أربونة مدة ولم يستطع فتحها ، فارتد الى أراضيه وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب[1].

ونعود بعد ذلك الى الرواية الاسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادئ بدء أن موقعة تور تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها، وفى تحفظ الرواية الاسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور. ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء[2]. ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة، فاكتفوا بالإشارة الموجزة . ولم يكن ثمة مجال

---

(١) راجع : Cardonne ; ibid, 1 p. 129 - 131 — وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر عليها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

(٢) المقرى عن ابن حيان (ج ٢ ص ٥٦) .

للتعليق أيضا ولا التحدث عن نتائج خطب لاريب أنه كان ضربة للاسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . و إذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر، والتى نقلناها فيما تقدم، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعا فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وأشاراتهم الموجزة .

قال ابن الحكم وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن ابن عبد الله العكى على الأندلس، وكان رجلا صالحا . فغزا عبد الرحمن إفرنجه وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم ... ثم خرج اليهم غازيا فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة»[1] .

ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضا من أقدم رواة الفتوح شيئا عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاثة عشر ومائة مرددا لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازيا ببلاد الفرنج فى هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح فقتل هو ومن معه شهداء»[2] . وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : «وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد بن عبدالله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة وغزا إفرنجة وكانت لهم فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين»[3] ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب (أخبار مجموعة) عند ذكر ولاة الأندلس وهو : «ثم (أى وليها)

---

(١) فتوح مصر وأخبارها — ص ٢١٦ و ٢١٧

(٢) ابن الأثير — ج ٥ ص ٦٤

(٣) ابن خلدون — ج ٤ ص ١١٩ ، وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يول هذا أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧)

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن»[١] . ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن الحكم عن الموقعة[٢] . وقال ابن عذارى المراكشى : «ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاط الشهداء»[٣] وقال فى موضع آخر: «ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢، فأقام واليا سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤»[٤] . وقال المقرى فيما نقل : «ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة»[٥] ونقل فى موضع آخر «وذكر أنه قتل (والاشارة هنا خطأ الى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان، فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع الى الآن» ونقل عن ابن حيان : «قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشر ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة الى أن استشهد، وأصيب عسكره فى شهر رمضان سنة ١١٤ فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط»[٦] .

هذه الفقرات والاشارات الموجزة التى تكاد تتفق جميعا فى اللفظ والمعنى ،

(١) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس (مدريد سنة ١٨٦٧) ص ٢٥

(٢) بغية الملتمس (مدريد سنة ٨٤) رقم ١٠٢١

(٣) البيان المغرب — ١ ص ٣٧

(٤) البيان المغرب — ٢ ص ٢٨

(٥) نفح الطيب — ١ ص ١٠٩

(٦) نفح الطيب — ٢ ص ٥٦

هى ما ارتضت الرواية الاسلامية أن تقدمه الينا فى هذا المقام، وان كان فى تحفظها ذاته ما ينم كما قدمنا عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . واذا كان صمت الرواية الاسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الاسلام فى سهول تور، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الاسلامى وترفع بطولة كارل مارتل الى السماكين. وتذهب الرواية النصرانية ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين، فى تصوير نكبة المسلمين الى حد الإغراق، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة، بلغوا ثلاثمائة وخمس وسبعين ألف، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة. ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو الى البابا جريجورى الثانى، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة . فإن الجيش الاسلامى كله لم يبلغ حين دخوله الى فرنسا على أقصى تقدير أكثر من مائة ألف[1] . والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة . ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة يقاتل حتى المساء محتفظا بمراكزه أمام العدو، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم. ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه الى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة، وهذا ما تسلم به الرواية الاسلامية . ولكن مثل هذه الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية، فلو أن الجيش الاسلامى انتهى الى أنقاض ممزقة لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة الى حد يخيف

---

(١) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضا، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى ميزرى Mezerai — راجع التعليقات فى موسوعة Bayle تحت كلمة Abderame .

العدو وبرده.[١] على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها تمثل فى مقتل عبد الرحمن وتفر كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح مافى هذه الخسارة ؛ فقد كان خير ولاة الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله أن يجمع كلمة الاسلام فى اسبانيا ؛ فكان مقتله فى هذا المأزق العصيب ضربة شديدة لمُثل الاسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[٢] .

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكابر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام .

قال إدوار جيبون إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطنية ، وشدّت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والعطب[٣] » . ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون[٤] » . ويقول السير إدوارد كريزى : « ان النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حدًا حاسمًا لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا

(١) قال إدوار جيبون تعليقا على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان الى أوطانهم . إن سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ، وان أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وانما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة (Bayle) التاريخية تحت كلمة (Abderame) ففيها أيضا إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى الترجمة الانكليزية للموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية .

(٣) Roman Empire - Ch. LII.

(٤) History of the Later Roman Commonwealth.

الحضارة القديمة و بذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للامم الهندية الأوربية على الأمم السامية » [1] . ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والامبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى تطلعوا الى فتح غاليا وبورجونيا . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حدا ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة الهدامة الى الذروة » [2] . ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى الى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيئة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها الى بلاد جديدة » [3] . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية ، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره » [4] . على أن هنالك فريقا من مؤرخى الغرب لا يذهب الى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلى « إن أثرة الكتاب الغالين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب الى شجاعة الفرنج ؛ فى حين أن حجابا ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطنية) وعزمه ، مع أنه نشأ جنديا يحث وراء طالعه ، ولم يكد

---

(١) Decisive Battles of the World.

(٢) Philosophie der Geschichte.

(٣) History of the Reformation.

(٤) Hist. de l'Allemagne.

يجلس على العـرش حتى أحبط خطط الفتح التى أنفق الوليـد وسليمان طويلا فى تدبيرها[1] » .

ونحن مع الفـريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء حاسم بين الإسلام والنصرانية ، و بين الشرق والغرب . ففى سهول تور و پواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسـطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغـرب و إخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للاسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ الى قلب أور با فى مثـل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسـيره الى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب قبـل بعيد بتفرق الكلمة ، و بينما شغلت اسـبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخليـة ، إذ قامت فيما وراء البرنيـه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) Byzantine Empire.

الفصل الخامس

المسلمون سادة البحر

كان القرن التاسع الميلادى (القرن الثالث الهجرى) عصر السيادة البحرية الإسلامية . وكان البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) بما تغص شواطئه فى الشرق والجنوب والغرب من الثغور الاسلامية القوية، ميدان هذه السيادة . وقد بدأ العرب معاركهم البحرية الأولى فى تردد وروعة من البحر وأهواله ؛ ولكنهم بدأوها إبان فورة الفتح الأولى ، ولم يمض سوى نصف قرن حتى كان البحر لهم كاليابسة محط الغزوات والفتوح الجريئة . ومنذ خلافة عثمان خرج العرب الى البحر فى أساطيل وحملات قوية ليفتحوا الجزائر القريبة من الشواطئ الاسلامية . ففى سنة ٢٨ أو ٢٩ هـ (٦٤٨ م) غزا معاوية بن أبى سفيان جزيرة قبرس[١] وفرض عليها الجزية؛ وفى سنة ٣٢ هـ سار اليها ثانية فى أسطول ضخم وافتتحها . وفى خلافة معاوية غزا العرب صقلية لأول مرة، وافتتحوا جزيرة رودس[٢]؛ وفى خلافة الوليد ابن عبد الملك، غزوا اقريطش وصقلية وسردانية، وافتتحوا جزائر البليار (ميورقة ومنورقة) . وكانت حملات قسطنطنية وما سيرته الخلافة لحصارها من الأساطيل الضخمة والقوى الجرارة من أعظم الحملات البحرية التى عرفت فى تلك العصور .

وما زالت الحملات البحرية الإسلامية فى قوة وازدياد ، حتى اذا كانت فاتحة القرن التاسع ، كان المسلمون سادة البحر يقبضون على ناصية المياه الجنوبية والوسطى فى ذلك البحر الشاسع الذى يتوسط العالم القديم ويشرف عليه من كل نواحيه .

---

(١) هكذا اسمها فى ياقوت (معجم البلدان) والبلاذرى . ولكن ابن خلدون ينطقها قبرص .

(٢) البلاذرى — فتوح البلدان (مصر) ص ١٥٨ و ٢٣٧

وكانت دول العالم القديم ومجتمعاته تعانى يومئذ نوعا من الاضطراب العام، فالحرب الأهليـة تكاد تغشى كل أمة ؛ وقد أخذت عوامل الانحـلال التى أصابت الدولة البيزنطية وحضارتها، تتسرب أيضا الى الدول الإسلامية ، ودولة الفرنج القوية . وكان من أهم خواص هذا العصر ازدهار حرب المغامرة، وكثرة العصابات القوية التى تستطيع أن تتحدى الحكومات القائمة . وكان البحر محط هذه الحروب ، وثغوره الغنية مهبط هـذه الحملات . وكانت هـذه العصابات القوية التى تجوس خلال البحر الأبيض ،سلمة فى الغالب، تعمـل لحساب نفسها أو فى ظل إحدى الحكومات المسلمـة ؛ مستقلة أو الى جانب الحملات الرسميـة؛ وقوامها بالأخص رجال من الطبقة الوسطى ، وزعماؤها بعض الأكابر الذين دفعتهم خيبة الأمل أو صروف الزمن الى أن يحثوا وراء طالعهم . وكان انتشار الرق فى هـذا العصر يسهل عليهم حشد الرجال المخاطرين البواسل . وكان هؤلاء المغامرون يحفزهم روح استعمارى قوى ، كذلك الذى دفع الأمم الغربيـة فى العصر الحديث الى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1] .

وقد لبثت هـذه الحملات البحرية الاسلامية زهاء قرنين تبث الروع والرعب فى شواطئ البحر الأبيض وثغوره النصرانية، وتحدث الاضطراب والفزع فى كثير من الدول، وتذكى أطماع الناقمين والمتنافسين فى طلب الرياسـة والملك . وكانت المياه الايطالية والبيزنطية بالأخص مقصد هذه الحملات ، وثغورها وجزائرها الغنية محط رحالها وقبلة أنظارها . وسنقدم فى هذا الفصل لمحة من أخبار هذه الحملات البحرية الشائقة، وغزواتها وفتوحها، وآثارها السياسية والاجتماعية .

١ — فتح اقريطش

بدأ المسلمون فتوحهم البحرية كما قدمنا بغزو الجزائر القريبة من شواطئهم وافتتاح بعضها مثل قبرس ورودس . وقصدوا إقريطش (كريت) فى عهد الوليد

(١) Finlay - Byzantine Empire-Ch. III - I

ابن عبد الملك، ثم فى عهد الرشيد، فلم يوفقوا الى فتحها . ولم تفتتحها سوى احدى هـذه العصابات البحرية المغامرة التى أشرنا اليها . وكان قوامها جماعة من عرب الأندلس، الذين خرجوا على الحكم المنتصر أمير الأندلس فيمن خرج عليه من أهل قرطبة سنة ١٩٨ هـ (٨١٥ م) . ولكن الحكم هزم الثوار ومزق شملهم، ثم أمر بديارهم فهدمت وأحرقت، وفرّقهم الى مختلف الأنحاء، فهاجر بعضهم الى المغرب، وقصد معظمهم الى مصر فى عدّة من السفن، ونزلوا بثغر الاسكندرية، واشتركوا فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم بمصر يومئذ، ثم استولوا على الاسكندرية من يد حاكمها، واتخذوها قاعدة لغاراتهم وحملاتهم الناهبة على جزر بحر الأرخبيل. فلما قدم عبد الله بن طاهر قائد المأمون الى مصر ليقمع الثورة فيها اضطر الأندلسيين الى إخلاء الاسكندرية (سنة ٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) وكانت جماعة منهم قد أغارت قبـل ذلك ببضعة أعوام على إقريطش واستولت على ناحية منها، وأقامت بهـا، فلم ير الأندلسيون خيرا من اللحاق برفاقهم وافتتاح الجزيرة التى خبروا ثروتها وخصبها فيما سبق من غاراتهم .

خرجت هـذه العصبة المغامرة الجريئة وقوامها نحو عشرة آلاف مقاتل من مياه الاسكندرية فى نحو أربعين سفينة بقيادة جندى وبحار جرىء هو أبو عمر حفص بن عيسى الأندلسى المعروف بالإقريطشى أو البلوطى (وتسميه الرواية البيزنطية أبو شاپس) ورست على شـواطئ إقريطش فى أواخر سـنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) . وانقض المسلمون على الجزيرة ؛ ففرّت الحامية البيزنطية، وارتاع السكان فلم يبدوا كبير معارضـة ؛ ولم تستطع حكومة قسطنطنية أن تبعث بالمدد الى الجزيرة لاشتغال الامبراطور ميخائيل الثـانى بقمع الثورة الداخليـة . ويروى المؤرخون البيزنطيون أن أبا حفص لمـا نزل الى الجزيرة أمر بإحراق السفن وأنه قال لجنـده حينما احتجوا على هذا العمل : «فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم الى أرض تفيض باللبن والشهد، هذه أرضكم الحقة فاستريحوا وانسوا أوطانكم المجدبة» فقالوا : «ونساؤنا وأولادنا؟» فأجابهم «سوف تؤدى الأسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات ومن

ثم تصبحون آباء جيل جديد» فأقاموا حيث نزلوا وأحاطوا معسكرهم بخندق ضخم، أطلق اسمه على إقريطش حيث سميت «بالخندق» وهو الاسم الذى حرفه الغربيون الى كانديا . وأسس الأندلسيون فى إقريطش حكومة جديدة، واتخذوا الجزيرة قاعدة لطائفة من الحملات الناهبة على الجزر المجاورة، ووفد عليهم سيل من المغامرين من جميع الثغور الاسلامية ليحصلوا نصيبهم من الغنائم اليونانية . وجزع الامبراطور ميخائيل لذلك الخطر الجديد فجهز حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحر أوريفاس جاست خلال جزر الأرخبيل وطاردت البحارة المسلمين . غير أنها ارتدت أمام غزاة إقريطش، وجهز خلفه الامبراطور تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاسوس . ولبث المسلمون فى إقريطش زهاء قرن وثلث يزعجون جزائر الأرخبيل بالغزو والنهب حتى استعاد اليونانيون الجزيرة منهم فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)(١) .

٢ — فتح صقلية وجنوب ايطاليا

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه إقريطش ، افتتح المسلمون جزيرة صقلية وأسسوا بها دولة زاهرة . وكان للعصابات المغامرة أيضا فضل كبير فى هذا الفتح . وقد غزا العرب صقلية من قبل وعاثوا فى شواطئها أكثر من مرة، دون أن يظفروا بفتحها؛ فلما تسلموا زمام البحر فى أوائل القرن الثالث ، كانت صقلية كباقى جزائر بحر الروم مطمح أنظارهم . وكانت الجزيرة الغنية ما تزال من أملاك الدولة الشرقية. وتقول الرواية البيزنطية فى أصل هذا الفتح إن سيدا من أشراف صقلية يدعى يوفيميوس (ويسميه العرب فيمى) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها، فقضى الامبراطور (ميخائيل الثانى) بجدع أنفه عقابا له على جرمه ، ففر الى بلده سرقوسة وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة واستولى على سرقوسة . ثم وقعت فى صقلية حرب أهلية ، لم يثبت فيها فيمى وأخرج من سرقوسة ،

(١) راجع عن فتح إقريطش : البلاذرى، فتوح البلدان ص ٢٧٨ ، وابن الأثير (ج ٦ ص ١٣٥) وابن خلدون (ج ٤ ص ٢١١) .

فاستغاث بأمير إفريقيـة (تونس) زيادة الله الأغلب ووعده بملك صقلية[1] . ولكن الرواية العربية لا تذكر شيئا عن قصة الراهبة المخطوفة، وتقول لنا فقط إن الامبراطور غضب على فيمى وهو مقـدم أسطوله وأمر بالقبض عليـه ، و إنه ثار فى عصبته واستولى على سرقوسة ، ثم انتزعها من يده زعيم آخر يدعى بلاطة ، فسار فيمى فى سفنه الى إفريقية واستنجد بأميرها زيادة الله، فبعث معه جيشا فى ربيع الأول سنة ٢١٢ ﻫ (٨٢٧ م) بقيادة وزيره أسـد بن الفرات؛ فاستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة وحاصروا سرقوسـة وبلرم، ووقعت بينهـم و بين الروم معارك طاحنة، و بعث الامبراطور بالمدد، فاشتد الأمر بالمسلمين وهزموا فى عدة مواقع وتوفى قائدهم ابن الفرات، وشدد الروم الحصار عليهم . فبعث ابن الأغلب الأمداد الى صقلية، ووصل اليها فى الوقت نفسه أسطول من الأندلس من السرايا المجاهدة المغامرة، سنة ٢١٤ ﻫ (٨٢٩ م) فأعاد المسلمون الكرة وفتحوا بلرم . واستمر ابن الأغلب فى تسيير البعوث والأمداد الى صقلية، واستمر المسلمون فى افتتاح مدنهـا وحصونها تباعا : بلرم، وقصريانة (كاستروجوفانى) وجرجنت (جورجنتو) وقطانية، ومسينى وغيرها؛ بيد أن تقدمهم فى الجزيرة كان بطيئا لوعورة أرضها، فاستقروا فيما افتتحوه منها وأسسوا بها إمارة، يتوالى عليها الولاة، حتى تم افتتاح الجزيرة بافتتاح سرقوسة آخر معاقلها فى سنة ٢٦٤ ﻫ (٨٧٨ م)، وقامت دولة إسلامية زاهرة بصقلية لبثت زهاء قرنين حتى استعادها الفرنج على يدى روجر (رجار) النورمانى سـنة ٤٦٤ ﻫ (١٠٧٢ م)[2] .

وغدت صقلية منذ افتتحها المسلمون قاعدة لطائفة كبيرة من الحملات والغزوات البحرية التى ينظمها الأغالبـة أو ولاة صقلية أو تنظمها العصابات الخاصـة لغزو الثغور والشواطئ الايطالية ونهبها . وكانت هـذه الحملات تنقض بلا انقطاع على

---

(١) Finlay: ibid, ch. III-I.

(٢) راجع فى فتح صقلية ودولة الاسلام بهـا . ابن الأثير ج ٦ ص ١١٣ — ١١٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠٧ — ٢١١

الشواطئ الايطالية الشرقية والغربية فتنشر الذعر والروع فى الإمارات النصرانية ، وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى ، وتقيم للرقيق فى الثغور الاسلامية أسواقا رابحة . ففى سنة ٨٤٢ م (٢٢٧ هـ) اختلف أميران من اللومبارد على إمارة بنفونتوم (جنوب إيطاليا) فاستنصر أحدهما بأمير صقلية الفضل بن جعفر، فبعث الى قلورية[١] بحملة قوية ، فاستولت على ثغر بارى (باره) واستقرت به ، وأنشأت فيه قاعدة قوية للغزو فى هذه المياه ، وعاثت فى نواحى قلورية وفرضت الجزية على معظم مدنها . وفى سنة ٨٤٦ م (٢٣٢ هـ) سارت حملة بحرية أخرى من صقلية الى شاطئ ايطاليا الغربى ، و بعد أن عاثت فى ثغوره ونهبت فوندى ، رست أمام مصب نهر تفيرى (التيبر) الذى تقع عليه رومة ، ثم نفذت الى رومة ونهبت كنيستى القدّيس بطرس والقدّيس بولس ، وكانتا وقتئذ خارج رومة . ولم ينقذ « ملكة العالم » (رومة) من الوقوع فى يدها سوى جند الامبراطور لويس الثانى (سنة ٨٥٠ م) فارتدت الى محاصرة جايتا . واضطر البابا ليون الرابع الى تحصين ضاحية الفاتيكان ، وأدخل كنيستى القدّيس بولس والقدّيس بطرس فى المدينة الجديدة المعروفة « بمدينة ليون »[٢] واستولى المسلمون فى نفس الوقت على ثغر تارانتو (تارانت) ثم على راجوزا (رغوس) من ثغور الادرياتيك الشرقية . وتوالت حملات البحارة المسلمين بعدئذ على الثغور الايطالية حتى اضطر سكانها أن ينشئوا على طول الشاطئ أبراجا وقلاعا وافرة المنعة لكى ترد الهجوم المفاجىء ، شامخة الارتفاع لكى لا تصل النيران التى تضرم فى أسفلها الى طبقاتها العليا ، وهبت على إيطاليا فى هذا العصر عاصفة من الخوف والذعر المستمر ، وسرت الفوضى الى جميع طبقات المجتمع[٣] .

ولم يكن خطر الحملات الاسلامية البحرية على ثغور الدولة البيزنطية فى شرق بحر الروم أقل منه فى المياه الايطالية . ففى سنة ٨٨١ م (٢٦٧ هـ) خرج أمير

(١) يسمى العرب كلابريا وهى أقصى جنوب ايطاليا بقلورية أو الأرض الكبيرة أو البر الكبير .

(٢) سنعود الى غزو المسلمين لرومة فى فصل خاص .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٢ ، — ابن الأثير ج ٦ ص ١٧٧ ، — وكذلك ،
Finlay ; ibid ; Book II - S. II, (I).

طرسوس فى ثلاثين سفينة وهاجم ثاليس، ولكن أونيانيس القائد البيزنطى أشرف عليه بقوة كبيرة ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها أمير طرسوس وهزم المسلمون . ولم تمض على ذلك بضعة أعوام حتى انقضت عصابة من إقريطش على شواطئ الهيلس (الدردنيل) ونهبت جزيرة بركنيسوس، ثم ارتدت أمام الأسطول الامبراطورى بقيادة أوريفاس غير أنها عادت بسفن جديدة وانقضت على شواطئ اليونان الجنوبية، فاضطر أوريفاس أن يلجأ الى حيلة قديمة معروفة هى أن ينقل السفن من المياه الشرقية الى مياه الادرياتيك فوق مضيق كورنثة، و بذلك استطاع أن يداهم سفن المسلمين عند مدخل الأدرياتيك وأن يمزقها .

٣ — أعظم بحار مسلم

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) ظهر فى شرق بحر الروم أعظم بحار فى ذلك العصر ، وأعظم بحار مسلم على الاطلاق ، وهو أمير البحر الذى تعرفه الرواية البيزنطية باسم ليون الطرابلسى (Leo of Tripolis) ، وتفيض فى سرد حملاته وغزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية ، وما كانت تحدثه هذه الغزوات فى الدولة وثغورها من الروع والاضطراب .

فمن ليون الطرابلسى هذا ؟ لقد انتهينا بالبحث والتحقيق الى الاعتقاد بانه هو أمير البحر أو القائد الذى يطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم « غلام زرافة »[١] . وليس فى الرواية العربية ما يلق الضياء على نشأته . ولكن الرواية البيزنطية تحدثنا عن هذه النشأة ؛ فتقول إن ليون الطرابلسى ولد من أبوين نصرانيين فى أتاليا من أعمال بامفليا[٢] . ولكنه اندمج منذ حداثته فى العصابات المسلمة واعتنق الاسلام ، واستقر فى طرابلس من أعمال الشام[٣] . ونشأ ليون منذ حداثته فوق متن السفن، وتلق

(١) انتهينا الى هذا التحقيق بعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وكنا قد اعتذرنا عندئذ بأنا لم نعثر على الاسم العربى لليون الطرابلسى .

(٢) فى جنوب شرق آسيا الصغرى .

(٣) Finlay ; ibid. .

دروسه الحربية فى لجة البحر ، واشترك فى كثير من الغزوات والحملات الناهبة التى كانت تنظمها العصابات البحرية المسلمة للإغارة على شواطىء بحر الأرخبيل وثغوره وجزره . ثم انتقل الى طرسوس وجمع تحت لوائه أمهر وأشجع البحارة المسلمين فى هذا العصر، واتخذ طرسوس محط رحاله ، ومرفأ سفنه ، وأضحى فى عصبته القوية المغامرة ، قوة تروع الدولة البيزنطية وثغورها .

وكانت أعظم غزوة قام بها ليون الطرابلسى أوغلام زرافة، هى غزوة تسالونيكا[١] فى سنة ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) . والرواية الاسلامية موجزة أيضا فى أخبار هذه الغزوة الشهيرة بينما تفيض الرواية البيزنطية فى تفاصيلها . وتجمل الرواية الاسلامية خبرها فيما يأتى : «فى سنة ٢٩١ هـ سار القائد المعروف غلام زرافة من طرسوس نحو بلاد الروم ففتح مدينة «أنطاكية» وهى تعادل القسطنطينية، فتحها بالسيف عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلها، واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار[٢] » وسنرى أن أنطاكية المقصودة هنا هى تسالونيكا لا أنطاكية الشام التى كانت يومئذ ثغرا مسلما . وسننقل فيما يلى تفاصيل الرواية البيزنطية وقد دونها مؤرخ معاصر شهد الموقعة بنفسه هو يوحنا كامنياتس .

خرج ليون الطرابلسى من طرسوس فى أربع وخمسين سفينة فى كل منها نحو مائتى مقاتل عدا جماعة مختارة من الرؤساء والضباط ، وانضم اليه فى مسيره أشجع خوارج البحر (القرصان[٣]) فى مياه المشرق . ولم يجرؤ الأسطول البيزنطى الذى بعثه

---

(١) تسالونيكا أو تسالونيكى هى ثغر سلانيك الحديث . وقد كانت فى العصر الذى تحدث عنه أعظم ثغور الدولة الشرقية وأغناها بعد قسطنطينية ، وكان سكانها يبلغون يومئذ زهاء ربع مليون .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٧ ص ١٧٦) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٥٧) مجتمعتين .

(٣) كلمة قرصان كلمة معربة عن الأصل الفرنجى (Corsaire) ومعناها خوارج البحر أو لصوص البحر ، وقد رأيناها مترجمة فى « صبح الأعشى » بكلمة « كرسالية » ولكنا لا نستحسن هذه الترجمة .

الامبراطور ليون السادس لحماية ثغور الدولة على لقاء سفن المسلمين ، فارتد الى ضفاف الهيليس (الدردنيل) تاركا مياه الأرخبيل (إيجه) مفتوحة لسفن الغزاة . وذاع فى قسطنطينية أن الغزاة يقصدون ثغر تسالونيكا، وكانت عندئذ أعظم الثغور البيزنطية وأمنعها وأغناها بعد قسطنطينية ، وقد جعلتها الطبيعة مخرج أقاليم غنى خصب . وتقع تسالونيكا على هضاب أولمپوس، وتشرف على رأس خليج ضيق تستطيع أن تمتنع به السفن ، وكان يفصلها عنه سور ضخم يمتد نحو ميل على طول الشاطئ ، وتحميها بعد ذلك قلاع حصينة شيدت على آكام مرتفعة ، ولكنها كانت يومئذ واهية متداعية، وكان السور الكبير قد تهدمت حافته العليا مما يلى البحر فكان فى وسع السفن أن تدنو من أسوار المدينة . ولذا حاول پتروناس قائد الحامية أن يرد السفن الغازية بأن يلقى فى الماء على مسافة من الأسوار مقادير كبيرة من الصخور الضخمة وقطع الرخام الذى كانت تزدان به القبور اليونانية ، لكى يعرض بذلك سفن الغزاة الى نبال اليونانيين ونيرانهم . أما سكان المدينة أنفسهم فقد وضعوا ثقتهم فى حامى مدينتهم « القديس ديمتريوس » ، وأيقنوا أنه أهل لرد الخطر الجديد ، كما رد الصقالبة عن المدينة مرارا ، وتقدم لغوثهم فى كل حصار وغزوة، وحماهم بالأخص من عدوان المسلمين والوثنيين . وكانت الاشاعات المزعجة تتردد كل يوم بمقدم الغزاة ، وكان ليون الطرابلسى قد طارد الأسطول البيزنطى حتى مضيق الهيليس ثم عاد الى تاسوس . ثم توفى پتروتاس بغتة، فتولى القيادة مكانه ضابط يدعى نيكيتاس، وبذل جهدا كبيرا فى إعداد وسائل الدفاع، واستقدم بعض الجند الصقالبة من الأنحاء القريبة . بيد أن سكان المدينة لم ينزعوا ثقتهم من القديس ديمتريوس ، فهرعوا وراء القسس والأسقف الى كنيسة هذا القديس ، وانهمكوا فى الصلاة العامة ليل نهار . أما ليون الطرابلسى فوقف قليلا فى تاسوس ليصلح سفنه، وليعد المجانيق وغيرها من آلات التدمير . وفى يوم الأحد ٢٩ يوليه سنة ٩٠٤ طار الخبر فى المدينة بأن الغزاة قد وصلوا الى

الخليج واحتجبوا عن الأنظار، فعم الاضطراب والذعر، وارتفع الصراخ والعويل، وتأهب السكان للقتال بين دموع الزوجات والأطفال، ثم ظهرت سفن المسلمين أخيرا، وتقدمت من المدينة، وكان مرفأها محميا بسلاسل ضخمة مدت بين الضفتين، وقد أغرقت فيه سفن عدّة لتحول دون اقتراب الهاجمين، فاستطلع أمير البحر المسلم مدخل المدينة وحصونها، ثم قام بهجوم محلى ليختبر منعتها، وليتعرف مبلغ استعداد أهلها للدفاع عنها .

وفى اليوم التالى هاجم المسلمون المدينة من الشرق وحاولوا اقتحام السور بنصب السلالم، واطلاق المجانيق، ولكنهم ردوا أمام سيل من أحجار البيزنطيين وسهامهم. فلجأ ليون الطرابلسى عندئذ الى وسيلة أخرى، وبعث طلائعه بحراقات غطيت حتى لا تصلها نار المدافعين، وأضرم الطلائع النار تحت أبواب المدينة من الشرق وارتدوا تحت وابل من السهام والأحجار، فارتفعت ألسنة اللهب وتداعت الأبواب الحديدية، ولكن المسلمين لم يظفروا بجديد إذ ظهر أن الممرات التى تلى الأبواب قد سدت بالبناء المحكم وأقيمت فوقها أبراج منيعة . وكان ليون الطرابلسى يرمى بكل هذه المقدمات الى تحويل عناية المدافعين عن غايته الحقيقية .

وكان قد رأى أنه يستطيع محاذاة السور فى عدّة مواضع عينها بدقة، وعندئذ بدأ بتنفيذ خطته النهائية بمنتهى البراعة والسرعة؛ فُربطت عدّة سفن كل اثنين معا ربطا وثيقا محكما، وأقيم فوق كل اثنين برج خشبى مرتفع . وفى صباح اليوم التالى دفعت هذه الأبراج نحو المواضع المنخفضة فى السور، وفى كل منها نخبة من المسلمين تستطيع أن تشرف على أبراج المدافعين من عل؛ فنشبت بين الفريقين معركة هائلة، وقذف المسلمون البيزنطيين بوابل مستمر من الأحجار والسهام والنار اليونانية التى بدأوا باستعمالها فى هذا العصر[١]، فارتد اليونانيون عن الأبراج؛ وكان بحارة السفن

(١) سنرى فى فصل قادم أنه قد وجد نوعان من هذه النار، نوع استعمل منذ أقدم العصور، ونوع اخترعه البيزنطيون بعد ذلك ولم يعرف العرب سره إلا فى القرن الحادى عشر . ونريد بالنار اليونانية هنا النوع الأول .

السكندرية أول من اقتحم السور، فانقضوا على باقى الأبراج وأجلوا اليونانيين عنها ثم فتحوا أبواب المدينـة ، فانقض المسلمون عليها من كل ناحية ودخل البحارة المكلفون بجمع الأسلاب شاهرين السيوف وليس عليهم سوى السراويل ، وفر البيزنطيون والصقالبة من كل صوب .

ثم قسم المسلمون أنفسهم إلى جماعات أخذت تجوس خلال المدينة قتلا ونهبا وسبيا؛ وكان المؤرخ البيزنطى يوحنا كامنياتس وعدد من أفراد أسرته بين الأسرى، وقع فى يد جماعة من الأحباش فالتمس الرحمـة منهـم ، ووعد بأن يدل على مخبىء أودعت به ثروات أسرته . وكان بين الأحباش من يفهم اليونانية ، فقاده رئيس الجماعة إلى أمير البحر فأرسل معه من ينقل الكنز؛ وكان من حسن طالع كامنياتس أن وجد الكنز سليما، فرضيه ليون الطرابلسى فداء لحياة المؤرخ وأسرته وأمر بحمله مع من أسر حتى يستبدل فى طرسوس بمن فى يد البيزنطيين من أسرى المسلمين . وبعد أن أنفق المسـلمون بضعة أيام فى النهب والسبى ، غادر ليون الطرابلسى ثغر تسالونيكا مثقلا بغنائم فادحة، وعدد كبير من الأسرى يقدره يوحنا كامنياتس باثنين وعشرين ألفا بين رجال ونساء وغلمان، أنتخبوا لغنى ذويهم لكى يستطيعوا فداءهم، أو لجمالهم لكى يجـدوا فى أسواق الرقيق أثمـانا رابحة؛ وكان بين الأسرى كثير من أشراف اليونانيـين قاسوا الأهوال فوق متن السـفن، ومات كثير منهـم من الجوع والبرد .

وسار ليون الطرابلسى فى سفنه متجنبا لقاء الأسطول البيزنطى حتى لا يرهقـه وهو مثقل بغنائمه، ورسا فى زنتاريون من ثغور إقريطش ، وهنالك أنفق بضعة أيام فى توزيع الغنيمة والسبى، ثم تفرقت السفن ، وسارت كل جماعة من البحارة الى مرافئها فى مياه مصر والشام؛ ووصل ليون الى طرابلس فى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٠٤، ثم سار إلى طرسوس التى كانت قاعدة للفداء أو استبدال الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، وهنالك استبدل أشراف تسالونيكا ومن بينهـم المؤرخ كامنياتس ،

وهو الذى استخرجنا من كتاباته قصة هذه الغزوة الكبرى، بطائفة من أسرى المسلمين[1] .

⁂

هذه لمحة فى أخبار البحارة المسلمين، ومنها ترى أن السيادة البحرية فى بحر الروم كانت للمسلمين مدى أحقاب طويلة، وأن سير تلك الفتوحات والحملات البحرية التى انتهت بفتح إقريطش وصقلية وثغور إيطاليا الجنوبية، واستطاعت أن تجوس خلال البحر حتى قسطنطنية عاصمة الدولة الشرقية، وحتى رومة عاصمة النصرانية، وجنوه أقصى الثغور الايطالية، ليست تقل فى الأهمية والجرأة عن غزوات البحارة الأسبان والانكليز فى القرن السادس عشر، فى المياه الأمريكية؛ وليست أعمال بحارة كأبى حفص عمر البلوطى، وليون الطرابلسى أقل رنينا وروعة من أعمال أمراء البحر المحدثين مثل أندريا دوريا، وجون هوكنس، وفرانسيس دريك، وكورتيز، وبيزارو وغيرهم، ممن تملأ سيرهم وأعمالهم صحفا من أبدع وأمتع صحف التاريخ الحديث. وفى سير هذه الحملات والغزوات الاسلامية نستشف اضمحلال الدولة البيزنطية وضعف حكومة القسطنطنية، وفساد بلاط يؤثر طغيانه تبديد أموال الدولة فى مظاهر الترف وتشييد القصور والكنائس على تحصين أطراف الدولة وإعداد جيوشها وأساطيلها. بيد أنا نستطيع أن نلاحظ أيضا أن ميول الشعوب التى تحكمها الدولة البيزنطية كانت عاملا هاما فى تسهيل غزوات المسلمين، فان هذه الشعوب لم ترفى حكم المسلمين من الفضاضة ما كانت تقدره حكومة القسطنطنية التى بلغ عسفها وجورها مبلغا لم تبلغه حكومة

---

(١) كان الفداء بين المسلمين والنصارى ينظم بصفة رسمية بين الخلافة والدولة البيزنطية، وينفذ دائما فى أحد ثغور الشام أو الأناضول، فينقذ بهذه الوسيلة عشرات الآلاف من أسرى الحرب المسلمين نظير تسريح أمثالهم من الأسرى النصارى. وقد نظمت عدة أفدية رسمية فى عصور مختلفة (راجع طرفا من أخبار هذا النظام فى خطط المقريزى ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٢).

وراجع رواية المؤرخ كامنياتس فى (Finlay :ibid. Book II. ch. I.) .

اسلامية فى هذا العصر؛ ولنا دليل فى فتح صقلية التى انضم أهلها الى المسلمين فى محاربة البيزنطيين .

وكانت هذه الحملات والغزوات تقترن عادة بضروب رائعة من العيث والسفك من الجانبين المتحاربين؛ وكانت تغذى أسواق المشرق كلها وقصوره بأسراب السرارى والرقيق . بيد أنا نلاحظ أن خوارج البحر المسلمين كانوا يختصون الثغور النصرانية بعدوانهم، مما يدل على أن نزعة قومية أو دينية كانت غالبة فيهم، وكانوا يؤدون الى الحكومات الاسلامية خدمات جليلة بإضعاف جيوش الدولة البيزنطية وأساطيلها، واستبدال أسرى المسلمين بمن يأسرون فى غزواتهم؛ ثم نلاحظ فى النهاية أن البحارة المسلمين كانوا مستعمرين حقا ، فقد استعمروا إقريطش وغيرها من جزر الأرخبيل عصورا ، وكانوا عضدا قويا للدولة الاسلامية التى قامت فى صقلية وأزهرت زهاء قرنين .

———

الفصل السادس

غزو المسلمين لرومة

فى أوائل القرن التاسع الميلادى افتتح المسلمون كما قدمنا إقريطش وصقلية، وافتتحوا بعض ولايات إيطاليا الجنوبية ، وقاموا فى المياه الإيطالية بسلسلة من الغزوات والمعارك البحرية تكوّن فصلا فريدا فى صحف التاريخ الاسلامى . وكانت الحروب والفتوح الاسلامية قبل ذلك تقتصر على اليابسة مما يلى شواطئ البحر الأبيض، ولم يخرج المسلمون الى البحر إلا فى بعض الغزوات القليلة . ثم كان حصارهم لقسطنطنية مرتين ، وهو من أعظم حملاتهم البحرية ، وكان جوازهم الى فتح الأندلس . وكانت نكبة المسلمين أمام أسوار القسطنطينية فى المرتين عاملا جديدا فى روعة المسلمين من البحر وأهواله ، فكان عليهم أن يمضوا قرنا آخر فى تعرف أسراره ودرس طبائعه وأحواله . وقد حملوا على ذلك بسير الظروف والحوادث، فكانت غارات النورمان على شواطئ الأندلس وثغورها مثلا ، عاملا فى اهتمام حكومة قرطبة بإنشاء الأساطيل والقوى البحرية، وكان الخطر الذى يهدد الأغالبة فى إفريقية من جهة البحر عاملا فى اهتمامهم بالتحصينات والمنشآت البحرية،وحشد جيش مدرب من أمراء البحر وجنوده . وكان القرن الثامن عصر التجارب البحرية بالنسبة للأساطيل الإسلامية، فنراها تقنع بالدفاع، ولا تقدم على الهجوم أو التوغل فى عرض البحر إلا فى فرص نادرة . ولكن لم يبزغ فجر القرن التاسع حتى تبدلت الحال ، وحتى كانت هذه الأساطيل تجوس خلال البحر الأبيض من أقصاه الى أقصاه وتفتتح جزائره وتثخن فى شواطئه وثغوره . فكان القرن التاسع كما رأيت عصر السيادة البحرية الإسلامية .

ويصف ابن خلدون عصر هذه السيادة البحرية فيما يأتى : «وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (بحر الروم) من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوه فتنقلب بالظفر والغنيمة ، وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم»[1] .

ولم يكن فضل الحكومات الاسلامية فى إحراز هذه السيادة قدر فضل المغامرين من أمراء البحر المسلمين . وكانت مياه البحر الأبيض المتوسط ميدانا لجولات هذه الأساطيل غير الرسمية ، وكانت جزائره الغنية محط رحالها ومطمح أنظارها . وكانت شواطئ صقلية وقلورية (كلابريا) التى استولى المسلمون على بعض ثغورها ملاذا لطائفة من هذه العصابات الجريئة القوية . ولم تكن هذه العصابات الغازية الناهبة تعمل دائما بوحى الحكومات الاسلامية ، ولكنها كانت فى الغالب تُمتع على الأقل بتأييدها المعنوى ، فكانت تعمل تحت سمعها وبصرها ، وتحتمى بثغورها وتتزود منها بالمؤن والذخائر . وكانت تؤدى لها خدمات جليلة ، إذ تنهك بغاراتها المتوالية قوى أعدائها من النصارى ، وتساعد فى فرص كثيرة بما تحمل من أسرى النصارى على افتداء أسرى المسلمين بطريق المبادلة . وكانت

---

(١) المقدمة — ص ٢١٢

فى بعض الأحيان تعمل لحساب هـذه الحكومات مباشرة ، فتحارب مع القوات النظامية جنبا الى جنب وتسهل مهمتها فى الهجوم أو الدفاع .

وليس فى سير الحملات البحرية الاسـلامية أغرب وأمتع من غزو المسلمين لمدينة رومة . فقد غزا المسلمون مدينة القياصرة مرتين . وليس لدينا سوى لمحات ضئيلة من أخبار هذه الغزوة التى عنيت بالإشارة اليها تواريخ الفرنج فقط . وقد تحمل صمت الرواية العربية على أن هـذه الغزوة لم تكن لحساب حكومة إسلامية منظمة وانمـا قامت بها عصابات قوية من المسلمين . غير أنه يلوح لنـا من تكرر هـذه الحملات على الشواطئ الإيطالية وعلى رومة ، ومن ضخامتها وانتظامها ، ومن تعاهد قادتها مع البابا كما سنرى ، ومن خروجها من ثغور صقلية وعودها اليها ، أنها كانت على الأقل تعمل بوحى حكومة صقلية أو بالحرى حكومة إفريقية التى كانت صقلية تابعة لهـا .

وكانت « ملكة العالم » (رومة) لا تزال حتى فى ذلك العهد الذى فقدت فيه منعتها القديمة ، تتمتع بلمحة من هيبتها الذاهبـة . وكان القوط والوندال واللومبارد قد غزوها مرارا وأثخنوا فى أنحائها الفخمة ، ولكنهم احترموا دائما أحياءها ومعاهدها المقدسة التى كانت تقع فى ظاهر الفاتيكان وفى طريق ثغر أوستيا الواقع على مصب تفيرى (التيبر) ولكن المعاهد والأساطير النصرانية لم تبث مثل هذه الروعة فى أنفس البحارة المسلمين . ففى سنة ٨٤٦ م (٢٣١ هـ) سارت حملـة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحـذاء الشاطىء الايطالى ، وبعد أن عاثت فى ثغـوره ، وحاصرت جايتا ونهبت فوندى ، رست عند مصب نهر تفيرى . وليس فى الرواية الاسلامية ما يلقى ضياء على هـذه الغزوة . ولكنها وقعت فى عهد أبى العباس محمـد بن الأغلب أمير إفريقية (٢٢٦ — ٢٤٢ هـ) ؛ وكان على صقلية يومئـذ الفضل بن جعفر الهمذانى . والظاهر أنها كانت من السرايا البحرية الخاصـة ، ولكن لاريب أن لأمير صقلية يدا فى تنظيمها وتوجيهها . وكان على كرسى البابوية يومئذ البابا سرجيوس الثانى . وكانت أسوار رومة لا تشمل كل المدينة القديمة ، بل كان الحى المقدس ، وفيـه

كنيستا القديس بطرس والقديس بولس وطائفة كبيرة من المعابد والقبور القديمة ، خارجا عن الأسوار، معرضا للاعتداء . فانقض البحارة المسلمون على ذلك الحى وجردوا الهياكل والأصنام من حليها النفيسة، وانتزعوا هيكلا فضيا من قبر القديس بولس، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة . فارتاع البابا، واهتز الشعب الرومانى فرقا ورعبا . وبادر الأمبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملة من جنده لمقاتلة الغزاة ، وجهزت ثغور نابولى (نابل) وأمالفى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم وقدمت فى ذلك الحين عصابات مسلمة أخرى لتشد أزر الحملة . على أن الذى أنقذ المدينة الخالدة من الوقوع فى يد المسلمين هو خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم ، فرفعوا الحصار بعد أن قاتلوا جند الأمبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالا رائعا غرق فيه بعض سفنهم، وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى (سنة ٨٥٠ م) .

فكشفت هذه الجرأة للبابوية والنصرانية ضعف المدينة الخالدة وما تتعرض إليه من المخاطر، ونشط خلف سرجيوس، ليون الرابع إلى تحصينها، وأدخل الحى المقدس وكنيستى القديس بطرس والقديس بولس فى حمى الأسوار، وحصن هذه الضاحية التى ما زالت تسمى «المدينة الليونية» تخليدا لاسمه، وأغلق مصب نهر تفيرى بسلسلة ضخمة من الحديد تحول دون تقدم الهاجمين .

وتوالت حملات السرايا المسلمة بعدئذ على الثغور الايطالية . وكانت فى الغالب حملات ناهبة . ولكن فكرة غزو المدينة الخالدة لبثت تجول فى أذهان المسلمين أعواما أخرى . ففى سنة ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ) نشط أمراء البحر المسلمون فى ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة . ولم نجد فى الرواية الاسلامية ما يلقى الضياء أيضا على أخبار هذه الحملة . ولكن هنالك ما يدل على أن حكومتى إفريقية وصقلية هما اللتان اشرفتا على إعدادها ومدها بالمؤازرة المادية . وكان أمير إفريقية يومئذ محمد بن أحمد بن الأغلب (٢٥٠ — ٢٦١ هـ)، وعلى صقلية محمد بن خفاجة . وكان ابن الأغلب قد افتتح مالطة قبل ذلك بعام (٢٥٥ هـ) . وظهر خفاجة بن سفيان

أمير صقلية بحملاته البحرية فى مياه قلورية . واجتمعت الوحدات المختلفة فى بعض ثغور سردانية . ثم قصدت إلى الشاطىء الإيطالى فاثخنت فيه كعادتها، ورست عند مصب تفيرى على قيد ستة عشر ميلا من رومة . وكان البابا ليون الرابع قد عقد محالفة دفاعية مع مجمع الثغور الأمبراطورية أعنى نابولى وأمالفى وجايتا، فبادر أسطولها فى الحال بالزحف على سفن المسلمين تحت إمرة قائد شجاع فتى يدعى قيصريوس . نخف المسلمون إلى لقائه . ونشبت بين الفريقين معركة بحرية كبرى فى مياه أوستيا ثغر رومة . ولكن عاصفة هائلة هبت عندئذ فارتد الأسطول الفرنجى إلى الشاطىء، واصطدمت سفن المسلمين بعضها ببعض فغرق عدد منها . بيد أن هذه الخسارة الجزئية لم ترد المسلمين عن عزمهم، فلبثوا يهددون المدينة بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة .

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التى بذلها المسلمون لغزو مدينة القياصرة . فلم يعودوا إلى تلك المياه فى حملات كبيرة منظمة . ولم يكن فتح رومة فى ذلك العصر أمنية بعيدة المنال كفتح القسطنطنية مثلا . ولكن الخلاف كان يجثم دائما فى طى هذه الحملات، وكان ظمأ الكسب يغلب على فكرة الاستقرار والفتح السياسى المنظم . وكانت دولة الأغالبة فى ذلك الوقت فى طور انحلالها ، وقد بدأ حكام صقلية يعملون على فصلها عن الحكومة المركزية . أما حكومة قرطبة فكانت تعنى يومئذ بقمع الثورات الداخلية التى كانت تمزق أوصال الأندلس ، ورد غارات النورمان والفرنج، وكانت بعيدة عن فكرة الفتوحات البحرية القاصية . فكانت فكرة افتتاح رومة فى الواقع فكرة المغامرين من أمراء البحر والبحارة المسلمين عليهم غرمها ، ولهم غنمها، وإن كانت حكومة إفريقية لم تضن عليهم كما قدمنا بمؤازرتها المادية أحيانا، والمعنوية دائما[1] .

---

(١) راجع طرفا من أخبار هذه الغزوة فى : Gilbon : ibid : ch. LII و Finlay ; ibid. وراجع أيضا ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠٥) ففيها تفاصيل مفيدة عن غزوات المسلمين فى المياه الايطالية .

الفصل السابع

فكرة الحروب الصليبية

الفكرة الصليبية أقدم عهدا وأوسع مدى ، من تلك المعارك التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالحروب الصليبية . فالفكرة الصليبية تقوم على الصراع بين الاسلام والنصرانية ، وقد بدأ هذا الصراع منذ وثبة الاسلام الى الفتح فى عصره الأول . ولم تبدأ الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر، ولم تقع أول معركة صليبية فى سهول الشام . بل نستطيع أن نرجع بدأ الحروب الصليبية الحقيقية الى أوائل القرن الثامن حينما عسكر الاسلام تحت أسوار قسطنطنية يهدد باقتحامها الى الغرب ، وحينما انساب من اسبانيا الى سهول فرنسا يهدد النصرانية وأمم الشمال . ومنذ أوائل القرن الثامن شعرت النصرانيـة بفداحة الخطر الذى يهددها من فورة الاسلام وظفره فى الجنوب ، ومن تقدم الوثنية فيما وراء نهر الرين . وكانت هذه المعارك التى اضطرمت بين النصرانية والاسلام، على ضفاف اللوار، و بين النصرانية والوثنيـة على ضـفاف الرين، أول مرحلة فى ذلك الصراع العنيف الذى يصطبغ بالصبغة الصليبية ؛ ولم تكن المعارك المتواليـة التى وقعت بعـد ذلك بثلاثة قرون فى سهول الشام ومصر بين المسلمين والفرنج ، واستطالت زهاء قرن ونصف سوى طور آخر من أطوار ذلك الصراع العام .

فى الوقت الذى انهار فيه صرح العالم الرومانى الشامخ، واجتنى الاسـلام معظم تراثه ، لم تكن غاية الفتح الاسلامى تقف عند افتتاح الأقطار و بسطة الملك ، ولكنها كانت ترمى الى غاية أبعد مدى وأجل خطرا ، هى تحقيق سيادة الاسلام الروحية والاجتماعية الى جانب سلطانه السياسى . وكانت جيوش الخلافة يوم قصدت قسطنطنية

ويوم عبرت جبال البرنيه واجتاحت جنوب فرنسا ، ترمى الى تحقيق تلك الغاية البعيدة . ولكن الاسلام ارتدّ أمام أسوار قسطنطنية ، ثم ارتدّ بعد ذلك أمام الفرنج فى بلاط الشهداء، وارتدّت الوثنية فى الوقت نفسه الى ما وراء الرين أمام نفس أولئك الفرنج الذين وقفوا للاسلام سدا . ونجت النصرانية ، ونجت أمم الشمال من خطر الفناء، وتأهبت للدفاع عن نفسها كلما لاح شبح هذا الخطر ؛ وغدت مملكة الفرنج حصن أوربا والنصرانية من الغرب، كما كانت الدولة البيزنطية وقسطنطنية حصنها فى الشرق ، يحميانها من وثبات الاسلام وفوراته . واعتبرت النصرانية كارل مارتل بطل بلاط الشهداء ، حاميها ومنقذها من قبضة الاسلام ومن نير القرآن المدنى والدينى ؛ وأسبغ شارلمان من بعده على تلك الحماية لونا واضحا، فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونية وبوهميا ولومبارديا ، وردّ الاسلام الى ما وراء البرنيه . ولبثت النصرانية زهاء قرنين تقنع بالدفاع عن نفسها ، فلما تفككت عرى الدولة الاسلامية الكبرى واستحالت فى القرن العاشر الى دول وإمارات متنافسة، واضمحل شأن القبائل الوثنية فى شرق أوربا، استطاعت النصرانية أن تتحدّى الدول الاسلامية؛ واضطرمت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة. وكان يقوم بمحاربة المسلمين، الأمم والدول التى تجاورهم أو تخشى نهوضهم كامارات اسبانيا النصرانية ، ودويلات ايطاليا، والدولة البيزنطية. ولم تكن الفكرة الدينية هى التى تجثم فى ثنية هذه المعارك، بل كانت شهوة التغلب والسلطان السياسى والحريات القومية، هى النزعات الغالبة فيها ؛ وهى التى تسيرها . بيد أن الكنيسة كانت تسبغ بدعوتها وتعاليمها على كثير من هذه الحروب المحلية لون الحرب الصليبية التى تشهر إما لبث دعوة الدين ، أو لسحق أعدائه، أو حماية البقاع المقدّسة. وكان الباعث الدينى ينتحل فى الغالب ليحيط هذه المعارك بجوّ من الروعة قبل أن يخلقه باعث آخر ، بل كان بين الجند الذين يحتشدون حول العلم الكنسى كثير يعتقدون أنهم يضحون بمصالحهم المادية وأطماعهم الدنيوية لخير أخراهم وخير النصرانية .

على أن الحماسة الدينية أو نزعة الجهاد لم تبلغ فى النصرانية ما بلغته فى العالم الاسلامى ؛ ففى عصور الاسلام الأولى يرجع كثير من الفضل الى هذه العاطفة فى تدفق الفتوح الاسلامية، وقوتها وسرعتها، وفى ظفر الاسلام باجتياح معظم أقطار الدولة الشرقية واسبانيا؛ولكنها لم تسفر فى أوربا النصرانية إلا عن حركات صغيرة متقطعة، ولم تسفر فى أية حال عن حركات عظيمة كالتى اضطرمت بها بلاد العرب وآسيا وإفريقية، ولم تؤد الى فتوحات عظيمة بعيدة المدى كتلك التى قامت بها الدول الاسلامية فى بغداد ومصر واسبانيا .

ومع ذلك فقد تتفوق الفكرة الصليبية على نزعة الجهاد الاسلامية فى معنى من المعانى ؛ ذلك أن أوربا الغربية كانت قد جازت منذ عصور طويلة غمار البداوة والانحلال القومى ؛ وكانت الطبقات الحاكمة رغم ما كان يحفزها أحيانا من هوى التقلب وشغف التنقل ، قد استقرت وارتبطت بأوطانها القومية بروابط عديدة . فإذا كان الاضطرام الدينى فى الغرب أضعف منه فى الشرق،فقد كانت المادة التى يقوم عليها ويستطيع إضرامها،أشد مراسا وأعرق أصولا . وكان ثمة من الميادين والفرص القريبة ، ما تستطيع الكنيسة أن تحشد له جموع المتطوعين بلا صعوبة، بيد أنها كانت تميل الى تحقيق غايات بعيدة خطرة شاقة ؛ ولم يكن لمعظم الأمراء والفرسان الذين لبوا دعوتها فى الحروب الصليبية الكبرى كبير أمل فى الفوز بثمار دنيوية خلابة،ولهذا كانت المشاريع الضخمة التى خصتها الكنيسة بالعناية والرعاية أوفر المشاريع كلفة وأقلها ثمرة ؛ وكانت النصرانية الغربية تسير الى الغنم والظفر لا فى سهول الشام القاصية، ولكن فى اسبانيا وجنوب إيطاليا حيثما كانت تغالب الدول الاسلامية، وفى أواسط أوربا حيثما كانت تشتبك مع الوثنية بلا انقطاع .

بدأت هذه النزعة الصليبية فى اسبانيا قبل مجلس كليرمون ودعوة البابا أوربان الثانى الى الحرب الصليبية الكبرى بنحو قرن . والواقع أن الحماسة الدينية كانت تسبغ منذ البداية على حروب الأندلس لونا عميقا من التعصب ؛ وكانت النصرانية الإسبانية مذ ردت الى الشمال، وألجئت الى هضاب البرنيه والأوسترياس، تستعر

حماسة الى استرداد أوطانها الجنوبية من قبضة الاسلام؛ وكانت الإمارات الشمالية تنسى فى الحال خلافتها السياسية والقومية ، وتحتشد حول كلمة الدين كلما هددها المسلمون من الجنوب . ولنا مايوضح ذلك فى عهد الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) (٩١٢ — ٩٦١ م) . وكذلك فى عهد الحاجب المنصور (٣٦٦ — ٣٩٣ هـ) (٩٧٦ — ١٠٠١ م) حينما نشط الاسلام الى مطاردة اسبانيا النصرانية ، وغزا أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ؛ وكذلك حينما جازت جموع البربر الى الأندلس تحت لواء المرابطين ، ثم الموحدين من بعدهم ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء ، ولتجدد عهد الجهاد، ولترث فى نفس الوقت تراث الدولة الأموية . فقد أثار هذا الانفجار الاسلامى الجديد ارتياع الإمارات النصرانية، وبعث اليها نزعة قوية من التعصب الدينى، فاستصرخت جيرانها باسم الدين ، واقتحم البرنيه سيل من المتطوعة من نورماندى ، واكوتين، وبورجونيا وغيرها من الولايات الفرنجية؛ هرعوا متحمسين لينصروا الصليب ، وليأخذوا قسطهم من أسلاب المسلمين . وشملت رومة هذه الحركة برعايتها ، وأذن البابا جريجورى السابع المتطوعين، فى الحرب باسم الدين على أن يحكموا الأرض المفتوحة باسم البابوية . وهكذا كانت البابوية تسبغ الصفة الدينية على كل حرب تشهرها النصرانية على الاسلام .

على أن الأطماع الدنيوية والثمار المادية كانت تجثم فى ثنايا هذه النزعة الدينية التى عمل الزعماء على اضرامها فى صدور الجند والدهماء ، فنرى مثلا بعض كبار المغامرين من فرسان النصرانية مثل السيد الكمبيادور[1] يحاربون الى جانب النصارى والمسلمين طورا بعد طور،ثم نرى الظافرين يقنعون من الأرض المفتوحة بالأسلاب ومن المسلمين بالاتاوة ، بل نراهم يعتنقون عادات الشعب المغلوب وتقاليده الاجتماعية . وكانت جميع الطبقات فى اسبانيا النصرانية تستفيد من كل أرض تنتزع من اسبانيا المسلمة، إذ يغنم النبلاء اقطاعات جديدة، وتهرع الطبقات الوسطى الى

---

(١) Cid il Campeador وهو الدون رودريجو دى بيفار علم الفروسية الإسبانية ، وقد توفى فى سنة ١٠٦٩ م . وسنعنى بسيرته فى فصل قادم .

المدن الجديدة لتستبدل بغنائها ونعمائها فقر الوطن القديم و بؤسه ، ويهرع العامة والفلاحون الى وديان الأندلس الجميلة ومروجها الخصبة الزاهرة فرارا من جدب الشمال وقفره .

***

هذه العوامل التى أذكت فى اسبانيا نار الصراع المستمر بين الاسلام والنصرانية هى نفسها التى حولت فكرة الحروب الصليبية نحو المشرق ، فكما أن الانفجار الاسلامى فى عهد المرابطين والموحدين كان ينذر باجتياح اسبانيا النصرانية ويستثير حماسة الأمم الشمالية ، كذلك كان الانفجار الاسلامى فى المشرق يثير جزع النصرانية ، ويثير بالأخص مخاوف الدولة البيزنطية التى هى معقل النصرانية من المشرق ، وكان الاسلام يضطرم يومئذ بقوة جديدة فتية هى الدولة السلجوقية . وكانت وثبات السلاجقة وتدفق فتوحهم فى عهد ألب أرسلان وملك شاه (٤٥٥ — ٤٨٥هـ) ، (١٠٦٣ — ١٠٩٢ م) الى ناحية الأراضى البيزنطية وشاطئ البحر الأبيض نذير الحرب الصليبية الأولى . وكان أولئك الغزاة الأشداء قد اغتصبوا تراث الدولة العباسية واجتاحوا ارمينية وآسيا الصغرى والشام فى أقل من ربع قرن وسحقوا جيوش الدولة البيزنطية فى موقعه ملازكرد (٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م) . وأسسوا الى جانب ملكهم الشامخ فى بغداد سلطنة "الروم" فى آسيا الصغرى فامتدت حدودها حتى مياه المرمرة وشاطئ البحر الأبيض . فاستغاثت قسطنطنية ازاء الخطر الداهم بأمم الغرب ، ورفع الحاج الذين زاروا البقاع المقدسة أصواتهم بمر الشكوى مما لقوا من عسف الفاتحين واضطهادهم للنصرانية وشعائرها . وكان على رأس الكنيسة يومئذ رجل وافر العزم والدهاء هو هلدبراند الذى ارتقى كرسى البابوية باسم جريجورى السابع ، فراعه ذلك الخطر الجديد ، ورأى أن يبادر بإعداد حملة لحماية الدولة الشرقية التى كان يعتبرها بحق سدا منيعا لحماية أوربا من وثبات الاسلام من جهة المشرق . فوجه دعوة عامة إلى أمراء أوربا يطلب اليهم الغوث والمعونة . ولكن جريجورى لم يستطع رغم ذكائه وحزمه أن ينفث فى الأمراء أو الجموع تلك الحماسة المستعرة

التي هي روح الحملات الصليبية . وكان الشك يحيط بنيته في توجيه الحملة إلى محاربة النورمان في جنوب ايطاليا ، ولذلك لم تثمر دعوته ، ولم يلبها إلا نفر قليل من المغامرين .

فكان على خلفه أوربان الثاني أن يحيي مشروعه وأن يحسن اعداده وتنفيذه . وكان أوربان حبرا شديد الحماسة ثاقب البصيرة ، فلم يقصر دعوته على الأمراء والسادة ، بل وجهها إلى الدهماء والكافة . وكان ترجمانه إلى العامة راهب فرنسي من مواطنيه يذكرنا بالأقدمين من الدعاة والرسل واسمه بطرس الزاهد ، وكان قد زار البقاع المقدسة (سنة ١٠٩٣ م) وعاد إلى أوربا يروى أشنع القصص عن عسف السلاجقة وانتهاكهم لقبر المسيح . ومهما كانت أقوال هذا الراهب من الصحة ، أو من الادعاء والمبالغة ، فقد كان لدعوته شأن عظيم في إثارة تعصب العامة ، وكان يطوف أرجاء أوربا فوق حمار ، وهو حافي القدمين ، يرتدي ثيابا خشنة ويحمل صليبا كبيرا ويخطب في الدهماء والعامة ، فيبكيهم ويثير حماستهم ويذكي ظمأهم إلى الانتقام واسترداد القبر المقدس . وكانت فورة السلاجقة قد هدأت في ذلك الحين وتفككت عرى دولتهم على أثر موت ملك شاه (١٠٩٢ م) . ولكن أحبار الكنيسة وأمراء الغرب لم يطمئنوا إلى ذلك السكون المؤقت لا سيما وقد عرفوا من تاريخ الماضي ان الاسلام لا يكاد يخبو له انفجار حتى يتمخض عن انفجار أشد . وكان أوربان يرى مثل سلفه جريجوري وجوب تقوية الدولة الشرقية غير أنه كان يرى أن يكون ذلك بإنشاء دولة لاتينية في فلسطين تسهر على بيت المقدس وترقب وثبات الاسلام من الجنوب والشرق ؛ فكان ما أرادت الكنيسة ولبى الأمراء والسادة دعوتها وحشدوا جموعهم الزاخرة ، وتدفق سيل النصرانية على المشرق ، وبدأت في المشرق منذ سنة ١٠٩٨ م (٤٩١ هـ) سلسلة الحروب الكبرى التي عرفت باسم الحروب الصليبية ، واستولى جودفروا دى بويون وزملاؤه زعماء الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (سنة ١٠٩٩ م) وكثير من مدن الشام وثغوره ، وأنشأوا المملكة اللاتينية التي قامت في قلب الأمم الإسلامية عنوانا لظفر النصرانية .

وكما كانت الحرب الصليبية الأولى ردا على انفجار الإسلام فى عهد السلاجقة، وتقدم الغزاة نحو القسطنطنية، كذلك كانت الحرب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ م (٥٤٢هـ) ردا على فورة جديدة للسلاجقة، واستيلاء عماد الدين زنكى على الرّها (إديسا) معقـل المملكة اللاتينيـة فى الشمال (١١٤٤ م) . وكانت الحرب الصليبية الثالثـة سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ردا على نهضـة مصر فى عهد صلاح الدين واستيلائه على بيت المقـدس وسحقه للمملكة اللاتينية التى عاشت فى فلسطين زهاء ثمانين سـنة . وكانت فورة الاسلام عندئذ قو يه رائعة تنذر باجتياح الأناضول والدولة الشرقية، ولذا هرع أعظم ملوك النصرانية فى هذا العصر لاتقاء الخطر الداهم . واشتبكت مصر فى حروب طاحنة مع جيوش فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها من الدول الأوربية، وألقى جندها على المغير دروسا قاسية، وأثخن صلاح الدين فى جيوش الفرنج، وغدت قوة مصر فى ذلك الحين مثارا للاجلال والروع، وانهارت آمال النصرانية فى المشرق. واستحالت الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) الى عصابات ناهبة استقر زعماؤها فى القسطنطنية، واقتسموا أشلاء الدولة البيزنطية، ونبذوا مغامرة الحرب المقدسة . واستنفدت الجيوش الصليبية فى حملتيها الخامسة سنة ١٢١٧ م (٦١٤هـ) والسابعة سنة ١٢٤٨ م (٦٤٧ هـ) قواها ومواردها فى محاولات عقيمة فى مياه مصر وأراضى دمياط انتهت بنكبتها وتمزيقها . أما الحملة السادسة سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥هـ) فقد استطاعت أن تستعيد بيت المقدس الى حين .

هذه هى الفكرة التى قامت حولها الحروب الصليبية : فكرة الخطر الاسلامى، ومعركة الحياة والموت بين الاسلام والنصرانية . وقد استطاعت الكنيسة أن تحفز أمراء النصرانية لمحاربة الاسلام باسم الدين حرصا على سلطانها، واستطاعت أن تبث هذه النزعة الفياضة بالتعصب والحماسة الدينية فى المجتمعات النصرانية عصورا طويلة، وأن تحشد من فروسـية القرون الوسطى حملات كبيرة تسـير نحو غايات خيالية لاتغرى ثمارها الدنيوية . بيد أن هذه النزعة الدينية لم تخمد فى زعماء المجاهدين شهواتهم وأطماعهم المـادية . وكما أن الدين كان علمـا فى يد الكنيسة تدعو حوله

الأمراء والفرسان، كذلك كانت الدعوة الدينية وسيلة نافذة فى يد الفرسان والسادة لحشد جموع العامة وضمان طاعتهم وخضوعهم . ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التى زجت بهم فى غمار تلك المخاطرات النائية، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية . ولنا ما يوضح ذلك فى معظم الحملات الصليبية، فقد سار جودفروا دى بو يون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية، فلما وصلوا الى قسطنطينية تعهدوا أن يحكموها باسم الامبراطور مقابل اختراق الجيوش الصليبية أراضى الدولة ، غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرسوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع ، فافترق بلدوين عن زملائه واستقر فى إمارة حمص، واستقر بوهموند فى أنطاكية وأبى السير إلى الجنوب ، واشتغل ريمون دى تولوز بغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بامارة بيت المقدس . وحكم الجميع الامارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وأنشأوا القصور، وأقطعوا القطائع . وقد رأينا أن الحملة الخامسة لم تصل الى الأرض المقدسة بل استقرت فى قسطنطينية ، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التى كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة ، وآثروا فى النهاية أن يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح .

فى وسعنا إذا أن نستخلص مما تقدم أن بواعث الحروب الصليبية ترجع الى عاملين أساسين ، أحدهما معنوى، والآخر اجتماعى أو مادى .

فأما الأول فهو ثورة العواطف والعقائد الدينية ؛ فقد رأينا النصرانية تصارع الاسلام منذ القرن السابع ، وترده عن أوربا بعد أن كان ينذرها بالتغلب والفناء ، وتحصره فى اسبانيا أخيرا، وهنالك تمضى فى مغالبته ومناهضته ؛ وأن الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحاج الناقمين ولا دعوة بطرس الزاهد، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التى كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الاسلام والنصرانية . وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادى عشر فى أوربا

فنقلته الحروب الصليبية إلى آسيا . وإذا كان لنا أن نقارن بين حوادث هذين العهدين، فإنا نستطيع أن نلاحظ أن النصرانية كانت تعرض لنا مدى حين فى آسيا بعض المظاهر التى يعرضها الاسلام فى أوربا وتجوز نفس المصاير فى معنى من المعانى ؛ فقد كان الاسلام مستقرا فى اسبانيا ، وكان قد أسس هنالك امارات وممالك؛ وقد فعل النصارى مثل ذلك فى آسيا فافتتحوا الشام وأنشأوا المملكة اللاتينية وغيرها من الإمارات الصغرى، وكان موقفهم هنالك بالنسبة للمسلمين يشبه موقف المسلمين من بعض الوجوه فى اسبانيا بالنسبة للنصارى ، وبعبارة أخرى كانت مملكة بيت المقدس النصرانية فى المشرق تشبه بعض الشبه مملكة غرناطة المسلمة فى المغرب ؛ ولكن الظاهرة الكبرى وروح النضال دائما هى معركة النظامين الكبيرين اللذين ينضوى تحت لوائهما العالم القديم : معركة الاسلام والنصرانية التى لقيت ذروتها فى الحروب الصليبية .

وأما العامل الثانى، المادى أو الاجتماعى، فيرجع إلى حالة أوربا فى القرن الحادى عشر . كانت النظم الإقطاعية قد بلغت شأوا بعيدا فى إرهاق المجتمع الأوربى بما تفرض عليه من أغلال وقيود ، وكانت أوربا قد بدأت تتلمس أفقا أوسع وأعم، وأخذ الذهن البشرى يحاول أن يجوز النطاق الضيق الذى حصر فيه، فجاءت الدعوة إلى الحروب الصليبية تحقق هذا الأفق، وهرعت الجماعات إليها كأنما آنست فيها حياة أرحب وأشد تباينا، وبدا أمامها المستقبل فياضا بالآمال الكبيرة . وكانت الحروب الصليبية أول حادثة أوربية عامة، وربما كان ذلك أهم مميزاتها ؛ فقد اشتركت فيها كل أوربا ، ولم نر قبل الحروب الصليبية أوربا تهتز لعاطفة واحدة وتعمل لقضية واحدة؛ ولم تكن الحروب الصليبية حادثة أوربية فقط، بل كانت فى كل بلد حادثا وطنيا، ففى كل بلد أيضا كانت طوائف المجتمع كلها تضطرم بشعور واحد، وكان الملوك والسادة والكهنة والتجار والعامة والفلاحون يشعرون جميعا نحو الحروب الصليبية بشعور واحد و يعملون فيها يدا واحدة ، فكانت الحروب الصليبية للأمم الأوربية مهاد الوحدة المعنوية ، وهى

ظاهرة جديدة ، بل كانت فاتحة الوحدة الأوربية ذاتها .

لسنا بحاجة لأن نصدر حكما على هـذه الحروب والغزوات البربرية التى أثارتها النصرانيـة وأثارها التعصب الأوربى ، فى المشرق زهاء قرنين . فقـد حكم عليها من قبل كثير من مفكرى الغـرب ومؤرخيه . ونكتفى بأن ننقل إلى القارىء تلك الفقرة الرنانة التى يحكم بها على الحروب الصليبية، مؤرخ من أعظم مؤرخى النصرانية ومفكريها ، وهو ادوارد جيبون مؤرخ الدولة الرومانية :

« قامت الحروب الصليبية على مبـدأ التعصب الوحشى ، وكانت أهم النتائج مشابهة للسـبب . كان كل حاج يطمع فى الرجوع بأسلابه المقدسة ، آثار اليونان وفلسطين . وكان كل أثر يتقدمه أو يعقبة قطر من المعجزات والأحلام . وقد أفسدت عقيدة الكاثوليك بأساطير جديدة، وأفسدت عاداتهم بخرافات جديدة ؛ وانبثق من النبع المخـرب لحرب المقدسة ، نظام محكمة التحقيق (محكمة التفتيش)، وجماعات الرهبنة المتسولة ، ثم مفسدة الرخص الدينية ، ثم تقدم الشعائر الوثنية ؛ وفتك روح اللاتينيين الناهض بحيـوية عقلهم ودينهم . وإذا كان القرنان التاسع والعاشر هما عصر الظلام، فان القرنين الثالث عشر والرابع عشر،هما عصر السخف والخرافة[١] . »

وهل نحن بحاجة لأن نقول إن الصراع بين الإسلام والنصرانية ما زال قائما، وإن الغرب ما زال فى عصرنا ينظم حملاته الصليبية على الإسلام، فى ظل الاستعمار السياسى والاقتصادى، بأساليب جديدة تستتر بأثواب التمدين والتهذيب والتثقيف؟ .

* * *

أما عبرة الحروب الصـليبية وآثارها السياسـية والاجتماعية فلا يتسع المقـام لبحثها . غير أنا نستطيع أن نقـول إجمالا إنها كانت مبعث القومية الأوربيـة ؛ وقد أنقذت المجتمع الأوربى من طوائف كبيرة من الفرسان والسادة كانت تعيث بحريات الطبقات الوسطى والعامة وحقوقها . بيـد أن الحروب الصليبية لم تحمـل

---

(١) Roman Empire - Ch. LXI.

غنماً كبيراً من المشرق إلى الحضارة الغربية ، وكان غنم هذه الحضارة من منهل الحضارة الاسلامية أعظم ، لا فى غمار الخطوب والمعارك الطاحنة ، ولكن فى مهاد السلام ، وفى بسائط الأندلس وصقلية حيثما كان الإسلام والنصرانية يلتقيان متصالحين ويعملان فى تفاهم وتعاون . أما المشرق فلم يغنم شيئاً من خوض هذه المعارك البربرية مع جموع متعصبة لم تعن إلا بالنار والسيف وتحصيل الأسلاب والغنائم .

الفصل الثامن

النار اليونانية

١ ــ نشأتها وتطورها

أشرنا فيما تقدم الى النار اليونانية وأهميتها كوسيلة للدفاع والآن نعرض الى تاريخ هذه النار والدور الذى أدته فى حروب العالم القديم .

كان للأقدمين أسلحتهم ووسائلهم الحربية المدمرة . ومنذ أقدم عصور التاريخ يتجه الذهن البشرى الى ابتكار هذه الوسائل. وقد نبتسم اذا استعرضنا وسائل الحرب والتدمير القديمة الى جانب وسائل عصرنا وما بلغت من التقدم والروعة سواء فى البر أو البحر أو الهواء . بيد أن هذا البون الشاسع لا يمنع المؤرخ الذى يتأمل صحف الغابر فى اعتبار وروية أن يقف ما بين آن وآخر وقفة الإكبار والإعجاب بما استطاعت مدنيات الحرب القديمة أن تخرجه من آلات التدمير ووسائل الدفاع.

كانت النار اليونانية فى العصور الوسطى، أروع وسائل الفتك والتدمير . وقد لبثت عصورا أعجوبة الحرب ووسيلة فريدة لحماية الدولة الشرقية ؛ ورد حملات العرب البحرية عن ثغورها وشواطئها ؛ والقى فيها خلفاء قسطنطين آخر وسيلة للاحتفاظ بما بقى فى أيديهم من تراث الدولة الرومانية .

ومنشأ هذه النار التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ القرون الوسطى غامض جدا . فقد استعملت لأول مرة وسيلة ناجعة للتدمير فى أواخر القرن السابع من الميلاد ، غير أن فى بعض النقوش والرموز الأشورية ما يدل على أن قذف النار على المدن المحصورة وعلى معسكرات العدو كان وسيلة من وسائل الحرب فى مدنية بابل . ويذكر توكوتيدوس أن الاسبارطيين فى حصار بلاتيا (سنة ٤٢٩ ق. م.) حاولوا

إحراق المدينــة بأن قذفوها بكرات ملتهبة من الخشب الممزوج بالقــار والكبريت ، وفى حصار دليوم (سنة ٤٢٤ ق . م.) وضع المحاصرون على الأســوار آنية ملأى بالقار والكبريت والفحم وأشعلوها بواسطة كور يدفع اليهـا الهواء داخل ساق شجرة مجوف . ويذكر تاسيتوس أنه فى هذا العصر كان يستعمل فى المعـارك البحرية[1] مركّب من الكبريت والقار والفحم ووبر الكتّان ، يوضع فى قوارب سريعة ويقذف ملتهبا على مؤخرات سفن العدو ، ثم أضيف إلى هذا المركب حوالى سنة ٣٥٠ ق . م النفط أو البترول . ويذكر المؤرخون اللاحقون فى قصص الحروب والمعارك إلى ما بعد ذلك بنحو تسـعة قرون مركبا يصنع من هذه المواد ؛ ثم تطوّر هذا المركب فاضيف اليــه ملح البارود وزيت التربنتين والشحم واستعمل فى الحروب الصليبية وعرف عندئذ بالنار اليونانية .

غير أن هذه النار التى استعملت فى الحروب الصليبية لم تكن هى النار اليونانية الحقيقية التى استعملت فى المعـارك البحرية بين البيزنطيين والعرب ، والتى ما زال سر تركيبها إلى اليـوم موضع الخلاف والتكهن . وترجع الأساطير الدينيـة البيزنطية أصل هذه النار إلى الوحى الالهى ، فيزعم الأمبراطور قسطنطين السابع (بورفيروجنتوس) مؤرخ الدولة البيزنطية أن سر النـار اليونانية قـد أفضى به ملك من السماء إلى الامبراطور قسطنطين الأول هبة من الله و بركة أسبغها على الرومانيين[2] ، ولكن الصحيح المعول عليه أن هذه النار لم تظهر بين وسائل الحرب البيزنطية إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ، فى عهـد قسطنطين الرابع (بوجوناتوس) (٦٤٨ — ٦٨٥ م) وأن الذى اخترعها مهندس يدعى كالنيكوس كان فى خدمة العرب فى هليو بوليس من أعمال الشام ثم فرّ منهـا إلى القسطنطنية ، ويقال انه مصرى من هليو بوليس المصرية ، وربمـا كان هذا هو الأصح لأن الكيمياء كانت علمـا مزدهرا عند المصريين منذ العصور الأولى ، وكانت لهم فيها مباحث واختراعات جليلة . وظهرت

---

(١) Thucydides : Peloponnesian War, Ch. VIII, & XIV.

(٢) Gibbon ; Ch. LII.

روعة هـذا السلاح الجديد لأول مرة فى حصار العرب الأول للقسطنطنية (سـنة ٦٦٨ م – ٤٨ هـ) إذ قُذفت النـار مرارا على السفن العربيـة فدمرت منها عددا كبيرا ، وارتد المسلمون على أثر ذلك إلى الجنوب ورفعوا الحصار عن عاصمة الدولة الرومانيـــة .

أما سر تركيب هـذه النار العجيبة فما زال كما قدمنا محوطا بالخفاء شأن مواد التحنيط عند قدماء المصريين التى مازالت سرا على العلم الحديث. على أنه يستنتج من أقوال المؤرخين البيزنطيين وإشاراتهم إلى النار اليونانية أنهـا كانت تركب من النافتا (زيت النفط) وهو زيت سريع الألتهـاب يلتهب حالمـا يصطدم بالهواء ، ومن الكبريت والقـار بنسب ومقادير لم تعرف حتى الآن . وكان هـذا المركب يحدث دخانا كثيفا وانفجارا عظيما ، وتنبثق منـه نار شديدة حاميـة تندلع ألسنتها صعودا وهبوطا فى نفس الوقت. وتضطرم اضطراما سريعا هائلا ، ولا تنطفئ عند ملامسة المـاء بل تشـتد وتحتدم ، ولا يخمـد أوارها سـوى الرمل والخل . والمظنون أن مخترعها كالنيكوس استعمل فى تركيبها ملح البـارود أيضا ليحدث هذا الإنفجار . ولكن يرد على ذلك بأن البارود لم يعرف قبل أواخر القرن الثالث عشر . ويستنتج المؤرخ الحربى الكولونل هايم فى كتابه عن تاريخ الأسلحة والذخائر الحربية أن النار اليونانية كانت تحتوى على مقدار من الجير وهذا هو السبب فى احتدامها واشتدادها عند ملامسة المـاء ، وعلى ذلك فقد كانت تركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار فينتج من ذلك السائل الملتهب ، ومن ذلك سميت بالنار السـائلة ، ونار البحر[١].

وكانت النار اليونانية تستعمل فى حروب البر والبحر معا ، أثناء التحام الصفوف وأثناء الحصار فتقذف من فوق الأبراج أو الأسوار فى آنية كبيرة ، أو تطلق فى كرات مشتعلة من الحديد والحجارة أو فى سهام ملتوية قد لفت بالقنب والوبر والشـعر ، مشـبعة بالسائل الملتهب . وأما فى المعارك البحرية فكانت تحمـل فى سفن النار

(١) Enc. Brit. Art. Greek Fire

(الحراقات) وتطلق من أنابيب طويلة من النحاس ركبت على مضخات ضاغطة (سيفونات) توضع فى مقدمة السفينة، وجعلت على هيئة وحوش فاغرة أفواهها تقذف وابلا من النيران السائلة المضطرمة .

وقد احتفظ البيزنطيون طويلا بسر هذا السلاح الهائل واستأثروا باستعماله فى محاربة أعدائهم عصورا طويلة . وكانوا يعيرونه أحيانا إلى حلفائهم ولكن دون أن يبوحوا لهم بسره . ويزعم قسطنطين السابع فى تاريخه أن هذا التكتم كان فرضا من السماء، وان الملك الذى أرسله الله بسر هذه النار إلى قسطنطين الكبير (الأول) أبلغه وجوب احتفاظ الأمير والرعية بسر هذه النعمة و إلا اعتبر فضحه خروجا على أوامر الله ومجلبة لسخطه وعقابه . وهكذا لبث سر هذه النار مقبورا فى المصانع البيزنطية زهاء أربعة قرون حتى ظفر به العرب فى أواخر القرن الحادى عشر، وذلك أما بطريق التحليل والبحث، وأما بالوقوف على سر المركب من بعض الخوارج البيزنطيين .

* * *

كان العرب أول من عانى فتك النار اليونانية فأنسوا روعتها وخطرها لأول مرة فى حصارهم الأول للقسطنطنية (٤٨ هـ — ٦٦٨ م) وسلطها اليونانيون على سفنهم ومعسكراتهم فأوقعوا فيها الخلل والاضطراب غير مرة . وهى التى ردت هجمات المسلمين عن الأسوار مرارا وتكرارا، وانتهت بإحراق معظم سفنهم كما قدمنا . وفى الحصار الثانى (٩٧ هـ — ٧١٧م) كان فتكها بالمسلمين أشد وأنكى . فقد ردت مسلمة بن عبد الملك بجيوشه وأساطيله الجرارة عن أسوار المدينة، واضطرته أن يرابط بقواته وسفنه فى مراكز بعيدة على الشاطئ الأوربى؛ ثم أرغمته بعد ذلك على رفع الحصار والارتداد بفلوله إلى جزر الأرخبيل، وحطمت فى ذلك الحصار قوة من أضخم وأمنع القوى التى جردها الاسلام فى النصرانية .

وليس من المبالغة أن نقول إن النار اليونانية هى التى أحبطت تدابير الخلافة الأموية فى افتتاح أوربا عن طريق قسطنطنية، وقضت نهائيا على مشاريعها نحو

الدولة الرومانية الشرقية وشرق أوربا ، واضطرتها أن تحوّل تيار غزوها نحو قفار إفريقية ، وأن تقنع من أوربا النصرانية بانتزاع الأندلس ، وإن النار اليونانية هي التي حوّلت مشاريع الخلافة العباسية من افتتاح آسيا الصغرى ومحاولة اقتحامها إلى قسطنطنية ، إلى حملات ناهبة ، وفتوحات صغيرة لبثت خلالها الدولتان العباسية والبيزنطية تتبادلان غزو معاقل الحدود ، وإنما هي التي حمت عاصمة الدولة البيزنطية وثغورها عصورا طويلة من شر الغزوات البحرية المغامرة التي كانت تحشد في الثغور الاسلامية أو في جنوه وبيزا والبندقية ، وكانت تسود البحر في تلك العصور .

بيد أنه إذا كانت النار اليونانية قد لبثت قرونا سلاحا هائلا في أيدي اليونانيين (البيزنطيين) فانها بعد أن ظفر المسلمون بسرها غدت سلاحا شديد الهول في أيديهم . وقد لعبت بالأخص دورا كبيرا في الحروب الصليبية واشتهرت الجيوش المصرية باستعمالها في البر والبحر ، وكان لقاذفات النار (الحرّاقات) قسم خاص بالجيش والأسطول ، وهي التي ردّت عدوان الفرنج عن الشواطئ المصرية ، وفتكت بهم في معارك دمياط[1] . ويصف المؤرخ الفرنسي دي جوانفيل فتكها بالفرنج في تلك المعارك في كتابه «تاريخ القديس لويس» فيقول إنها تشق عباب الهواء كأنها جارح طويل الذيل ينشر جناحيه ، شديدة الكثافة ، يصحبها دوي الرعد ، وتنطلق بسرعة البرق ، فتبدد أضواءها ظلمات الليل ، ثم يصف ارتياعه وارتياع أصحابه من رؤيتها ، وفتكها بصفوف الفرنج[2] .

والظاهر أن المسلمين استطاعوا أن يحتفظوا بسر هذه النار بعد اكتشافه إلى حين ، كما استطاع اليونانيون أن يحتفظوا به من قبل ؛ ففي الحملات البحرية الاسلامية على الشواطئ الايطالية وجزائر البحر الأبيض وثغوره النصرانية ، وفي المعارك الصليبية ، نرى المسلمين يستخدمون النار اليونانية دون أعدائهم ، كذلك يظهر أن سر استعمال النار اليونانية قد نقل إلى مسلمي الأندلس فاستعملوه في محاربة

---

(١) راجع في معارك دمياط وذكر النار والحراقات — خطط المقريزي ج ١ ص ٢٢١ وما بعدها .

(٢) ترى في القسم الثاني من هذا الفصل رواية دي جوانفيل مفصلة .

أعدائهم من نصارى الشمال (شمال اسبانيا) ففى حصار لبلة (سنة ١٢٥٧م — ٦٥٥هـ) من أعمال البرتغال استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة آلات تقذف على معسكر النصارى حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد، واستعمل ملوك غرناطة منذ أواخر القرن الثالث عشر آلات كهذه فى محاربة النصارى . وهنا نقف مترددين فى الحكم على حقيقة هذه الآلات فقد يخطر للانسان من قراءة وصفها المتقدم الذى أورده مؤرخو العرب والإسبان أنها مدافع وأن المسلمين كانوا قد اكتشفوا سر البارود فى ذلك الحين ، إذا سلمنا بانهم قد وفقوا إلى اكتشافه قبل أن يوفق إلى ذلك القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر، غير أن المرجح أن هذه الآلات إنما هى قاذفات النار اليونانية تطورت مع العصور ، ونقلها الموحدون والاندلسيون عن مسلمى مصر وتونس . والظاهر أن مسلمى لأندلس استعملوا المدافع لأول مرة فى موقعة وادى لكة (ريوسليتو) (سنة ١٣٤٠ م — ٧٤٠ هـ) وفى الدفاع عن الجزيرة (الجسيراس) (سنة ١٣٤٢ م — ٧٤٢ هـ) ، ويقوى لدينا هذا الرأى أن النار اليونانية كان يصحبها على ما قدمنا عند اطلاقها دوى مخيف . بيد أن ذلك لا يمنعنا من أن نفترض أن مسلمى الأندلس بدأوا باستعمال النار اليونانية ثم أضافوا إليها البارود، واستطاعوا أن يصنعوا المدافع وأن يستعملوها فى محاربة النصارى .

هذه هى قصة النار اليونانية وقصة الدور الذى لعبته فى حروب العصور الوسطى . وقد رأيت أنها كانت عاملا بعيد الأثر فى حماية الدولة الرومانية الشرقية مدى قرون من هجمات أعدائها ، ولا سيما العرب . بيدانا لانستطيع أن نقول أن النار اليونانية قد أحدثت فى فنون الحرب ثورة كبيرة كتلك التى أحدثها اختراع الديناميت ، فالنار اليونانية على ما كانت تحدث من رائع التدمير واحراق المؤن والسفن لم تكن عظيمة الفتك بالصفوف والأرواح . ولم تقض على أساليب الدفاع والحماية التى كانت تستمدها الصفوف من الصلب والحديد ، ومن الدروع والمناطق والخوذات وغيرها ، هذا إلى أنها وجدت إلى جانب آلات أخر للحروب لا تقل عنها فتكا وروعة ، فقد لبث

المنجنيق العربى عصورا مديدة رعب المدن المحصورة، ولبثت سهام العرب ونبالهم زمنا فزع البيزنطيين وغيرهم من أمم النصرانية . أما الديناميت فهو أروع أداة للتدمير وحصد الأرواح، بل هو أروع وأشأم ما نكبت به الانسانية بأسرها .

٢ — النار اليونانية فى معارك دمياط

الحروب الصليبية فى معنى من المعانى صفحة من تاريخ مصر القومى ، وان كانت صفحة من تاريخ الاسلام العام ، فقد كانت مصر مسرح كثير من المعارك الصليبية، وكانت جيوش مصر أسبق الجيوش الاسلامية إلى رد الصليبيين، وكانت أشدها وطأة عليهم وإثخانا فيهم؛ وأشد الحملات الصليبية ارتباطا بتاريخ مصر هى الحملة السابعة، فقد قصدت إلى مصر مباشرة لتجعل منها ميدانا للحرب المقدسة، وغنما للكنيسة . وجاء لويس التاسع على رأس فرسانه وجنوده فالتقى فى أراضى دمياط بالجيوش المصرية، ولقى على يدها ما لقى من أسر ومحن .

وقد أفاضت التواريخ المصرية فى وصف هذه المعارك وأشارت مرارا الى قذف المصريين للنار على الصليبيين . ولكن لدينا عن تفاصيل هذه المعارك وذكر هذه النار وثيقة افرنجية هامة، هى مذكرات دى چوانڤيل المسماة تاريخ القديس لويس[(١)]، وهى مذكرات كتبها شاهد عيان اشترك فى كل المواقع والحوادث ، وكان يشغل فى الجيش منصبا رفيعا . ذلك هو الفارس چان دى چوانڤيل أحد أكابر بطانة لويس التاسع، وقد صحبه فى حملته على مصر، ثم غدا بعد وفاته من بطانة ولده لويس العاشر .

وقد كتب دى چوانڤيل مذكراته بأمر ملكة فرنسا، زوج لويس التاسع ،وكتبه لها خصيصا ليدون فيه كل ما خاضه الملك القديس من وقائع . ويفيض دى چوانڤيل فى ذكر المعارك التى استعر لظاها بين المصريين والصليبيين فى الأراضى المصرية ، ويورد كثيرا من التفاصيل والملاحظات الدقيقة التى قلما عنيت بها المصادر العربية .

---

(١) Jean, Sire de Joinville: Histoire de Saint-Louis (Trduction de Wailly - Paris 1874).

ومما يجعل لهذه التفاصيل والملاحظات قيمة خاصة هو أن الذى دونها جندى عليم بفنون الحرب ، وشاهد عيان خاض غمار الوقائع بنفسه من البداية الى النهاية .

ويحدثنا دى جوانفيل عن أهبة الجيوش المصرية ونظامها وأساليبها فى الحرب ، ثم عن تلك المقذوفات النارية التى عصفت بتحصينات الصليبيين وصفوفهم أيما عصف ، وكانت فى النهاية من أقوى أسباب هزيمتهم وارتدادهم ؛ ويصفها وصفا دقيقا شائقا ، ويصف ذعر مواطنيه من رؤيتها ، واضطرابهم واستغاثتهم ، ويسميها بالنار اليونانية . ولهذه التسمية أصل أو مغزى تاريخى إذ يلوح لنا أن هذه المقذوفات النارية التى استعملها المصريون يومئذ فى محاربة أعدائهم هى نفس النار اليونانية القديمة أو النار البيزنطية التى لبثت كما قدمنا قرونا أمضى سلاح فى يد الدولة الرومانية الشرقية ؛ ثم ظفر المسلمون بسرها ، فغدت سلاحا هائلا فى أيديهم ؛ وكانت عاملا كبيرا فى تمزيق الصليبيين واحباط كثير من حملاتهم .

جاءت الحملة الصليبية السابعة الى مصر أيام الملك الصالح بن الكامل (سنة ١٢٤٩ م — ٦٤٧ هـ) بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس ، وفى ركبها دى جوانفيل مع فرسانه وأتباعه ، وعسكرت بظاهر دمياط . وكتب لويس التاسع إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية أن يسلم اليه مصر مهدداً بوفرة جموعه . وكان الملك الصالح يومئذ مريضا فى القاهرة ؛ فكلف كاتبه بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر بكتابة الرد ، وفيه يتحدى الصليبيين وينذرهم بالانتقام . وكان الملك الصالح حذرا على قدم الأهبة ؛ غير أن حامية دمياط لم تثبت لقتال العدو ، وغادرت المدينة دون قتال ، فاستولى الصليبيون على دمياط وأقاموا أمامها الأبراج لحمايتها من المسلمين ، وزحفت الجيوش المصرية لقتال الفرنج وعسكرت فى موقع المنصورة ، واقتصرت بادئ بدء على ازعاج الفرنج وتمزيق سرياتهم الباحثة عن الأقوات والمؤن .

وكانت النار اليونانية أول مفاجأة هائلة رمى المصريون بها الصليبيين ، فإنه ما كاد الاضطراب الناشىء عن وفاة الملك الصالح ينتهى حتى تقدم المصريون

بجموعهم لقتال الفرنج . وكانت النار اليونانية فى يد المسلمين يومئذ أروع أداة للتدمير، وهنا ننقل عبارات دى جوانڤيل نفسه فى وصف ما آستولى على مواطنيه من الذعر والخوف لفعل هذه النار .

يقول المؤرّخ : «فى ذات ليلة ، بينما كنا نحرس الأبراج، حدث أن المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ووضعوا النار اليونانية فى قاذفة الآلة . فلما رأى ذلك سيدى والتر دوكيرى الفارس النبيل وكان إلى جانبى قال ما يأتى :

أيها السادة نحن فى خطر أعظم مما لقيناه الى اليوم لأنهم إن أضرموا النار فى أبراجنا و بقينا فيها فانا نهلك ونحرق، وإذا غادرنا الحصون التى أنشأناها للدفاع خسرنا الشرف . وإذن فلا منقذ لنا إلا الله ، ورأيى أنه كلما ألقيت علينا النار رمينا بأنفسنا على الأرض ودعونا الله منقذنا أن يحمينا من ذلك الخطر ، وهكذا حدث فانه لما ألقيت علينا أوّل دفعة من النار سجدنا ودعونا فوقعت النار فى البرج أمامنا وكان رجال المطافىء على أهبة لاخمادها .

«وصفة النار اليونانية أنها تثب مستقيمة كأنها اسطوانة كبيرة ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ، ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جدًا من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء، حتى أنك ترى كل ما فى المعسكر كما ترى فى ضوء النهار . وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القسى العريضة .

« وكان ملكنا القديس كلما سمعهم يقذفون النار اليونانية ينهض من فراشه ويبسط يديه إلى منقذنا و يقول باكيا : «أيها السيد الاله العظيم احفظ لى رجالى» والحق انى اعتقد أن هذه الدعوات قد نفعتنا وقت الشدة، وكلما سقطت علينا النار بالليل أرسل أحد أمنائه ليرى ماذا فعلنا، وماذا فعلت بنا النار .

«وحدث ذات مرة عند القاء النار أنها سقطت عند البرج الذى يحرسه رجال السيد دى كورتنى فعندئذ جاء فارس يدعى لو يجواز وقال لى : أيها السيد إذا لم تبادر

إلى اسعافنا حرقنا ، فان المسلمين قد أرسلوا علينا كثيرا من المقذوف ، حتى كانت النار تواجه برجنا كأنها سياج عريض ، فعندئذ هرولنا الى هنالك فوجدناه قال حقا فاطفأنا النار ، وما كدنا نتهى من ذلك حتى قذفنا المسلمون جميعا بوابل من النار فى اتجاه النهر .

«وكان اخوة الملك يحرسون الأبراج بالنهار فصعدوا الى رؤوس الأبراج ليقذفوا المسلمين بالنبال ، ذلك لأن الملك قرر أن يتولى ملك صقلية حراسة الأبراج بالنهار ونحرسها نحن بالليل . ففى ذات يوم حينما كان ملك صقلية يتولى الحراسة بالنهار كنا فى أشد الاضطراب لأن المسلمين كانوا قد حطموا أبراجنا تقريبا . وقد صف المسلمون القاذفات فى رابعة النهار فى حين أنهم لم يستعملوها حتى اليوم إلا ليلا ثم قذفوا النار اليونانية على أبراجنا وقد نصبوا القاذفات قريبا من القنطرة التى كان يبنيها العمال حتى أن أحدا لم يجرؤ أن يذهب إلى الأبراج بسبب الأحجار الكبيرة التى كانت تقذفها الآلات والتى كانت تنهمر على القنطرة فكان ان حرق البرجان ، وان غضب ملك صقلية وتولاه اليأس ، حتى كاد يلقى بنفسه فى النار ليحاول اطفاءها ولو كنا نحرس الأبراج بالليل لكنا والله قد حرقنا جميعا .

«فلما رأى الملك ذلك أرسل إلى جميع البارونات ورجا كلا منهم أن يحضر شيئا من الخشب من مراكبه للمعاونة فى بناء برج يساعد على قطع النهر ، فأحضر كل قدر ما يستطيع وانشىء البرج . كذلك قرر الملك ألا يدفع البرج إلى الأمام ليوضع على القنطرة إلا حينما يأتى دور ملك صقلية فى الحراسة حتى يستطيع بذلك أن يعوض عن خسارة الأبراج التى حرقت وقت حراسته . وهكذا وقع ، فلما جاء دور ملك صقلية فى الحراسة أمر بالبرج أن يسير على القنطرة إلى المكان الذى حرقت فيه الأبراج الأخرى .

«فلما رأى المسلمون ذلك نصبوا قاذفاتهم (حرّاقاتهم) الست عشرة بحيث تلقى مقذوفاتها جميعا على القنطرة حيث وضع البرج ، ولما رأوا أن رجالنا يخشون الذهاب

إلى البرج ارتياعا من الحجارة التى تتساقط على القنطرة ، أحضروا قاذفات اللهب وقذفوا النار اليونانية على البرج ، وأحرقوه بتاتا » .

ثم يصف دى جوانڤيل فى سياق المعارك التالية التجاء المسلمين إلى النار اليونانية فى فرص عدة فيقول إن نيرانهم كانت ذات مرة تجوس خلال المعسكر النصرانى كله حتى انها أصابت سرج الملك وانها كثيرا ما كانت تنهمر على الفرسان حتى يخيل الينا أن نجوم السماء تتساقط علينا .

وهكذا نرى أن تلك النار العجيبة التى لبثت مدى عصور طويلة اداة لحماية الدولة الشرقية والنصرانية من غزوات الاسلام ، قد غدت منذ القرن الحادى عشر فى يد المسلمين اداة لحماية الاسلام من عدوان النصرانية . وكان المسلمون فى المشرق أعنى فى مصر والشام أول من ظفر بسر النار اليونانية وأول من حذق استعمالها من المسلمين ، ولكن سرها ما لبث ان ذاع فى الدول الاسلامية الأخرى فى شمال افريقية والأندلس على نحو ما بينا .

الفصل التاسع

مذكرات دى چوانڤيل

عن الحملة الصليبية السابعة

— ١ —

أشرنا فيما تقدم إلى أن جان دى چوانڤيل مستشار الملك لويس التاسع ومترجمه، قد ترك لنا مذكرات لم يقتصر فيها على الإلمام بسيرة مليكه المترجم، ولكنه دوّن فيها أخبار المعارك الصليبية التى وقعت فى مصر أثناء الحرب الصليبية السابعة (سنة ١٢٤٩ م) وتناول فوق ذلك بعض شئون مصر فى هذا العهد فوصفها وصفا دقيقا . وقد أوردنا ما كتبه هذا الراوية عن استعمال الجيوش المصرية فى هذا العهد للنار اليونانية وما أصاب مواطنيه لروعتها وفتكها، من ذعر وهزيمة . ولما كانت مذكرات دى چوانڤيل هذه من أنفس وثائق الحروب الصليبية وكانت ذات قيمة خاصة بالنسبة لتاريخ مصر، فقد رأينا أن نفرد هذا الفصل للكلام عن المؤرخ نفسه وعن المذكرات التى خلفها .

ولد چوانڤيل ، أو السيد چوانڤيل، حوالى سنة ١٢٢٤ م ، وصحب مليكه القديس لويس على رأس أتباعه من الفرسان والجند فى الحملة الصليبية السابعة التى غادرت المياه الفرنسية فى ٢٨ أغسطس سنة ١٢٤٨ . وكانت هذه الحملة من أعظم الحملات الصليبية، وكانت فى الواقع فاتحة لفصل جديد من فصول هذه الحروب البربرية لأن المملكة اللاتينية التى أنشأها جودفروا دى بويون وسادته فى بيت المقدس لم يطل أجلها أكثر من ثمانين سنة ، ثم انهارت تحت ضربات صلاح الدين القوية ، وعادت الأراضى المقدسة الى قبضة الاسلام ، وارتد الصليبيون إلى قلاعهم فى الساحل . وكان الصليبيون قد رأوا منذ سقوط مملكتهم

فى بيت المقدس أن يحوّلوا ميدان الحرب إلى مصر ، ليحطموا تلك القوة التى أوقعت بحملاتهم وأفسدت تدابيرهم ، فنزلوا مصر لأول مرة أيام الملك الكامل واستولوا على دمياط (٦١٤ هـ — ١٢١٧ م) ولكنهم هزموا بعد ذلك واضطروا الى إخلائها ، ولبثت مصر آمنة مطمئنة نحو ثلث قرن حتى حشد لويس التاسع حملته الكبرى . فكان على هذه الحملة أن تعيد سيرة الحروب الصليبية من مبدئها ، وأن تفتح الأماكن المقدسة من جديد ؛ فقصدت مصر توا ، ونزلت فى ظاهر دمياط واستولت عليها ثانية ، ولكنها كسرت أيضا وردّت بعد معارك طاحنة . وكان ذلك أيام الملك الصالح . وحارب دى چوانڤيل الى جانب مليكه ، وشهد محنته وأسره ، ثم إطلاقه وعوده . وعاد الى فرنسا فى شهر يوليه سنة ١٢٥٤ أى لستة أعوام من سفره .

ويقول دى چوانڤيل إنه انتهى من كتابة مذكراته فى شهر أكتوبر سنة ١٣٠٩ أعنى وهو شيخ جاوز الخامسة والثمانين ، وبعد أن مضى أكثر من نصف قرن على الحوادث التى تناولها . وكان تدوينه لها إجابة لطلب چان دى ناڤار ملكة فرنسا ووالدة لويس العاشر . وهذا ما يذكره فى مستهل كتابه إذ يقول : « إلى سيده النبيل لويس (لويس العاشر فيما بعد) ولد ملك فرنسا (فيليب الجميل) وبحول الله ، ملك ناڤار وكونت شامبانيا وبرى ، يقدّم السيد دى چوانڤيل كبير حجابه ، التحية والمحبة والشرف ، والخدمة الصادقة ... مولاى العزيز — أحيطك علما بأن سيدتنا الملكة ، والدتك ، التى أغدقت حبها على — أسكنها الله فسيح عفوه — قد شدّدت على الرجاء أن أكتب لها كتابا يحتوى على كلمات مليكنا القديس لويس المقدّسة وأعماله الطيبة ، فأذعنت للرجاء ، وقد تم الكتاب بحول الله » .

وقد خصص الراوية أول القسمين لسيرة القديس لويس الشخصية وعاداته ، وأحواله ، ومناقبه . وفى هذا القسم يصوّر دى چوانڤيل مليكه وقائده لويس التاسع ملكا ورعا ، يفيض قلبه إيمانا وحنانا ورقة ، ويرى فيه مثلا أعلى لرجولة النصرانية ،

ويعرب عن محبته و إجلاله لهذا الصديق الذى خاض الى جانبه جسام الحوادث، وشاء القدر أن يموت قبله بأعوام طويلة، ثم يرتد ببصره الى الماضى البعيد فيذكر أيام الصبا الحافلة، ويستعيد شبح القديس لويس وهو ملتحف بدرعه، غارق فى عدته وأسلحته، يركض بين الصفوف هنا وهنالك ليشحذ من عزائم فرسانه، ويكبر شجاعته و إقدامه، وصبره على المحن والنوائب، وجلده أوقات الشدة، ويعدد خلاله من محبة لجنده، ورفق بهم، الى رعاية للعهود، وصلابة فى الحق. على أن المؤرخ لم يحمل باجلاله ومحبته الى الإغضاء المطلق عن كل تجريح ونقد، فهو ينقد حيث يرى موضعا لذلك، ويعرض رأيه وحكمه الخاص، فتراه مثلا يأخذ على الملك القديس قبوله لفرسين نادرين أهداهما اليه قسيس تمهيدا لحديث بينهما عن مسائل معينة، ولا يتردد فى سؤال الملك عما اذا كانت هذه الهدية قد حملته على التساهل مع القسيس. وتراه يذهب فى تقريع الملك الى أبعد من هذا الحد فيعرب عن دهشته وكدره لجمود الملك إزاء زوجه وأولاده، فيقول مثلا ان الملكة سافرت بحرا من يافا لموافاة الملك فى « مسيات »، فذهب، أى دى چوانڤيل، لمقابلتها عند وصولها، وصحبها الى قصر الملك، ثم نبأ الملك بوصولها وكان وقتئذ فى مصلاه، وكان يعلم أين ذهب دى چوانڤيل ولم يستقبله، وقد تعمد أن يطيل الوعظ حتى عودته، وكان كل ما فعله أن سأله عن صحة زوجه وأولاده. وهنا يقول دى چوانڤيل « وأنا أقص عليك هذه الأمور لأنى كنت قد أنفقت فى صحبته خمسة أعوام لم يخاطبنى خلالها قط بكلمة عن الملكة أو عن أولاده، ولم يخاطب فى ذلك أحدا قط على ما أعلم. ويلوح لى من ذلك أنه ليس من حسن الخلال أن يكون المرء غريبا الى هذا الحد عن زوجه وأولاده » ويحق للمؤرخ أن يسوق هذا اللوم الى مليكه، فقد كانت مرجريت ده پروڤانس زوج الملك القديس مثالا بديعا للمرأة أو للملكة، بل كانت تميز بلون من ألوان البطولة اذا صدقنا مايرويه المؤرخ عنها، فهى قد صحبت زوجها فى حملته الى ميدان الوغى والى بلاد الغربة، وتحملت متاعب السفر التى كانت هائلة فى ذلك العصر، وصبرت على ضروب الحرمان والتقشف التى فرضتها

الحوادث . فلما نكب زوجها وسقط مع معظم سادته أسيرا فى يد العدو ، وكانت يومئذ محصورة فى دمياط تقاسى آلام الوضع الأخيرة، استدعت إلى حجرتها فارسا شيخا وطلبت إليه أن يعاهدها أن يقطع رأسها فى الحال اذا سقطت المدينة المحصورة فى قبضة المسلمين، فأقسم لها أن يفعل . ثم لم يمض على وضعها يوم واحد حتى استدعت الفرسان حول فراشها — وكانت إشاعة التسليم قد سرت الى الحامية — فالتمست الى تشجيعهم شفاعة من ضعف ولدها الطفل ومن أنوثتها . وأمثال هذه المناظر قليلة فى التاريخ، بيد أننا نفسر موقف لويس التاسع ازاء هذه الملكة الباسلة بأنه حذر من أن يتأثر فى أعماله السياسية والحربيه بنفوذ زوجه . وذلك لأن مرجريت ده پروفانس كانت قوية الارادة ذات أطماع ونفوذ .

ولا يقف دى چوانڤيل عند هذا الحد من الملاحظة والنقد ، فهو يأبى أن يقر تصرفات مليكه فى بعض المواطن — وقد كان له مشيرا وناصحا — فنراه مثلا يقف موقف المعارض حينما اعتزم لويس التاسع أن يجرد حملته الصليبية الثانية فى سنة ١٢٧٠م أعنى لخمسة عشر عاما من عودته الى فرنسا وقد كان يومئذ كهلا هدمه الاعياء والمرض . ونراه فوق ذلك يحاول أن يرد الملك عن عزمه ، ويبين له اخطاء هذه السياسة وما قد تجر عليه وعلى فرنسا من الويل والمصائب ويقول : «لقد اعتقدت أن أولئك الذين نصحوا اليه بهذه الحملة قد ارتكبوا خطيئة كبرى» ثم يحمد الله على أنه لم يصحبه اليها . وقد أيدت الحوادث نبوءة دى چوانڤيل، إذ انحرف لويس التاسع عن خطته الأصلية ، ونزل على ساحل تونس وكان هنالك مصرعه ومصرع سواد جيشه .

ولسنا نعنى بهذا القسم الذى يفرده دى چوانڤيل لشخص مليكه القديس ومناقبه قدر مانعنى بالقسم الثانى وهو الذى يأتى فيه المؤرخ على الحوادث والمعارك التى اقترنت بحملة لويس التاسع على مصر والأراضى المقدسة، ففى هذا القسم يعرض دى چوانڤيل لصفحة تكاد تكون قطعة من تاريخ مصر، ويسرد بتفصيل وإسهاب كل ما شهد من الحوادث مذ هبط الصليبيون أرض مصر، وحاصروا دمياط حتى جلوا عنها

وعن أرض مصر بعد هزيمتهم . ولرواية دى جوانڤيل فى هذا القسم قيمة خاصة، فهو لم يكن فقط شاهد عيان لكل ما رأى ودون من الحوادث ، ولكنه قام بدور فعلى فى هذه الحوادث كلها، فخاض غمار المعارك التى نشبت حول دمياط وفى أراضى المنصورة من أولها الى آخرها ، وكان رغم حداثته يشغل منصبا رفيعا فى الجيش إذ كان من سادته وفرسانه ، ثم ان اتصاله فى كل لحظة بمليكه الذى كان يسأله الرأى فى كثير من الأمور الهامة يجعل لروايتـه صبغة شبه رسمية ، على الأقل فيما يتعلق بالجانب الفرنسى من الحوادث التى تناولها . ويتناول دى جوانڤيل هذه الحوادث بوضوح ودقة وقوة ملاحظة تدعو الى الاعجاب . ولنا أن نعجب بصفة خاصـة بما كتبه عن انقلابات مصر السياسية فى هذا الحين؛ فهو يسردها بدقة، رغم كونها وقعت فى بلد محارب وبين صـفوف الأعداء ، فيروى أولا ما حدث عقب وفاة الملك الصالح ، حينما هبط الصليبيون أرض مصر . وقد كان الملك الصالح مريضا فى القاهرة ، فلم يلبث أن توفى بعـد استيلاء الفرنج على دمياط بقليـل . يقول دى جوانڤيل : «وكان للسلطان — ويسميه «السادان» — ولد فى الخامسة والعشرين من عمره، عاقل، حازم، ذو دهاء، وكان السلطان المتوفى يخشى أن ينزعه ابنه الملك، فأقطعه مملكة له فى الشرق (سوريا)، فلما توفى السلطان أرسل الأمراء الى الابن، فجاء سريعا الى مصر، وعزل حاجب أبيه، وكبير حرسه وقائده، وعين مكانهم رجالا ممن أتوا معه من المشرق ، فلما رأى هؤلاء ذلك نقموا منه غاية النقمة، كما نقم منه وزراء أبيه، وشعروا أن خزيا كبيرا لحق بهم، ففاوضوا رجال «الحلقة» أو حرس السلطان، واتفق هؤلاء أن يقتـلوا السلطان إجابة لطلبهم» ويسوق دى جوانڤيل تتمة هذا الحديث فى مكان آخر فيقول : «اجتمع الأمراء الذين عزلهم السلطان من مجلسه ليعين غيرهم من أمرائه الذين جاءوا من الخارج، وتباحثوا، وطلبوا إلى زعماء الحلقة أن يقتلوا السلطان عقب تناولهم الطعام معه، وكان قد دعاهم إلى ذلك. فحدث أنه لمـا فرغ الأمراء من تناول الطعام،واستأذن السلطان فى الانصراف، ان فارسا من رجال الحلقـة ضرب السلطان بالسيف فأصابه فى راحته بين أصابعه وشق يده

حتى الذراع . فالتفت السلطان إلى الأمراء الذين دبروا الاعتداء وقال : «أيها السادة أشكو اليكم هؤلاء الحلقة الذين يريدون قتلى كما ترون» فأجاب الحلقة : « مادمت تقول أننا نرغب فى قتلك ، فخير لنا أن نقتلك مما لو قتلتنا أنت ! » . ثم قرعت الطبول ، فهرع الجيش كله ليرى ماذا يريد السلطان . فأجابوهم أن دمياط قد سقطت (وكان السلطان يعسكر يومئذ بظاهر دمياط)، وان السلطان ذاهب اليها وقد أمرهم أن يتبعوه، فتقلد الجند أسلحتهم وساروا فى اتجاه دمياط فلما رأينا نحن ذلك فزعت قلوبنا (وكان المؤرخ أسيرا وقتئذ مع الملك ونفر من سادة الفرنج وفرسانهم) واعتقدنا أن دمياط قد ضاعت . أما السلطان، فكان فتى، وكان خفيف الحركة ففر الى البرج المقام وراء مضربه مع ثلاثة من شيوخه كانوا الى جانبه واحتمى معهم بالبرج . أما الحلقة وعددهم نحو خمسمائة فارس فنزعوا مضارب السلطان واحتشدوا حول البرج وحاصروه ومن معه، وصاحوا عليه بالنزول، فأجابهم أنه يفعل اذا وعدوه الأمان ، فألقوا عليه النار اليونانية ، فعلقت بالبرج، فشبت النار فيه بسرعة . فلما رأى السلطان ذلك نزل من البرج برشاقة، وركض تجاه النهر، فلقيه أحد الحلقة فطعنه بحربته فى ضلوعه ، ولكنه استمر يركض تجاه النهر ودماؤه تقطر، فتبعوه فى الماء وعاموا وراءه حتى ظفروا به وقتلوه بالقرب من السفينة التى كنا فيها . ومزقه فارس يدعى فارس الدين أقطاى بسيفه واستخرج قلبه من جثته وجاء الى الملك (لويس التاسع) والدماء تقطر من يده وقال له : ماذا تعطينى؟ فقد قتلت عدوك الذى لو عاش لذبحك؟ — فلم يجبه الملك ببنت شفة» .

ويشير دى جوانفيل فى الفقرة الأولى الى تولية الملك المعظم غياث الدين ولد الملك الصالح وكانت توليته بمسعى أمه شجرة الدر . وكان الأمراء قد كتموا موت الملك الصالح وأرسلوا فى استدعائه من سوريا على عجل. ويشير فى الفقرة الثانية الى ما فعله الملك المعظم من عزل الأمراء والحكام المصريين واستبدالهم بنفر ممن جاءوا معه ، وائتمار المماليك به ، وعلى رأسهم بيبرس الذى تولى ملك مصر بعد، وقتلهم إياه فى النهر كما تقدم، وانقراض دولة بنى أيوب بذلك، وقيام دولة المماليك الأولى.

وترى مثـل هـذه الدقة ظاهرا فى كل ما يسرده دى چوانڤيل من حوادث الحرب أو السياسة سـواء فى المعسكر الفرنجى أو المعسكر الاسـلامى . وتعليل ذلك واضح وهو أن مركز دى چوانڤيل فى الجيش واتصاله بالملك لويس التاسع كانا يسهلان عليـه الاطلاع على التقارير التى يضعها الجواسيس الفرنج عن أحوال المسلمين وأخبارهم . ثم إن دى چوانڤيل كان شاهد عيان لمقتل السلطان المعظم كما رأيت ، وكان معه من مواطنيه الأسرى من يفهم العربية .

هذا، وللمؤرخ مواقف أخرى تستوقف النظر مثل وصفه الدقيق للنار اليونانية وبراعة المسلمين فى استعمالها، ووصفه أحوال البـدو، والحلقة أو حرس السلطان، ونظام الحكم والإمارة فى مصر، وذكره سفارة شيخ الاسماعيلية فى بانياس الى لويس التاسع وهو فى مصر وسفارة لويس اليه. وهو فى كل ذلك عميق البحث والاستقصاء، دقيق الملاحظـة والمنطق ، هادىء الرواية والأسـلوب . ومن ثم كانت مذكراته أقرب إلى التاريخ الصحيح منها إلى « الرواية » وكانت وثيقة قيمة فى تاريخ الحملة الصليبية التى قادها القديس لويس إلى مصر، وفى تاريخ مصر ذاته فى هذا العهد[1] .

٢ — محنة القديس لويس فى مصر

ومن الحوادث الفريدة فى تاريخ الحروب الصليبية أسر لويس التاسع أو القدّيس لويس ملك فرنسـا فى مصر . وهو من الحوادث الفـريدة أيضا فى جميع أدوار المعركة الكبرى التى استعر لظاها قرونا بين الاسلام والنصرانية، من المشرق إلى أسبانيا . وقد يقدّم الينا تاريخ الأندلس فى أكثر من فرصة قصة أمير نصرانى يقع فى أسر المسـلمين ، أو أمير مسلم يقع فى أسر النصارى ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا من الأمراء المحليين؛ كذلك لعل معركة الاسلام والنصرانية لم تشهد منذ بلاط الشهداء، ومنذ الزلاقة ، موقعة أعظم فى حوادثها وآثارها من تلك التى هلكت فيها

(١) راجع مذكرات دى چوانڤيل (Histoire de Saint Louis) التى سبق ذكرها . والترجمة الانكليزية لهـذه المذكرات (Memoirs of the crausades) ومقدّمة هذه الترجمة بقلم (Sir F. Marzials)

زهرة الجيش الفرنسى فى سهول مصر، وأسر فيها الملك القديس .

وهى الحملة الصليبية التى وصلت الى مصر سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) فى عهد الملك الصالح كما تقدم . وهى أحق هذه الحملات الشائنة بأن توصف بالصليبية، فان لويس التاسع لم يفد بجيوشه على المشرق غازيا ليبحث وراء السلطان ومغانم الظفر ولم تحفزه أطماع هذه الدنيا، كما حملت قبله أمراء النصرانية وفرسانها، فهرعوا الى الى المشرق وثغوره الغنية ليملأوا أيديهم من الأموال والسبى، وليستقروا ملوكا فى مروجه اليانعة، ولكنه قدم الى المشرق مغامرا بنفسه وجيوشه، فى سبيل الدين قبل كل شىء، وليعمل على إعلاء كلمة النصرانية، وانقاذ الأراضى المقدسة . ولم يكن فوق ذلك آلة تحركها الكنيسة كأسلافه من الأمراء الصليبيين ولكنه كان يسترشد وحى نفسه، وتسيره عواطفه المضطرمة شغفا بالدين وقضيته، وان لم يكن فى سياسته سوى معبر عن مقاصد الكنيسة، منفذ لمشاريعها .

كان لويس التاسع يمثل فى سياسته وأعماله روح العصر الذى كانت فيه المعارك تضطرم من كل صوب بين النصرانية وأعدائها . وكانت المعارك الصليبية لا تنفك ناشبة بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا، كما كانت تنشب بين النصرانية والخارجين عليها مثل الألبيين والكاتاريين، وغيرهم من فرق الملاحدة .

جاء لويس التاسع على رأس فرسانه وجنوده فى جيش ضخم، إلى مياه مصر ونزل بظاهر دمياط كما قدمنا، وكتب إلى ملك مصر باسم الأمم النصرانية أن يسلم إليه مصر مهددا منذرا، فردّ عليه ملك مصر وعيده وتحديه . وكانت شئون مصر يومئذ مما يشجع العدو المغير، فقد توفى الملك الصالح بعد قدوم الصليبيين بقليل، واشتغل رجال القصر حينا بوحى شجرة الدر باستقدام ولدها توران شاه (الملك المعظم) من الشام ليتولى الملك . وفى أثناء ذلك سار الصليبيون من دمياط صوب الجنوب نهرا، وبرا، واشتبكوا مع المسلمين فى المنصورة فى مواقع شديدة كانت الدائرة فيها على النصارى . وكان الملك الجديد قد وصل بجموعه من الشام فاشتد ساعد المسلمين . وهنا ألفى لويس التاسع جيشه فى مازق، فان الوهن والمرض والجوع

أخذت تفعل فيه فعلها . فتشاور أمراء الفرنج فيما بينهم ، وقرروا مفاوضة المسلمين فى الانسحاب من دمياط على أن تترك لهم بيت المقدس . فرضى المسلمون ، ولكنهم اشترطوا أن يسلم إليهم ملك النصارى نفسه رهينة حتى يتم الجلاء ، فأبى الفرنج وعرضوا أن يسلموا أخا للملك فقط ، وأصر كل فريق على رأيه ، وانقطعت المفاوضات بذلك ، وكان النصارى فى الواقع فى مأزق شديد الحرج ولم يخف على المسلمين أن ساعة النصر قد أزفت .

ولما رأى لويس التاسع أن فرسانه وجنده يتساقطون من حوله تباعا ، قرر الارتداد شمالا الى دمياط ، وحدد لذلك مساء يوم الثلاثاء ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ (٢ محرم ٦٤٨ هـ) ولكن المسلمين كانوا على قدم الأهبة ، وكانت سفنهم وسراياهم قد تقدمت شمالا فى النهر ، وحول ضفافه ، واحتاطت بمعسكر الفرنج من جهات عدة ولذا ما كاد الفرنج يرتدون بسفنهم وجموعهم قليلا نحو الشمال الشرقى ، حتى لحق المسلمون بهم وكانت الواقعة المشهورة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، وقتل منهم آلاف عدة ، وأسر ملكهم لويس التاسع أو رى افرنس أو روادفرانس[١] كما تسميه الرواية العربية[٢] .

وقد دوّن ده چوانڤيل مؤرخ لويس التاسع ، كما قدمنا هذه الحوادث العظام التى شهدها واشترك فيها بدقة وإسهاب ، وعنى بالأخص بأن يفصل كيف سقط مليكه القديس أسيرا فى يد المسلمين ، وهو ما قصه عليه لويس التاسع نفسه كما يشير الى ذلك فى سياق حديثه .

يقول المؤرخ : « لقد قص الملك علىّ كيف غادر فرقته الخاصة ، وانتظم الى جانب سيدى چوفرى دى سارچين ، فى الفرقة التى يقودها سيدى جوشيه ده شاتيون قائد المؤخرة .

---

(١) ظاهر أنها الفرنسية القديمة « روى دى فرانس » Roy de France أو ملك فرنسا .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الوقائع — خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ وما بعدها — النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٦٤٧ وما بعدها — ابن اياس ج ١ ص ٨٤ — ٨٥

« ثم قص الملك علي أنه كان يمتطى مهرا صغيرا يكسوه الديباج ، ونبأنى بأنه لم يكن يسير الى جانبه فى الوراء من بين جميع فرسانه سوى سيدى جوفرى دى سارجين ، فسار به الى قرية صغيرة ، وهى التى أسر فيها . ونبأنى الملك أن السيد جوفرى دافع عنه أمام المسلمين دفاعا باسلا ، وكلما اقتربوا منه رفع سيفه ، وكر عليهم ، وردهم عند الملك .

«وهكذا وصل الملك إلى القرية الصغيرة ، فحمل إلى منزل ، وهو فى شدة من المرض كأنه رجل ميت ، وهنالك وافاه السيد فيليب ده مونفور ، وقال له إنه رأى الأمير المسلم الذى فاوضه فى شروط الهدنة ، فاذا شاء عاد إليه ليستأنف المفاوضات فى عقدها طبقا للشروط التى يريدها المسلمون ، فرجاه الملك أن يفعل فأجابه انه على تمام الأهبة ، وذهب السيد ده مونفور إلى الأمير فرفع الأمير عمامته ، وخلع خاتمه من اصبعه اشارة بأنه سوف ينفذ شروط الهدنة باخلاص .

«وفى أثناء ذلك وقع خطب عظيم لرجالنا . فان ضابطا خائنا يدعى مارسل أخذ يصيح برجالنا : «سلموا أيها السادة الفرسان ، فان الملك يأمركم بذلك ، ولا تمتنعوا فيقتل الملك ! » فظن الجميع أن الملك يأمر بذلك حقا ، فسلموا سيوفهم إلى المسلمين . ولما رأى الأمير أن المسلمين يأتون برجالنا أسرى ، قال للسيد ده مونفور : إنه لا يرى محلا لعقد الهدنة لأن جميع فرساننا قد غدوا أسرى .

« وهكذا حدث أن السيد فيليب ده مونفور بقى حرا طليقا بينما أسر كل زملائه لأنه كان سفير الملك . ولكن توجد ثمة عادة سيئة فى تلك البلاد ، وهى أنه اذا أرسل الملك رسلا الى السلطان ، أو السلطان رسلا الى الملك ، ومات الملك أو السلطان قبل أن يعود الرسل إلى مقرهم ، فانهم يغدون عبيدا أو أسرى سواء كانوا مسلمين أو نصارى» .

وكانت القرية التى فر اليها لويس التاسع وسادته قبل أن يقعوا فى الأسر ، تعرف بمنية أبى عبدالله . ونحن نعرف من الرواية العربية أن لويس التاسع أخذ بعد ذلك

الى المنصورة، وسجن فى الدار المعروفة بدار فخر الدين بن لقمان ، ووكل به الخادم صبيح المعظمى، ثم أخذ بعد الى معسكر المسلمين . وكان حرس السلطان توران شاه قد ائتمروا به أثناء ذلك ، ثم قتلوه على مقربة من المكان الذى اعتقل فيه ملك الفرنج وسادته[1] . ويروى دى چوانفيل كما قدمنا أن أحد زعماء الحرس السلطانى وهو فارس يدعى فارس الدين أقطاى، استخرج قلب السلطان من جثته، وحمله الى الملك لويس التاسع والدماء تقطر من يده، وقال له : « ماذا تهبنى؟ لقد قتلت عدوك، ولو عاش لذبحك» وأن لويس التاسع لم يجبه بشىء . ويروى فوق ذلك ، أن زعماء المسلمين أوفدوا الى الملك الأسير يعرضون عليه عرش مصر ! وأن لويس التاسع أفضى الى المؤرخ، أنه ما كان يأبى هذه المنحة لولا محنته . وهو ما نعتبره نحن أسطورة فقط . أما الذى لا ريب فيه فهو أن الملك القديس لبث فى أسره، حتى أذعن لكل شروط المسلمين، وأهمها الجلاء عن كافة الأراضى المصرية، ودفع فدية كبيرة؛ ولم يطلق سراحه إلا فى منتصف مايو سنة ١٢٥٠ بعد أن حملت الفدية واستعاد المسلمون دمياط أى بعد زهاء ستة أسابيع من الأسر، ثم ركب البحر بفلوله الى عكا . ولجمال الدين بن مطروح الشاعر الكبير ونائب دمشق ، فى تلك الموقعة أنشودة خالدة يقول فيها :

قل للفرنسيس[2] اذا جئته	مقال صدق عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم	ضاق به ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح

(١) الخطط ج ١ ص ٢٢٢ و ٢٢٣

(٢) يقصد القديس لويس ذاته .

إن كان باباكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

وتبالغ الرواية المسلمة فى تقدير خسائر الفرنج فى تلك الموقعة ، فيقدرها بعضهم بثلاثين ألفا ويقدرها الشاعر كما ترى بخمسين ألفا . ومن المحقق أن خسائر الفرنج كانت فادحة سواء أثناء الموقعة أو قبلها مما أصابهم من ويلات الجوع والمرض ، ولكن لا ريب أيضا فى أن الرواية المسلمة حين يتعلق الأمر بهزيمة النصارى ، وكذا الرواية النصرانية حين يتعلق الأمر بهزيمة المسلمين تحاول كل منهما دائما ، فى أمثال هذه الوقائع الحاسمة بين الاسلام والنصرانية ، أن تسبغ على الوقائع والنتائج لونا عميقا من الخطورة والظفر الخارق .

بحوث مفردة

- ٢ -

الفصل العاشر

الدپلوماسية فى الاسلام

— ١ —

تعرف الوسائل والأساليب التى تجرى عليها دولة من الدول فى تنظيم شئونها وعلائقها الخارجية مع الدول الأخرى فى الاصطلاح الحديث بالدپلوماسية أو رسوم السياسة الخارجية وإجراءاتها . وبهذا المعنى نريد أن نفهم الدپلوماسية فى هذا الفصل حيث نعنى بالكلام على بعض نواحى الدپلوماسية الإسلامية وأطوارها ، وحوادثها الشهيرة ، أو نتحدث بعبارة أخرى عن الوسائل والأساليب السياسية التى كانت تجرى عليها الدول الاسلامية المختلفة فى تنظيم علائقها مع الدول النصرانية أو فيما بينها .

ولا ريب أن الدپلوماسية لم تنمو وتزدهر فى عصر الاسلام الأول ؛ فقد كان عصر الفتح والإنشاء ، ولم تسنح فرص كثيرة لكى تنشأ بين الإسلام والنصرانية علائق سياسية منظمة إلا ما كان يعقب فتح قطر من التعاهد وعقد الصلح كما حدث فى الشأم ومصر أيام عمر . بيد أن هذه العلائق الأولى بين الاسلام والنصرانية كانت محدودة المدى ، موجزة فى اجراءاتها وتفاصيلها . وكان أعظم الحوادث الدپلوماسية فى هذا العصر ، كتب النبى العربى (صلعم) الى ملوك العصر وأمرائه ، يدعوهم فيها الى الاسلام والإيمان برسالته . ففى أواخر السنة السادسة من الهجرة (٦٢٧ م) بعث النبى بكتبه وسفرائه الى هرقل قيصر الدولة الرومانية الشرقية ؛ وكسرى ملك فارس ؛ وحاكم مصر الرومانى (المعروف خطأ بالمقوقس)[١] ، والى ملك

---

(١) يصف مؤرخو العرب (المقوقس) هذا بأنه عظيم القبط فى مصر . ولكن البحث الحديث يلق ضياء جديدا على شخصيته ، ويرجح أنه هو كيروس Cyrus حاكم مصر الرومانى وقت الفتح العربى — راجع فى ذلك فتح العرب لمصر لبتلر (الترجمة العربية) ص ٤٤٤ وما بعدها — ولاين پول Egypt in the Middle Ages. P. 5-7.

غسان النصرانى عامل قيصر على الشام، والى أمراء اليمن وعمان والبحرين، والى ملك الحبشة . وصيغت هذه الكتب فى عبارات متماثلة، وفيها جميعا يدعو النبى ملوك عصره الى الاسلام ويحذرهم عواقب المخالفة . وبعث النبى كتابه الى هرقل على يد وفد من الصحابة على رأسه دحية الكلبى . واليك نص هذه الرسالة الشهيرة على ما رواه البخارى فى صحيحه : "من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ؛ سلام على من اتبع الهدى — أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام، إسلم تسلم ؛ واسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين . ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون[١]" .

وتختلف الرواية فيما أجاب به الملوك والأمراء على رسالة النبى . فيروى أن هرقل استقبل الرسل بحفاوة وصرفهم بأدب[٢]؛ وكذا حاكم مصر فانه ردّ السفير بكتاب وهدية الى النبى[٣]؛ وردّ ملك الحبشة بجواب ودّى ؛ وأجاب أمير البحرين باعتناق الاسلام . أما كسرى فقد أهان الرسل وطردهم ومزق كتاب النبى . ونحن نعرف ما تلا ذلك من فتح الشام وفارس ومصر فى خلافة عمر . وهذا نوع طريف مستحدث من الدبلوماسية ؛ بيد أنه يتفق مع روح العصر الذى اتبع فيه ومع الظروف التى اقترنت به ؛ فالاسلام المضطرم الناهض كان يرى من حقه أن يفرض دعوته على البشر كافة بعد أن غمرت هذه الدعوة جزيرة العرب مهبط وحيه ومبعث رسالته ؛ ولم تكن أمامه ثمة سبيل لإحداث هذه الثورة سوى التحدّى والمغامرة ،

(١) يقول ابن عبد الحكم إن هذه الرسالة هى التى وجهت الى "المقوقس" . ولكن معظم الروايات على أنها وجهت الى هرقل ، بيد أنه لايمنع أن يكون نص الرسالتين واحدا . (راجع أخبار مصر وفتوحها ص ٤٦ — وراجع صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٦ وما بعدها حيث يورد نص كتاب النبى الى كسرى ، والى باقى الأمراء) .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارات أيضا — بتلر — فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) ص ١٢٣ وما بعدها . وكذلك Muir : Life of Mahomet IV, 49-59 .

(٣) ابن عبد الحكم — ص ٤٧

ومن كان يتحدى سوى الدولة الفارسية التى ترد سيله من الشرق، والدولة الرومانية التى ترد سيله من الشمال والغرب ؟

ولم يكن للدولة الأموية نصيب كبير فى تنظيم العلائق الدبلوماسية لأنها أنفقت أعوامها التسعين فى غزوات وحروب مستمرة . وكان أشهر الحوادث الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية يومئذ، عقد الصلح بين معاوية وامبراطور الدولة الشرقية على أثر فشل العرب فى حصار قسطنطينية الأول (سنة ٥٨ هـ — ٦٨٧ م) . وكانت علائق الدولتين الأموية والبيزنطية من بعد ذلك موضع البحث بينهما، وكانت ثمة سفارات قليلة بينهما من آن لآخر. وكانت العلائق بين الدولتين العباسية والبيزنطية تنتظم حينا وتضطرب أحيانا ؛ وكانت بينهما معاهدات واتفاقات سياسية لا تحصى ، وسفارات ومفاوضات دبلوماسية فى كثير من المناسبات والظروف . وكان من الطبيعى أن تكون مثل هذه المعاهدات والعلائق السياسية المستمرة بين دولة الاسلام الكبرى وزعيمته ، وجارتها المباشرة زعيمة النصرانية فى الشرق . بيد أن الخلافة العباسية اذا صحت الرواية الفرنجية، كانت تحاول التقرب والاتصال بمملكة الفرنج زعيمة النصرانية فى أقصى الغرب ، وكانت ثمة مكاتبات وسفارات بين الرشيد وشارلمان أمبراطور الفرنج . ولعل فى حوادث الأندلس وقتئذ ما يفسر مصانعة الخليفة العباسى وهو فى أقصى المشرق لملك الفرنج فى أقصى المغرب . فإن عبد الرحمن الداخل الأموى كان قد غلب على الأندلس، وانتزعها من الخلافة وأقام بها دولة قوية وطيدة الدعائم؛ وكان بنو العباس يشهدون قيام هذه الدولة الأموية الجديدة بعين الخوف والجزع . وكان شارلمان من جهة أخرى يخشى عاقبة انتشار الدعوة الاسلامية واشتداد ساعدها فى جنوب البرنيه ، وكان عليه أن يخمد دعوة الاسلام تأييدا لهيبة الكنيسة، وأن يسحق الأندلس الناهضة اتقاء لخطر اقتحامها البرنيه وتدفق جيوشها الى ولايات فرنسا الجنوبية كما حدث مرارا من قبل . ولسنا ندرى، إن صحت علاقة الرشيد هذه بشارلمان، هل كان لبنى العباس دخل فى صوغ سياسة شارلمان نحو الأندلس، ولكن الذى نعرفه هو أن شارلمان حاول

أن يغزو اسبانيا المسلمة ولكنه فشل فى محاولته ، ونكب جيشه فى مفاوز البرنيه فى رونشڤال (باب الشزرى) سنة ٧٧٨ م ، وأن عقد الصلح بعد ذلك بينه و بين عبد الرحمن الداخل الأموى لم يمنع استمراره فى الكيد لاسبانيا المسلمة وبث الاضطراب فيها .

هذا الدور الذى يظهر أن الرشيد حاول أن يقوم به لسحق الدولة الأموية فى الأندلس لدى ملك الفرنج ، قد قام بمثله تيوفيلوس امبراطور الدولة البيزنطية لدى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ؛ فقد كان من عيث المأمون والمعتصم وقتئذ فى الأراضى البيزنطية أن أوفد الامبراطور سفراءه فى سنة ٨٣٦ م (٢٢٥ هـ) الى عبد الرحمن بن الحكم بهدية نفيسة ، ورسالة يدعوه فيها الى التحالف و يرغبه فى ملك أجداده بالمشرق حقدا منه على المأمون والمعتصم اللذين يعبر عنهما فى كتابه بجوبتر ومارز[1] ، فردّ عليه عبد الرحمن بهدية نخمة ، و بعث اليه سفيره يحيى بن الغزال وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . ولم يغفل الامبراطور قبل ذلك أن يحاول مهادنة الخليفة العباسى بالمفاوضة ، فقد أرسل عقب وفاة المأمون الى أخيه وخلفه المعتصم سفيره يوحنا النحوى ليحاول عقد السلام بينهما فلم يفلح . على أن علاقة الامبراطور بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة أيضا ، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التى رسمها من الامتناع بالجزيرة ، والاقتصار على توطيد ملك بنى أمية فيها حتى عمد الناصر الى تغيير هذه السياسة والتدخل فى شؤون المغرب لظروف وحوادث جديدة وقعت فى عصره .

***

وقد كان للدبلوماسية الاسلامية فى اسبانيا المسلمة شأن كبير ، وذلك لموقعها سواء من البر أو البحر على أبواب أوربا النصرانية ، ولانتظام علائقها التجارية والسياسية مع معظم الدول النصرانية . وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغت العلائق

(١) جوبتر سيد الآلهة عند اليونانيين والرومانيين ؛ ومارز هو آله الحرب عند الرومانيين وولد جوبتر .

الدبلوماسية ذروة ازدهارها بين الاسلام والدول النصرانية الكبرى ، وتوالت وفودها وسفاراتها على الأندلس . ففى صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية المعروف بيورفير وجنتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود ، وقدموا اليه كتاب الامبراطور مكتوبا باللغة اليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبى على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الامبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع ، وفى ترجمة عنوانه ما يأتى :
« من قسطنطين ورومانين (رومانوس الثانى بن قسطنطين) المؤمنين بالمسيح ، الملكين العظيمين ، ملكى الروم ، الى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه » . وقد هال رسل الامبراطور يومئذ ما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ، وخطب أعلام الاسلام فى هذا الاجتماع المشهود ومنهم القاضى الأديب منذر بن سعيد البلوطى ، فارتجل خطابا نفيسا أتى فيه على أعمال الناصر ، ثم ارتجل من بعده شعرا يقول فيه :

ترى الناس أفواجا يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالما أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... الى درب قسطنطين أو أرض بابل

ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف ، فرجع بعد سنتين وقد أحكم الصلة بين الأميرين . ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على عبد الرحمن الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بطرس بن سيميون (ملك بلغاريا) ورسل امبراطور الألمان أوتو الأول (الكبير) ورسل ملك فرنسا ، فاحتفل لقدومهم كذلك ، وبعث مع وفد الصقالبة ربيعا (ريڤا) الأسقف الى ملكهم . ثم وفدت عليه رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب المودة والتحالف فأجابه اليهما [1] .

(١) راجع تفاصيل هذه السفارات فى نفح الطيب (مصر) ج ١ ص ١٧١ وما بعدها . وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ وما بعدها .

⁂

على أن الدبلوماسية الاسلامية لم تغفل العنصر السرى الذى هو من أخص ظواهر الدبلوماسية الحديثة؛ فقد كانت للخليفة الاسلامى، فضلا عن أعوانه و رسله السريين الذين ينفذهم الى الولايات والمدن الواقعة تحت حكمه يمدوه بأخبار الولاة والقضاة والشعب، طائفة كبيرة من الرسل السريين ينفذهم الى القصور والحكومات الأجنبية ليحيطوه علما بما يقع فيها، وما تدبره نحو بلاده من خير أو شر؛ والظاهر أن بنى العباس كانوا أول من نظم هذه الطائفة الدبلوماسية السرية؛ فقد كان للمهدى والرشيد والمأمون والمعتصم أعوان سريون فى قسطنطينية وفى غيرها من العواصم الكبرى، ليقفوا الخليفة على كل حركة يأتيها الامبراطور البيزنطى و ولاته؛ وكان هؤلاء الرسل والجواسيس يختارون من جميع الطبقات وخصوصا من بين التجار، وأحيانا من النساء البارعات فى الجمال والدهاء، وكانوا يؤدون مهمتهم بمهارة فائقة. وقد بلغت هذه الوسيلة الدبلوماسية ذروة الانتظام والأهمية فى عهد الأوائل من خلفاء بنى العباس حينما كانت الخلافة قوية حرة مستأثرة بكل مهام السلطان والملك، ثم اضمحلت باضمحلال شأن الخلفاء أيام غلبة الحرس التركى وآل بويه، حينما كان الخليفة سجينا فى قصره أو مجردا من كل سلطة حقيقية. ولما اضمحل شأن الخلافة العباسية واستقل حكام النواحى بحكم الولايات تحت سلطان الخليفة الاسمى، استبدل الخليفة برسله السريين، رسلا رسميين وأعوانا ظاهرين يمثلونه فى قصور القاهرة، ودمشق، والموصل، ونيسابور، ومرو وغيرها. وكان هؤلاء السفراء يصحبون الأمير الذى يمثلون فى حكومته، فى حروبه وغزواته كما كان رسل البابا يصحبون ملوك النصرانية فى حروبهم وغزواتهم فى أواخر العصور الوسطى، فنراهم فى بطانة ألب ارسلان وملك شاه، ونراهم أحيانا يتدخلون فى شؤون هؤلاء الملوك، وأحيانا يصلحون بينهم، و يفصلون فى خصوماتهم.

⁂

وقد كانت سياسة الاسلام الدينية تختلف باختلاف العصور والدول؛ بيد ان

التسامح كان منذ عصور الاسلام الأولى على الاجمال، سياسة مقررة للحكومات الاسلامية المختلفة نحو رعاياها . وقد اطلعنا أخيرا على صورة وثيقة رسمية تاريخية تلقى ضياء على هذه السياسة، أصدرها الخليفة المكتفى العباسى سنة ١١٣٨ م الى البطريق ابديشو النسطورى . وفى هذه الوثيقة يمنح الخليفة رعاياه النصارى كل ضروب الحرية الدينية . ويقول الدكتور منجانا أمين مكتبة «ريناالدز» مكتشف هذه الوثيقة فى تعليقه على هذا الاكتشاف : « كنا نشعر دائما بالحاجة الى وثيقة تلقى الضياء على العلائق التى كانت سائدة بين الاسلام الرسمى والنصرانية الرسمية فى عصر كان للاسلام فيه حق الحياة والموت على ملايين من الرعايا النصارى . وقد يكون أفراد من النصارى عانوا من عسف أفراد من المسلمين، أو قد يكون مجتمع نصرانى عانى الإرهاق من تعصب حاكم محلى أو فقيه؛ كذلك اتخذ بعض الخلفاء مثل الخليفة المتوكل اجراءات شنيعة لإرهاق النصارى، ولكن مثل هذه الحوادث يجب أن تعتبر خرقا للقانون، وان يعتبر مرتكبوها خوارج على القانون . أما تصرف الاسلام الرسمى فى هذا الشأن فواضح فى الوثيقة الحاضرة التى تؤكد دون لمحة من الريب أن الارهاق المنظم لم يكن من سياسة الاسلام الرسمية » . ثم يقول الدكتور منجانا : « إن هذه الوثيقة صادرة من ديوان خليفة عباسى، ولكن هل يمكن أن يكون ملك انجلترا أو ملكة هولاندة أو رئيس الجمهورية الفرنسية أكثر تسامحا فى حق رعاياهم المسلمين ؟ ان القرآن لم يكن سببا فيما ارتكب من حوادث إرهاق النصارى، كما أن الانجيل لم يكن هو العامل الموحى لما ارتكبته مجالس التحقيق من ضروب الوحشية »(1) .

وظاهر مما تقدم أن الدبلوماسية فى الدول الاسلامية لم تكن تختلف كثيرا عما كانت عليه فى الدول النصرانية فى العصور الوسطى من حيث أوضاعها وتقاليدها، ويرجع ذلك الى ان نظم الدولة وما تستند اليه من التقاليد السياسية فى هاتيك العصور كانت تتشابه من عدة وجوه فى الشرق والغرب .

---

(١) نشرت جريدة «منشستر جارديان» ترجمة هذه الوثيقة، وتعليق الدكتور منجانا (سنة ١٩٢٧).

— ٢ —

شارلمان والرشيد

فى أواسط القرن الثامن الميلادى كان الشرق والغرب يجوزان معا حركة استقرار سياسى ، فنرى فى الشرق اضطراب الدولة الأموية وفورات الشيعة تسفر عن قيام دولة عباسية تسير مسرعة فى سبيل التوطد والثبات ؛ وفى المغرب نرى الحروب الأهلية فى الأندلس تسفر عن قيام دولة إسلامية جديدة قدر لها أن تحيى مجد بنى أمية الذاهب قرونا أخرى ؛ ونرى فى الوقت نفسه معارك القبائل والدول البربرية التى استطالت منذ القرن السادس فى أواسط أوربا وغربها تسفر عن قيام مملكة الفرنج القوية ، ثم نرى هذه الدولة الجديدة توطد دعائم ملكها فى فترات قصيرة وتفوز باستقرار سياسى واجتماعى ، يعين بلا ريب طورا سياسيا واجتماعيا جديدا فى سير العصور الوسطى .

ففى ذلك الحين الذى نهضت فيه بغداد وقرطبة تمثلان صولة الاسلام فى المشرق والمغرب ، وتتنازعان مع ذلك شرعية السلطان والنفوذ فى تراث الدولة الاسلامية الأولى ، كانت مملكة الفرنج تبرز سراعا من غمار البداوة والوثنية والفوضى ، حتى وصلت ذروة هذا التطور على يد شارلمان أوشارل الأكبر . وكان شارلمان كالأوائل من خلفاء بنى العباس ، وعبد الرحمن الداخل الأموى ، قد أنفق أعوام حكمه الأول فى محاربة المنافسين والخارجين عليه . فلما توطدت دعائم ملكه أخذ يعنى بالفتح وعقد العلائق السياسية . وكانت سياسة شارلمان نحو الاسلام من أهم عناصر الدبلوماسية الفرنجية . وكانت هذه السياسة متناقضة فى الظاهر ، فبينما يعمل شارلمان على سحق الدولة الاسلامية فى الأندلس ، اذا به طبقا للرواية الفرنجية يكاتب الخليفة العباسى ويوفد اليه رسله لعقد أواصر الصداقة والتحالف بينهما . ولكن الحقيقة أن عاهل الفرنج كان بطل النصرانية فى نفس الوقت . وكانت حروبه لرد القبائل السكسونية الوثنية عن ضفاف الرين ، ورد الاسلام الى ما وراء البرنيه تنم عن الروح الدينى قبل كل شىء . ولم يكن اتصاله بالخليفة العباسى فى نظره إلا

وسيلة قد تسهل مهمته فى مغالبة الاسلام فى اسبانيا، وحماية النصرانية فى المشرق.

ولهذا الاتصال بين شارلمان والخليفة العباسى قصة دونتها الروايات الفرنجية والكنسية ولم تشر اليها الروايات العربية قط . فتقول الرواية الفرنجية : ان شارلمان والرشيد كانت بينهما مكاتبات وسفارات، وان شارلمان سعيا الى توثيق الصداقة بينهما، أوفد الى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى إسحاق ومعه سيدان نصرانيان توفيا أثناء الطريق، فوصل إسحاق وحده الى بلاط بغداد، وقدم الى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته . فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج، وأوفد اليه سفراءه بهدية فخمة، منها خيمة عربية، وساعة مائية، وأثواب حريرية، وتحف من الذهب، وقردة، وفيل، ومفاتيح قبر المسيح . وتذهب بعض الروايات الفرنجية الى أن الرشيد أرسل يهب ملك الفرنج سيادة فلسطين بأسرها ، أو أنه وهبه ملك بيت المقدس فقط . ولكن معظمها يجمع على أن الرشيد اكتفى بأن أرسل الى شارلمان مفاتيح القبر المقدس، وبعث اليه يبلغه انه لما كانت فلسطين بعيدة عن أرض ملك الفرنج وكان يخشى اذا أرسل شطرا من جنوده اليها ، أن تقوم ثورات محلية فى مملكة الفرنج يصعب اخمادها ، فان الخليفة يتولى بنفسه حماية البقاع المقدسة بالنيابة عن ملك الفرنج ويرسل اليه خراجها. وتؤكد الروايات الكنسية وقوع هذه الهبة وتشير اليها بعض القصائد السكسونية؛ ولكن لا ريب أن هذه مبالغة أملتها كبرياء الكنيسة على الرواة من أحبارها فلم تدون إلا فى عصر لاحق ولم ترد فى الروايات المعاصرة؛ بل لم يشر اليها اينهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره مع أنه يعنى بذكر الفيل الذى أهداه الخليفة الى مليكه ، ويذكر أن اسمه بوبالاس وأنه مات سنة ٨١٠ م[1] . وصمت الرواية العربية دليل آخر على أن العلائقات بين بلاط بغداد وبلاط الفرنج لم تكن من هذه الوجهة خطيرة الى الحد الذى تذهب اليه الرواية الكنسية ، ولم تخرج عن المجاملات الملوكية بين سيدى

---

(١) يفصل اينهارت وقائع هذه السفارات والعلائق بين الرشيد وشارلمان فى كتابه Vita Karoli Magni (حياة كارل الأكبر)، وراجع أيضا : Hodgkin : Charles the Great .

الشرق والغرب، وأنها اذا صحت خطورتها السياسية كانت سرا من أسرار الدولة .
كذلك يظهر أن غايات شارلمان الحقيقية من مصادقة الخليفة العباسى كانت محاطة بالكتمان ولم تخرج عن مجالسه السرية بدليل أن الرواية تقتصر على سرد حوادث هذه العلاقات دون التعرض لغاياتها السياسية .

ثم تقول الرواية الفرنجية ان شارلمان سر بنتيجة سفارته الأولى الى الرشيد فأوفد اليه سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضا . ولسنا نعرف تفاصيل هذه السفارة الثانية كما أنا لا نعرف تاريخ هذه المراسلات السياسية بالضبط، ولكن المرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد، بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ م (١٧١ — ١٧٦ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا العهد ما يلقى ضياء على طبيعة هذا التفاهم ومداه ؛ فان الدولة العباسية الفتية ما كادت تستقر على أنقاض الدولة الأموية الذاهبة، حتى ظهر عبد الرحمن الأموى فى اسبانيا وخاض غمار الحرب الأهلية التى كانت تمزق الجزيرة يومئذ، واستطاع بعزمه ودهائه أن يؤسس فى قرطبة دولة أموية جديدة . وكان بنو العباس ينظرون الى قيام هذه الدولة الأموية الناهضة بعين الريب والجزع ويخشون بحق أن تكون خطرا فى المستقبل على سيادتهم فى الأقطار الغربية ؛ ولم تكن فكرة سحقها فى المهد بعيدة عن الأوائل من خلفائهم ؛ فقد بذل المنصور على الأقل جهدا لسحقها، فبعث ابن مغيث اليحصبى عامل إفريقية لغزو الأندلس، ولكن عبد الرحمن مزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله، وبعث على ما يروى برأسه ورأس جماعة من أصحابه الى مكة ومعها كتاب المنصور لابن مغيث فارتاع المنصور لذلك وقال : ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر .

والظاهر أن السياسة العباسية لبثت من بعد المنصور حينا تشغل بأمر هذه الدولة الاسلامية الخصيمة . على أن قيام هذه الحكومة اذا كان يزعج بنى العباس لاحتمالات بعيدة تتعلق بالهيبة والسيادة المعنوية ، فإنه كان خطرا داهما على مملكة الفرنج . وكانت ذكريات الغزوات الاسلامية لفرنسا، وذكريات المعارك الكبرى

التى نشبت بين الاسلام والنصرانية على ضفاف اللوار ، وما كانت تنذر به من اكتساح الأمم الشمالية ، ما تزال عميقة الأثر فى نفوس القبائل الفرنجية ؛ ولم يكن بعيدا أن يتجدد الخطر اذا ماركدت الحرب الأهلية فى الأندلس ، وغدت الدولة الاسلامية كما كانت كتلة متماسكة قوية .

أليس طبيعيا أن تغذى هذه العوامل سياسة النضال والخصومة بين مملكة الفرنج الناهضة ودولة قرطبة الفتية؟ و بين النصرانية التى رفع شارلمان لواء ظفرها الى ما وراء الرين وحماها من عدوان الوثنية السكسونية ، و بين الاسلام الذى تدفق سيله الى فرنسا قبل ذلك بنصف قرن فقط ولم يقفه سوى الحرب الأهلية فى اسبانيا ؟ كانت مناهضة الدولة الاسلامية فى اسبانيا شطرا من سياسة شارلمان العامة ، وكان شارلمان يرقب كل فرصة لتحقيق هذه السياسة التى بدأها جده كارل مارتل . وقد سنحت هذه الفرصة حين اضطرام الحرب الأهلية فى اسبانيا . وكان عبد الرحمن الداخل قد حطم خصومه فى الجنوب ، ولكن الشمال كان ما يزال يضطرم بفورات الخارجين عليه من فل المتغلبين وحكام المدن . وكان أقوى أولئك الخوارج وأشدهم مراسا ، سليمان بن يقظان الكلبى حاكم برشلونة ، قد فكر مع نفر من زملائه الخوارج كبنى يوسف الفهرى آخر المتغلبين على الأندلس قبل عبد الرحمن ، فى الاستنصار بشارلمان . فقابلوه فى إحدى رحلاته فى جنوب فرنسا ، وأغروه بفتح الولايات الشمالية وتعهدوا أن يسلموه مدنا معينة . وتقول بعض الروايات ، ان الذى استنصر بشارلمان هو الفونسو أمير أوسترياس الذى خلف بلايو فى إمارة ليون . ولكن المرجح أن الدعوة كانت من الخوارج المسلمين الذين قضى عبد الرحمن على سلطانهم . وكانت الدعوة فى وقت ملائم ، لأن شارلمان كان قد انتهى من اخضاع القبائل السكسونية ؛ فحشد جيشا ضخما ، وعبر جبال البرنيه (الممرات) ، بعد أن استولى على المعاقل الاسلامية الشمالية . ولكن الزعماء الثائرين اشتغلوا عن معاونة الفرنج بقتال بعضهم بعضا . فزحف شارلمان على سرقسطة ، وكان حاكمها الحسين بن يحيى الأنصارى قد انضم الى الخوارج . وحاول شارلمان

أخذ سرقسطة ، ونشبت بينه و بين المدافعين عنها معارك ردّ فيها بخسائر فادحة وارتاب فى أمر الثائر سليمان فقبض عليه، وارتدّ بجيشه شمالا . ولكن هذه لم تكن خاتمة المأساة فان الجيش الفرنجى حينما اخترق البرنيه،انقض عليه مطروح وعيشون ولدا سليمان بن يقظان فى جموع كبيرة من المسلمين والپشكنس ، وذلك فى مفاوز رونشفال (باب الشزرى)،وكانت المفاجأة رائعة، وكان الخلل قد دب الى صفوف الجيش المرتدّ ، وغلب عليه الاعياء والوهن ، فمزقت زهرة الجيش الفرنجى وهلكت صفوة من النبلاء الفرنج ، وألفت هذه النكبة الشهيرة صداها الخالد بعد ذلك بقرنين فى « أنشودة رولان » Chanson de Roland وصيف شارلمان الذى هلك فى الموقعة، فكانت مدى قرون مثلا أعلى لقريض الفروسة النصرانية .

وكان ذلك فى أغسطس سنة ٧٧٨ م (١٦٤ هـ) أعنى لنحو نصف قرن من بلاط الشهداء (موقعة تور أو بواتييه) فهل كانت ثمة فى ذلك الحين علائق سياسية بين بلاط بغداد و بين ملك الفرنج ؟ هذا ما تقوله بعض الروايات الفرنجية . ولكن المرجح أن هذه العلائق لم تبدأ إلا فى عصر الرشيد ، فلم يك ثمة علاقة بين هذه الغزوة الأولى لاسبانيا المسلمة الأموية، و بين مصادقة شارلمان للخليفة العباسى . ولكنا قد نجد أثر هذا التحالف ماثلا بعد فى ما تلا من غزوات الفرنج لمملكة قرطبة. فان شارلمان لم ينبذ سياسة الكيد لاسبانيا المسلمة والتربص بها، ولم ينبذ بنو أمية من جانبهم سياسة التوطيد ومطاردة الخوارج ، بل سياسة التوسع واسترداد كل ما فقده الاسلام من الأراضى الشمالية . ففى سنة ٧٩٢ م (١٨٧ هـ) زحف هشام ابن عبد الرحمن الذى خلف أباه على عرش قرطبة نحو الشمال بجيش ضخم وغزا سبتمانيا، وهزم جموع الكونت دى تولوز الذى أوفده شارلمان لردّ العرب على نهر أور بينا بمكان يعرف بقيلدن . ولكن سرعان ماسنحت فرصة الإنتقام لشارلمان، فإن الحكم المنتصر ما كاد يجلس على عرش أبيه هشام، حتى خرج عليه عماه عبدالله وسليمان ولدا عبد الرحمن ، وسار عبدالله لمقابلة شارلمان فى إيكس لاشابيل قاعدة ملكه ، فأكرم مثواه، وأوفد معه جيشا زحف به على طليطلة واستولى عليها.

وبعث شارلمان فى نفس الوقت بقيادة ولديه شارل ولويس جيشا عاث فى الولايات الاسلامية الشمالية، ولكن الثوار والمغيرين أخطأوا تقدير عزم الحكم، فانه أسرع لملاقاة أعدائه فى كل ساحة، ورد الفرنج الى الشمال وأخمد الثورة بسرعة. وعاد شارلمان الى غزو اسبانيا مرة أخرى، فاستولى على برشلونه بدعوة من حاكمها المسلم ثم استردها الحكم. وكانت هذه المرحلة خاتمة النضال الذى شهره شارلمان على مملكة قرطبة الفتية زهاء عشرين سنة، ولكن خلفاءه استمروا بعد ذلك فى اتباع سياسته مدى عصور.

كان التربص باسبانيا المسلمة كما قلنا عنصرا جوهريا فى سياسة شارلمان، وكان قاعدة من قواعد السياسة الفرنجية العامة. ولكن مصادقة شارلمان للرشيد لم تكن بعيدة عن توجيهها. كذلك نلمس أثر الكنيسة واضحا فى هذه السياسة، فان سيل الاسلام الذى جرف اسبانيا فى أعوام قلائل، ثم انساب الى فرنسا بعنف حتى كاد يحمل ولاياتها الجنوبية، كان فى نظر الكنيسة خطرا داهما على النصرانية. ونحن نعرف تحالف شارلمان مع الكنيسة، واستغلاله لنفوذها فى تمهيد فتوحاته، وظفره بتاج الدولة الرومانية المقدسة، واستغلالها هى إياه فى محاربة أعدائها، وقد كانت الخلافة فى المشرق تسيطر على أرواح ملايين كثيرة من النصارى. أفلم يكن ظفرا للكنيسة أن تحمل شارلمان على مصادقة الخليفة العباسى، فتؤكد بذلك تسامحه نحو الملايين من أبنائها، ورعايته للقبر المقدس، والحاج اليه؟ هذا ما يلوح لنا أنه الثمن الذى بذلته الخلافة العباسية من جانبها فى محالفة عقدتها مع ملك الفرنج وأمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

* * *

كانت الرواية الفرنجية عن علائق شارلمان والرشيد موضع اهتمام البحث الحديث. وقد اختلف البحث فى شأنها بين التأييد والنفى. وممن يصدقها ويؤيدها المستشرق رينو؛ وممن ينكرها وينفيها المستشرقان الروسيان بارتولد وفاسلييف. وقد تناولها بارتولد فى فصل خاص فى كتابه "الشرق النصرانى" Christlichen Ostens

وتساءل عن البواعث التى يمكن أن تؤدى الى عقد مثل هذه العلائق بين الخليفة المسلم والأمبراطور النصرانى ، وعن مبلغ قيمة الوقائع التى توردها الرواية الفرنجية ، وعن الأدلة التى تؤيدها . ويجيب بارتولد بأن من الممكن المحقق أن تكون ثمة علائق بين شارلمان و بطريق بيت المقدس ، وأن تكون ثمة سفارات بينهما ، فقد كانت ثمة مصالح دينية وتجارية تستدعى ذلك . ولكن ذلك لا يؤيد أن سفارات تبودلت بين الرشيد وشارلمان . أما قصة الفيل الذى حمل من المشرق الى بلاط شارلمان فمع التسليم بصحتها ، فانه ليس ثمة مايدل على أنه أرسل من قبل الخليفة أو أن إرساله كان لبواعث سياسية . وقد كان تبادل السفارات أمرا محققا بين الرشيد و إيرينى إمبراطورة قسطنطينية ؛ ولكن ليس هنالك على وجه العموم ما يدل على أن الرشيد كان يعرف شيئا عن شارلمان ومملكته [(١)] .

ويتفق ڤاسليف فى بحثه مع بارتولد فى إنكار صحة العلائق والسفارات المتبادلة ، ويرى أقطع دليل على ذلك فى كون المصادر الشرقية لم تشر اليها على الاطلاق [(٢)] .

ونحن لا نوافق بارتولد وڤاسليف ، ونرجح صحة الرواية الفرنجية ، لأنها دونت من مؤرخ كبير معاصر هو اينهارت مؤرخ شارلمان ، ولأنها بتفاصيلها الدقيقة من حيث تعيين الوقائع والأشخاص تحمل طابع الصدق ، ولأنه كانت ثمة مصالح سياسية عظيمة تقرب بين سياسة الدولة العباسية وسياسة شارلمان ، و بالأخص نحو الأندلس حسبما بينا . أما صمت المصادر العربية عن ذكر هذه العلائق ، فمن الممكن أن يحمل على أن هذه العلائق والسفارات كانت سرية ، وكانت سرا من أسرار الدولة ؛ لأن تفاهم الخليفة العباسى مع عاهل للنصرانية على شهر العدوان على دولة مسلمة (اسبانيا) ليس مما يستحب التصريح به . والرواية الاسلامية تغفل كثيرا من الوقائع الهامة فى علائق الاسلام والنصرانية ، إما لجهل بها أولعدم الاهتمام بأمرها ، ولكن ذلك لا يصح أن ينهض دليلا على عدم صحتها .

---

(١) راجع خلاصة بحث بارتولد (Barthold) فى مجلة « الاسلام » الألمانية Der Islam-B. III.-409

(٢) راجع خلاصة بحث ڤاسليف Wasiliew فى : Der Islam B. IV. - 333

الفصل الحادي عشر

الرق فى العصور الوسطى

لمحة من أحكامه وأطواره فى الدول الاسلامية

اشتقت شرعة الرق من عرف الحرب القديم أكثر مما اشتقت من أى مصدر آخر[1]، وهو عرف يقضى بأن الغالب يصبح سيدا شرعيا للعدو الذى قهره وأبقى على حياته . وقد أعارت حروب الدول البربرية التى ورثت تراث الدولة الرومانية منذ القرن الخامس هذا العرف قوة وشدة، فكان الظافر يتبع ركب اسلابه بصف طويل من الأسرى الذين غدوا بأحكام الحرب رقيقا وملكا خالصا له يتصرف فيه كما يتصرف فى أية سلعة ؛ وكان الفتية والفتيات ذو والحسن والرشاقة يلحقون بالأعمال المنزلية حيث يشغلون مراكز مريبة تعرضهم تباعا للحظوة أو النقمة أو نزعات الأهواء المتباينة ؛ أما أصحاب الفنون والحرف المختلفة فيزاولون فنهم أو حرفتهم لمصلحة سيدهم . بيد أن الأمراء البربريين كانوا يشذون فى معاملة الرقيق من الرومان فيقضون عليهم، دون مراعاة لمقامهم، بزرع الحقول وتعهد الماشية. وكان للسيد حق الموت والحياة على رقيقه . وكان الرقيق فى هذه الدول البربرية يزداد عدده تباعا بما يغذيه من حروب وموارد جديدة، وتسوء حاله شيئا فشيئا فى ظل ما تميزت به المجتمعات البربرية من طغيان وعسف . فلما اضمحلت هذه الدول وخبا ظمأ الفتح والحرب نوعا، نقص الرقيق فى العدد، وخفت عنه وطأة العسف فى ظل الدول الفرنجية التى خلفت الدول البربرية فى غاليس (جول او فرنسا) وبلاد اللنبرد (انكبردية) واستمرت الحال حينا على ذلك حتى غدا الرق منذ القرن

(١) يلاحظ أن للرق فى العصور القديمة مصادر أخرى غير الحرب منها بيع الآباء لأطفالهم، وخطف الأشخاص وقد كان ذائعا فى المعارك البحرية، ثم بعض الأحكام الجنائية فى الشرائع القديمة، وكانت تعاقب بالرق على جرائم معينة .

التاسع أضيق حدودا والرقيق أحسن أحوالا ؛ وتطور الرق الى نوع من النظام الاجتماعى ، وأضحى عنصرا بارزا فى المجتمع الإقطاعى مدى العصور الوسطى .

استمر الأسر فى الحرب أظهر صور الرق خصوصا اذا كان الأسير ينتمى الى جنس آخر، ثم أخذت الفكرة الإنسانية تبرز بطيئة من غمر العصور الوسطى ، وأخذ معيار الحياة البشرية والحقوق الانسانية يرتفع شيئا فشيئا ؛ فأخذت وطأة الرق فى الاعتدال ، وتدرج الرقيق فى كسب الحقوق الجديدة . ويرجع ذلك من بعض الوجوه الى ذيوع التعاليم النصرانية وقوة أثرها وهيبتها فى نفوس القادة والأمراء والسادة . وملخص أحكام الرق فى هاتيك العصور هو ان العبد متاع للسيد ، وعنصر الرق هو ان العبد لا يجوز بيعه مستقلا عن الضيعة التى ألحق بها ، ولا يستطيع أن يفارق هذه الضيعة ؛ فهو ملحق بالأرض ينتقل معها الى المالك الجديد . على انه لم يكن وقتئذ يعتبر وحدة فى قطيع العبيد يعمل تحت إشراف عريف من عرفاء الملك كما كان يعتبر أيام الفرنج ؛ بل يقطع قطعة معينة من الأرض يعيش فيها ، ويدفع الى السيد مقابل ذلك ريعا سنويا فى شكل نسبة كبيرة من محصول أرضه ، ويحتفظ هو بملكية ما تبقى . فإذا فر العبد من الضيعة كان للسيد أن يسترجعه بالقوة ، واذا اختفى عادت أرضه الى المالك . ثم حصل الرقيق شيئا فشيئا على حقوق جديدة منها الميراث من طريق الأب ، والزواج . وكان زواج الرقيق بادئ بدء عملا غامضا ليست له أحكام معينة ، ولذا كان نسلهم غير معترف به ، فلا يقر نسب الأولاد الى آبائهم ؛ ولكن الفضل يرجع الى تدخل الكنيسة أيضا فى إزالة هذا الحيف . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر اعتُرف للرقيق بحق الزواج الصحيح واعتُرف بنسب الأولاد للآباء ، ومن ثم استقر حقهم فى ميراث الأرض المقطوعة . بيد أن أحوالا استثنائية كانت تترتب على زواج الرقيق ، فإذا تزوج عبد مثلا من جارية سيد آخر تبعته بحكم الزواج الى ضيعته لتعيش معه ، وبذلك يخسر سيدها خدماتها ، وتكون الخسارة أبلغ إذا لحق بها أطفالها أيضا وهو الأغلب . وكانت هذه المشكلة وأمثالها تحل بحلول كثيرة ، إذ يعوض سيد الجارية

مثلا بثمن نقدى، أو ينتظر حتى يتزوج أحد عبيده من إحدى جوارى سيد الضيعة التى التحقت بها جاريته، وبذلك يعوض بمثلها . أما الأولاد فيقسمون بين السيدين طبقا لشروط معينة . وكان أظهر فارق بين الحر والعبد فى الحقوق المدنية فى تلك العصور، هو قصور العبد عن تولى الخدمة القضائية بمعنى أنه لا يمكن أن يعين قاضيا أو يقبل أمام القضاء كشاهد . وهذا القصور نتيجة لقصوره عن القتال؛ ومن عرف العصور الوسطى أنه لا يصلح لتفسير ارادة الله كما هى ظاهرة فى الأحكام القضائية، إلا من كان أهلا لحمل السلاح .

⁂

هذا ولعل أحكام الرق فى الإسلام هى أدق وأفضل تشريع وضع لمعالجة هذا النظام الاجتماعى الشاذ الذى قد لا تبرره حتى ظروف العصور الذى شرع فيها ؛ ولكن الرق كما هو معروف من ظواهر أعرق المدنيات وأقدمها، وكان من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرّد الاسلام فى هاتيك العصور لهدم نظام يتغلغل فى هيكل المجتمع حتى أعماقه، وتحتم حالة الحروب، وتنازع البقاء الروحى أو المادى، أن يكون له نصيب فى نظم الدولة والحياة الخاصة . على أن الرق الذى شرعته المجتمعات الغربية فى العصور الوسطى والذى قدمنا لمحة من أحكامه لم يكن معروفا فى الاسلام بمعناه الذى تقدّم؛ فالاسلام لم يعرف من الرقيق سوى نوع واحد هو رقيق الحرب. وملخص أحكام الشريعة الاسلامية فى ذلك هو أن من أسر من غير المسلمين نوعان، نوع يكون رقيقا بمجرّد السبى أو الأسر ويكون كسائر مفردات الغنائم فى القسمة والتصرف، وأولئك هم النساء والصبية والعبيد؛ ونوع لا يعتبر رقيقا بمجرّد السبى وانما يرق بالاختيار وهم الرجال الأحرار، وهؤلاء يخير فى مصيرهم الامام أو أمير الجيش، فإما القتل أو الاسترقاق أو المن عليهم بتخلية سبيلهم، أو افتداؤهم بالمال أو بالرجال أعنى استبدالهم بأسرى من المسلمين تحت يد العدو؛ ويراعى فى هذا الاستبدال ظروف الحال ومركز الأشخاص . وإن أسلم أسير مكلف لم يقرّر الامام أو القائد مصيره قبل إسلامه، عصم الاسلام دمه وبقى للامام أن يقرّر مصيره

فيما بقى من الأحكام؛ ومن أسلم قبل أسره عصمه الاسلام من كل شىء، وحقن دمه وصان ماله وحريته وصغاره .

هذه هى أحكام الرق فى الاسلام، وهى كما ترى تحصره فى أضيق الحدود التى تسمح بها ظروف هاتيك العصور . على أنك تشعر من مراجعة بعض الأحكام الاسلامية الأخرى أن الرق فى ذاته كان شرعة مكروهة، ففى القرآن الكريم، وفى الأحاديث النبوية، كثير من الحض على عتق الرقيق (تحريره) وتقريره فدية شرعية لكثير من الذنوب والمخالفات الدينية كالإفطار العمد مثلا . وكان العتق يعتبر فى المجتمع الإسلامى من أعظم الفضائل . هذا الى أن الرقيق فى كثير من الدول والمجتمعات الاسلامية لم يذق من عسف السادة كثيرا مما عانى فى المجتمعات الغربية، بل كانت الحسنى قاعدة عامة فى معاملتهم ؛ وفى كثير من أحكام الشريعة التفصيلية تكليف بالرفق بهم وحض على الإشفاق عليهم؛ وكثيرا ما اعتبروا من أفراد الأسرة التى يلحقون بها . هذا ويجب ألا ننسى الاشارة هنا الى نوع معين من الرقيق كان له فى دول الخلفاء وقصورهم شأن يذكر، ونعنى بذلك الصقالبة الذين كانت تغص بهم قصور الخلفاء والأمراء منذ القرن الثامن ؛ وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأصل على الأسرى الذين يأسرهم الألمان والبيزنطيون والفرنج من الأمم السلافية ويبيعونهم للعرب ؛ بيد أنها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى القصر وفى الجيش مهما كانت جنسيتهم . وقد نشطت أسواق الرقيق من الصقالبة فى المشرق منذ أيام الرشيد أى منذ أن كثرت غزوات الدولة العباسية لأراضى الدولة البيزنطية . وبلغ هذا النشاط ذروته أيام المأمون حيث انقلبت حواضر الدولة العباسية وثغورها بالأخص الى أسواق شاسعة تموج بهذه التجارة الممقوتة . بل كانت الأرباح الطائلة التى تجنى من ورائها فى بعض الأحيان عاملا فى إثارة الحرب وتوالى الغزوات من جانب حكام النواحى والثغور لأراضى الدولة البيزنطية . كذلك كان لاسترقاق الصقالبة فى الأندلس شأن عظيم، فكانت قصور الأمراء تموج بهم ولا سيما منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم، وكانوا يومئذ

يشملون كل الجنسيات الأوربية؛ فقد ذكر ابن حوقل الذى زار الأندلس فى القرن العاشر الميلادى انه كان من بين الصقالبة الذين يخدمون فى بلاط الخليفة ألمان وفرنسيون واسبان ولومبارد وروس . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا بواسطة اليهود الذين كانوا أقطاب تجارة الرقيق فى هذه العصور؛ أو على يد خوارج البحر المسلمين الذين يخطفونهم، ومن ثم كانوا يعتنقون الاسلام ويتعلمون العربية بسهولة . وكان بعضهم يربى تربية راقية ، حتى لقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم . وقد فاق عددهم أيام الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أى عهد آخر فبلغ نحو أربعة عشر ألفا ، وكان لهم نفوذ وأملاك شاسعة . وكان الناصر يعهد اليهم بأهم الوظائف فى الجيش والحكومة، ويرغم أشراف العرب ورؤساء القبائل على الخضوع لهم . وكان مثل هذه السياسة يتردد من الناحية الأخرى فى قصور بغداد . ولا يسمح لنا المقام أن نسهب فى تفاصل هذه السياسة التى كانت خطرا على الاسلام ودوله ، سواء فى بغداد أو فى القاهرة أو قرطبة ، بيد أنا نستطيع أن نقول انها كانت من أهم أسباب انحلال العصبية العربية ، وتدهور سلطة الخلافة ، وتمزيق شاسع أقطارها الى دويلات وحكومات محلية .

* * *

لا ندهش بعد ذلك إذا رأينا ثغور البحر الأبيض وجزائره تنقلب الى مراكز عظيمة لتجارة الرقيق ولا سيما فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد؛ ففى ذلك الحين استعر لظى الحروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية من جهة، وبين هذه الدولة وجاراتها من المشرق والشمال، واستولى العرب على معظم جزائر البحر الأبيض، وسما شأن البحارة العرب ، واتخذوا جزيرة اقريطش محطا لإقلاعهم ورسوهم ، وغصت ثغور الجزر وثغور مصر والشام بسفن البحارة والخوارج المغامرين الذين يجوبون عباب هذا البحر بحثا وراء الغنيمة ، فيغيرون على شواطئ الدول النصرانية وخصوصا ثغور الجمهوريات الايطالية وثغور الدولة البيزنطية حسبما فصلنا من قبل؛ ويعودون الى أوطانهم مثقلين بالغنائم والسبي ، ويبيعون الرقيق آلافا مؤلفة الى تجار مصر والشام ، وينفذ هؤلاء بسلعتهم الى أقاصى افريقية وآسيا . وكانت أعظم غزوة

من هـذا النوع غزوة البحارة المسلمين بقيادة غلام زرافة (ليون الطرابلسى) أعظم بحارة عصره لثغر سلانيك فى سـنة ٩٠٤ م ، حيث يروى أى عدد الأسرى بلغ فى تلك الغزوة نيفا وخمسـين ألف نسمة . وكان اضطرام لظى الحروب والمغامرة البحرية على ذلك النحو ، فى ذاته عاملا فى تخفيف ويلات الرق ، إذ كانت المغانم والأرباح المـادية تحمل الظافرين فى فرص كثيرة على حقن دماء الأسرى ابتغاء بيعهم أو افتدائهم على يد القادرين من ذويهم ؛ هذا الى أن فكرة استبدال الأسرى قويت باشـتداد المعارك وتفاقم المصائب المترتبة عليها من السبي والتشريد ، وانتهى الأمر بالدولتين البيزنطيـة والعباسية الى الاتفاق فيما بينهما على تنظيم اسـتبدال الأسرى بشروط مقـررة ؛ وكان هـذا الاتفاق يطبق وينفـذ فى فرص ومواقف كثيرة ، ويعرف بنظام الفدى أو استبدال الأسرى[1] . ومنذ سنة ٧٨٩ م ، أعنى أيام الرشيد أدمج فى الاتفاق شرط يقضى بأن يسـمح للفريقين بافتـداء الكافة من أسراه نظير مبلغ معين عن كل فرد ؛ وغدا ثغر طوسوس من ذلك الحين مركزا من أهم مراكز المبادلة والافتـداء بين المسلمين والبيزنطيين . وكان مسـلموا إقريطش من أعظم مروجى هـذه السياسة ، إذ كانت جزيرتهم أعظم مركز فى البحر الأبيض لتجارة الرقيق من جهة ، ولإجراء المبادلة والافتداء من جهـة أخرى . وكان يقوم بإجراء هذه الرسوم أفراد وجماعات من الخاصـة يخابرون أسر الأسرى أو أصدقاءهم من الأغنياء لدفع الفـدية أو تقديم البدل . وكان الأسرى من النصارى الذين يفدون بهذه الواسطة يرغمون على دفع المبالغ الطائلة إذ كان الافتداء صفقة خاصة لا يجرى طبقا لمعاهدات رسمية كالافتـداء أو الاستبدال الرسمى الذى يتم تنفيـذ الاتفاق بين الحكومتين المتعاقدتين .

هذه لمحـة موجزة عن أحكام الرق أطواره فى العصـور الوسطى ، ومنها ترى أن مصائب الحروب المضطرمة المستمرة كانت تعصف بحريات البشر أشد ممـا كانت تعصف بأرواحهم وأموالهم .

---

(١) أشرنا الى هـذا النظام من قبل ، وراجع أحكامه ووقائعه مفصلة فى خطط المقريزى — ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٢

الفصل الثانى عشر

الفروسة

تاريخها، ومبادؤها، ورسومها

إذا كان الإقطاع[1] أساسا جوهريا لصرح النظم الإجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى، فإن الفروسة أهم حجر فى صرح الاقطاع، بل لقد كانت دعامة الاقطاع تُحكم بناءه وتربط أطرافه المتباينة، وتصل بين طبقاته الرفيعة والوضيعة . وكانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر فى بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسة وتزدهر، الحرية والرق؛ فكان من الناس أحرار وأرقاء . فلما اضمحل نظام الرق، وسما شأن الفروسة، كانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر، النبل والمنبت العام؛ فكان من الناس فرسان أو نبلاء أو سادة، وكافة أو عامة . هذه الفروسة التى لبثت قرونا زهرة المجتمعات النصرانية والتى لعبت دورا عظيما فى الحروب الصليبية ترجع مبادؤها ورسومها وتقاليدها الأولى الى أواخر القرن الثامن، أو أوائل القرن التاسع، ثم الى نظم الاقطاع فى عهد النورمان؛ فنراها فى عصر شارلمان تتخذ صورة احتفال يزود فيه الفارس الفتى بالسلاح . والظاهر انها كنظام حربى ترجع الى أقدم من ذلك، إذ يذكرها المؤرخ تاسيتوس فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ويصف رسومها[2]، ولكن الفروسة كشرف عسكرى رفيع يمنح فى نوع من الرسوم

---

(١) الاقطاع هو نظام سياسى اجتماعى حربى كان سائدا فى أوربا فى العصور الوسطى . وظهر فى القرن التاسع حينما ضعفت الحكومات المركزية عن أن تسيطر على جميع الأقاليم التابعة لها . وأصل النظام مجهول، ولكنه خليط من نظام التملك الرومانى وأصول التعامل والعلاقة الشخصية . وملخص هذا النظام هو أن الأرض تعتبر ملكا للعرش، وللعرش أن يقطع منها للأمراء والسادة، ولهؤلاء بدورهم أن يقطعوها الكافة ولكل من هؤلاء حقوق وعليهم واجبات بين سياسية وحربية ومالية . وقد ساد هذا النظام فى غرب أوربا حتى القرن الثالث عشر، وكان الفرنج أول من طبقه ووضع له أصولا ثابتة .

(٢) Tacitus: Annals .

الدينية ترجع الى القرن الحادى عشر فقط . بيد أن الفروسة الاسلامية أقدم وأعرق، فهى ترجع الى عصر الاسلام الأول فى القرن الأول للهجرة (القرن السابع الميلادى) ولكنها لم تكن نظاما دينيا أو سياسيا ؛ بل كانت خلة وموهبة وكفاية؛ وكان لها أيضانوع من الرسوم والتقاليد. ويفرد ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار» بابا للتحدث عن الفروسة وآدابها، ويورد عن أصولها ورسومها بعض الأقوال المأثورة [1] . أما الفروسة النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار، وتغدو فوق صفتها الحربية نظاما سياسيا اجتماعيا يرجع الى أصول ورسوم مقررة أدمجت فيها الحقوق والواجبات معا، قبل القرن الحادى عشر .

وقد كان النبل كما رأينا قاعدة الفروسة وخاصتها الأولى . وكان التفريق بين النبلاء والكافة فى مراحل الاقطاع الأولى غامضا فى الغالب ، ولكنه تقدم مذ أصبحت وراثة الضياع المقطوعة حقا مقررا، ثم غدا فى النهاية قاعدة لانتظام الناس فى طوائف قوية كانت أظهر عنصر فى مجتمع العصور الوسطى . والنبل يتكوّن من عنصرين مختلفين : الأول وراثة الضيعة بما تحمل من تعهدات فى أداء الوجبات الكبرى، والثانى أهلية القتال على ظهر الجواد أو بعبارة أخرى الفروسة (Chevalerie). والصفة الثانية تحمل فى ثنيتها فكرة المُلْك أيضا ، فهى تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس . وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية العقارية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الأمير الاقطاعى بخدمات صفوة من المقاتلة . وكانت هذه الصفوة وأسرها أرق عناصر الاشراف (الارستوقراطية) وأقوى الطوائف فى مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى .

وقد أفضى شرف المنبت الى تحول هذه الارستوقراطية الى طبقة بكل معانى الكلمة، يتعذر على الكافة اقتحامها والاندماج فى سلكها دون مصاعب ورسوم جمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشترى الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) أو يسبغ المَلِك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه

---

(١) راجع هذا الباب فى «عيون الأخبار» ج ١ ص ١٣٢ وما بعدها .

لخدمات أداها أو كفايات معينة عرف بها، فتلحق عندئذ صفة النبل هذه بالأرض التى يملكها وتنتقل الى عقبه بالإرث . وواضح أن خَلْق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لإحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا العصر هو فى الواقع فاتحة لنهوض الملكية وبروزها من أغلال الاقطاع ، وتبوء نظمها مركز الغلبة والسيادة على ما عداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثة النبل تحصر بادئ بدء فى صف الذكور ، ولكن ميل العروش الى اتباع السياسة المتقدمة أفضى قبل بعيد الى منحها للإناث أيضا ، وغدا ممكنا أن تَهِبَ الأنثى صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرسانا وسادة ونبلاء .

ولما استقر النظام الإقطاعى وتحسنت موارد الارستوقراطية بتحسن الزراعة ، غدا الواجب الذى يقضى على الفارس باتباع الأمير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الاقطاعيين أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس اذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة وتقلد سلاحه الذى يدججه من الرأس الى القدم ، وامتطى صهوة جواده الذى يغطيه الحديد والصلب مثله ، أضحى أهلا للقاء عشرات من العامة غير المسلحين ؛ فاذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة استطاعوا أن يرهبوا المئات والألوف من أتباعهم ويلجئوهم الى الخضوع والطاعة . وواضح أن استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها ، كان يؤدى فى كثير من الأحيان الى معارك دموية لا يعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لأنفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على ان ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين ، كان فى ظروف الحياة العادية يدعم نظاما اجتماعيا كنظام الفروسة تنقصه جميع عناصر الاستقرار السياسى .

وقد ندهش حينما نتأمل رسوم الفروسة وتقاليدها ، ويخيل لنا أنها رسوم إحدى الهيئات الدينية أو الجمعيات السرية الكبرى . والواقع أن هذه الرسوم التى يجب جوزها لنيل شرف الفروسة قديمة جدا ، وقد أشار اليها تاسيتوس كما قدمنا فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية . وقد اتخذت منذ نشأة الفروسة صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم هى أن المرشح

للفروسة قبل أن يزود بالسيف والمهماز يجوز بعض التجارب والاختبارات، ويقضى أياما فى الصوم، ثم يمضى ليلة فى كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها الى التفكير والتأمل؛ وبعد ذلك يعطى السيف والمهماز، ويُلطم على خده أو كتفه لطمة خفيفة إشارة الى آخر إساءة يسوغ له أن يغضى عنها. هذا ومع ان الفروسة نظام اجتماعى سياسى فانها لم تخل من الصبغة الدينية، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها الى حد ان نظام الفروسة ذاته كان يُشَبَّه فيما يختص بالحقوق والواجبات بالهيئات الكهنوتية المقدسة؛ فالفارس المبتدئ يلزم بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة، على نحو ما يقع فى إحياء التنصير؛ ويتسلم الفارس سيفه على هيكل الكنيسة من يد أحد رجال الدين، ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهال؛ ثم ينادى فارسا باسم الله والقديس چورچ والقديس ميخائيل. ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدى واجبات مهنته — فقد كانت الفروسة مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية، والقدوة الحسنة، وحكم الرأى العام. وخلاصة قسمه أن يقول الصدق، وأن يؤيد الحق، وأن يحمى المنكوب، وأن يستعمل الرقة والمجاملة فى معاملاته، وأن يطارد أعداء الدين، وأن يحتقر مغريات الرفاهة والأمن، وأن ينتصف لشرفه فى أية مغامرة خطرة. وقد بلغت هذه الرسوم فى القرن الحادى عشر مكانة علية من الجلال والتقديس، حتى كان واجبا على الملك ذاته لكى ينتظم فى سلك الفروسة، أن يخدم البلاط وصيفا ثم سيدا مرشحا للفروسة، ثم يمنح بعد ذلك المهماز الذهبي أو رمز الفروسة.

وكما كان للفروسة رسوم وعهود خاصة بها، فكذلك كان للفروسة رياضات وألعاب خاصة بها. وللفروسة فضل فى تطور هذه الرياضات والألعاب الارستوقراطية؛ فقد عدلت عن الألعاب الأولمبية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها، وتبعث الفساد والتهتك الى خلاق الشبيبة، وآثرت عليها الألعاب الرزينة المحتشمة. وكانت المبارزة أحب هذه الألعاب الى الفرسان والسادة، فكانت تعقد لها حفلات شائقة يهرع اليها الفرسان من كل صوب،

ويشهدها أشرف الكواعب والعقائل وأجملهن؛ وقد تستغرق الحفلة يومين أو أكثر وتجرى فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده وله فوق ذلك أن يسمى سيدة من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والألعاب وتسمى ملكة الحب والجمال؛ ومن ثم كانت فكرة الحب تقترن بكلمة الفروسة فى العصور الوسطى ؛ وكان حب امرأة يعنى فى نظر الفارس المتيم اجلال الجنس اللطيف كله . وأحيانا كان الفارس يؤثر بتأمله غادة معينة وتكون علائقهما نقية أفلاطونية فقط . وقد كان دور الفروسة فى هذا الشأن مستق خصبا لآداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ، ونظم رقيق حماسى ، وأناشيد وروايات شائقة لاحصر لها . هذا ولم تكن الفروسة تقف فى رياضاتها عند النزهة واللهو، بل كانت أيضا تنظم معارك صغيرة ، وتقيم تمارين جدية من مهاجمة حصن والدفاع عنه الى غير ذلك، فكانت هذه المعارك والتمارين ميدانا يتلق فيه الفارس دروسه وخبرته .

⁂

ماذا كانت آثار هذا النظام الغريب فى نفسية المجتمع والفرد ؟ ان الفروسة بلاريب من أجمل وأروع مناظر العصور الوسطى ان لم تكن أجملها جميعا، ولكنها لم تقف عند إنشاء مجتمع فريد فى رسومه ونظمه يضم طائفة متماثلة متضامنة من الأفراد، بل كانت لها فى أنفس الأفراد والجماعة آثار عميقة ترتفع أحيانا الى ذروة الخلال السامية، وتهبط أحيانا الى أوضع الأهواء والشهوات النفسية ؛ فقد ذللت الفروسة كثيرا من حدة المجتمعات الخشنة، ولطفت من أخلاقها وخلالها، وبثت اليها روحا قويا من مبادئ الوفاء والعدالة والانسانية، بل كانت الفروسة أول ما صدع من صرح الأثرة القومية . ألم تكن تجمع فى صعيد واحد بين الفرسان من مختلف الأمم ، يمترجون فى الألعاب والرياضات العامة ، تجمعهم مبادئ وروابط مشتركة؟ ولكن الفروسة من الناحية الأخرى بثت فى أنفس أبنائها وخصوصا غير المتعلمين منهم، احتقارا عميقا للفنون والمهن السلمية ، وعاطفة قوية من الغرور والأنانية والتمرد على النظم والقوانين، فكان الفارس يعتبر نفسه هو المنتقم المقتص

لنفسه ، ويطأ بقدمه كل شرع وعُرْف . هذا ولعل أسوأ ما بثه الفروسة فى مجتمع العصور الوسطى هو عاطفة وحشية من التعصب الدينى العميق . وقد رأينا أن بغض أعداء الدين من فقرات القسم الذى يؤدّيه الفارس عند الانتظام فى سلك الفروسة ، وأن الصبغة الدينية الواضحة تقترن برسوم هذا النظام . والواقع أن الكنيسة فكرت منذ الساعة الأولى أن تبسط نفوذها وسيادتها على الفروسة النصرانية ، واستطاعت أن تصل فى تحقيق هذه الغاية الى أبعد مدى . فقد فتح العرب اسبانيا واستقروا بها منذ القرن الثامن ، ثم فتحوا صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض ، وهدّدوا رومية عاصمة النصرانية أكثر من مرة ؛ وكان شبح الخطر الاسلامى يلوح للكنيسة والنصرانية أبدا قويا منذرا . ومن ثم نشأت عاطفة الدفاع عن الدين والوطن ، واستغلت الكنيسة هذه العاطفة . وكانت الدولة البيزنطية ترد وثبات الإسلام من المشرق ، فلما اضمحلت الدولة البيزنطية التى كانت تعتبرها الكنيسة سدا منيعا أوحد لحماية النصرانية من جهة المشرق ، ونهض السلاجقة يجتاحون أراضيها وينفذون الى أعماق الأناضول ، وطارت صرخة الكنيسة فى الأمم النصرانية باشهار الحرب الصليبية على الأمم الاسلامية انقاذا للقبر المقدّس فى الظاهر ، ومحافظة على سيادة الكنيسة وحماية النصرانية فى الواقع ؛ كانت الفروسة على قدم الاستعداد والأهبة لخوض غمار الحرب المقدّسة ، باسم الله وباسم الدين ؛ وهب الأمراء والسادة الاقطاعيون ، وهب الفرسان من ورائهم فى جماعات متعاقبة الى ثغور الشام وفلسطين . وكان الفارس يذهب الى ميدان الحرب مصطحبا وصيفه الخاص وعددا من الجند ؛ ويحشد كل أمير من فرسانه ما استطاع ؛ وتتميز كل جماعة بشعار أميرها وصيحته فى الحرب . وتاريخ الحروب الصليبية فياض بأخبار الحملات والبعثات الخاصة التى كان يجهزها أفراد من الفرسان ، يحاربون أحيانا فى سبيل الدين ، وغالبا طلبا للمغانم وبحثا وراء طالعهم ؛ بل نقرأ أن هذه الجماعات المغامرة كثيرا ما كانت تنقطع لأعمال السلب والنهب فى جميع الأراضى التى تمر بها .

ولكن لا ريب فى أن الفروسة بالرغم مما كان يسود صفوفها من التنافس وأسباب

الانحلال، قد أدّت الى النصرانية فى الحروب الصليبية خدمات جليلة، خصوصا اذا ذكرنا أن الفروسة الافرنجية، بما كانت تحمل من أسباب الأهبة والعدد المنيعة والدروع الدقيقة، كانت تتفوق فى كثير من الأحيان على الفروسة الاسلامية الخفيفة، لنقص فى عددها وأهبتها .

والخلاصة أن الفروسة النصرانية كانت من الوجهة المعنوية تحمل مزيجا متناقضا من الخلال الحسنة والسيئة . ويقول سان بلاى مؤرخ الفروسة، إنه اذا كانت قوانين الفروسة ورسومها تمت بأوثق صلة الى الدين والفضيلة والشرف والانسانية، فإن العصور التى ازدهرت فيها كانت عصور انحلال وعنف ووحشية، وان هذه الخلال السيئة كانت تلحق بالأخص أولئك الذين ينتظمون فى سلك الفروسة . بيد أن مبادئ الفروسة فى ذاتها كانت تعمل لتقوية النظام والفضيلة . وكانت الفروسة منذ البداية تحمل عناصر الانحلال، فلم يمض قرن على ازدهارها حتى فترت همم الفرسان، وحلت أدوات الزينة والترف فوق ظهور الجياد مكان السلاح المدجج، وانحدرت الفروسة الى فوضى العسكرية الجامحة وشهواتها ومساوئها[1] . ثم جاء اختراع المدفعية فى القرن الرابع عشر، ضربة قاضية على الفروسة وسلاحها الثقيل؛ ففقدت الفروسة من ذلك الحين أهميتها ومنعتها، ولم يمض بعيد حتى غدت نوعا من الذكريات والتقاليد .

* * *

بقيت كلمة عن الفروسة فى الاسلام . إن الفروسة كامنة فى الخلال العربية، وكان لها فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ايما شأن به فكانت قوام كثير من وقائع العرب وأيامها المشهورة، وكانت من أكبر مصادر الوحى والإلهام لشعراء الجاهلية، وكان لها منذ صدر الإسلام مقامها من الأهمية والجلال . بيد أنها لم تكن نظاما سياسيا اجتماعيا راسخا ذا قوانين ورسوم خاصة كما كانت فى أوربا، ولم تكن بادئ بدء سوى خلة أو كفاية حربية لها مقامها من الشرف والكرامة، وتحاط بنوع من

(١) G. Miller : History philosophically illustrated, ch. XIX.

التقاليد . أما الفروسة الاسلامية المنظمة ذات المبادئ والرسوم الاجتماعية ، فقد نشأت فى الأندلس ، فى ظل خلافة قرطبة ، واستقت رسومها من مبادئ الشرف ، ورقة المجاملات ، ورفعة الخلال ؛ وغدت منذ عهد الناصر وولده الحكم نظاما اجتماعيا يستظل بلوائه أهل النبل والرفعة والشجاعة ؛ وازدهرت بالأخص أيام الحاجب المنصور . يقول سديو : إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستق أخذت منه الفروسة النصرانية الكثير من خلالها ورسومها . ويقول رينو : ان أفكار الفروسة بدأت تزدهر فى هذا العهد ، أى عهد الناصر ، مقرونة بعاطفة شرف قوية واحترام للجنس الضعيف . ويقول ڤياردو : إن الفروسة وكل نظمها التى عرفت فى الأمم الغربية النصرانية ، كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والمنصور . وكانت الأندلس فى ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من كل صوب بعهد سلام وحماية من الخلفاء ، ليعقدوا المباريات مع فرسان الاسلام ، وكانت التقاليد القديمة كنداء الفارس اسم اخته أو حبيبته حين الوثوب الى ميدان القتال قد عفت فى ذلك العصر ، فكان الفارس يكتفى بأن ينزل الى الميدان واضعا فوق ذراعه أو فوق خوذته شارة من حبيبة قلبه . وكان سيدات الأندلس يشهدن المباريات والمبارزات التى تعقد فى ساحات المدن الكبرى ، فكان وجودهن يسبغ على تلك الحفلات الشائقة مسحة من السحر والظرف . أما شروط الفروسة التى يقضى بها العرف فكانت عشرة هى : التقوى ، والشجاعة ، ورقة الخلال ، والقوة ، وهبة الشعر ، والفصاحة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والسيف ، والرمح ، والقوس . وكان اجتماع الجنسين على ذلك النحو عاملا فى تهذيب المشاعر والشمائل ، وتقوية عواطف الوفاء والحياء والصدق . وقد بلغت هذه الفروسة الاسلامية ذروة قوتها وازدهارها فى مملكة غرناطة التى يفيض تاريخها بأخبار السادة والأنجاد وأحاديث شهامتهم ووفائهم مما لا يسمح المقام بالافاضة فيه ؛ وسنرى فى فصل آخر ، عند الحديث عن مصرع غرناطة ، أمثلة من ذلك السمو فى الشجاعة والوطنية والخلال ، الذى امتازت به فروسة الأندلس . ونذكر هنا على سبيل التمثيل واقعة تاريخية ، هى أن

الفرسان المسلمين حاصروا ملكة قشتالة زوج الفونسو السابع ، فى قلعة أزيكا فى سنة ١١٣٩ م (٥٣٤ هـ) فأنبت الملكة الفرسان المسلمين على مسلكهم، ورمتهم بنقص فى الشجاعة والخلال لأنهم هاجموا قلعة تدافع عنها سيدة ، فأقر الفرسان المسلمون عدالة التأنيب والتمسوا منها فقط أن تطل عليهم من شرفة القلعة ، فلما فعلت قدم الفرسان المسلمون اليها أسمى ضروب الاحترام ، ورفعوا الحصار وارتحلوا على الأثر .

هذه هى خلاصه موجزة لتاريخ الفروسة ومبادئها ونظمها نستطيع أن نستشف منها الكثير من خلال مجتمع العصور الوسطى، ومن عواطفه ونفسيته .

مواقف حاسمـــة

فى تاريخ الإســـلام

— ٢ —

الفصل الثالث عشر

السّد الكمبيادور

وقصة مملكة بلنسية

كانت فروسة العصور الوسطى ، بما تحمل من مبادئ العنف والطغيان والأثرة ؛ ومن خلال النبل والرقة والمجاملة ؛ ومن عوامل الحقد والجرأة والمخاطرة ؛ والعطف والايمان والخشوع معا ، من أغرب الصور الاجتماعية التى خلقتها نظم الاقطاع . وكانت هذه الفروسة متغلغلة فى صرح المجتمع الإقطاعى ، تسوده فى معنى من المعانى ، وتسيره طبقا لميولها وأهوائها ، وتكاد تغلب فيه على كل سلطة أخرى .

وقد كانت اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية خلال هذه العصور مهادا للفروسة ، وكان للفروسة فى كل منهما حظ وافر من التقدم والازدهار . بيد أن النضال المستمر بين الاسلام والنصرانية فى اسبانيا كان يصطبغ الى جانب العوامل القومية ، بلون عميق من التعصب الدينى ؛ فكانت الفروسة فى تلك المهاد تضطرم بهذه النزعة الدينية . وكانت ظروف الحرب والسياسة كثيرا ، ما تُخضع البواعث القومية أو الدينية لسلطان الأهواء والأغراض الشخصية ؛ وتبدو الفروسة عندئذ فى ثوب المغامرة والبحث وراء الغنم والطالع .

هذه الظواهر والخواص نجدها ماثلة بارزة فى سيرة فارس من فرسان اسبانيا النصرانية ترتبط سيرته بكثير من حوادث التاريخ الأندلسى وتعتبره الرواية والأساطير الافرنجية مثلا أعلى للفروسة القومية والنصرانية — تقول الرواية والأساطير لا التاريخ ، لأن التاريخ كما سنرى ، يدحض الكثير من هذه الأساطير ، ويخرج البطل الإسبانى فى ثوب غير الذى تسبغه عليه الأناشيد والرواية الكنسية .

هذا الفارس الأشهر هو الدون رودريجو دياز دى بيفار المعروف فى التواريخ النصرانية بالسّد الكمبيادور El Cid Campeador .

❖

لبث السِّد الكمبيادور عصورا رمزا للبطولة النصرانية، ولبثت سيرته مستقى خصبا لخيال الشعراء والكتّاب؛ ولكن هذا القصص المغرق لم يكتب إلا ليثير نزعة الدين والقومية فى شعب كان فى تلك العصور يجاهد لاسترداد أرضه التى انتزعها الاسلام منه واستقر بها منذ قرون . على أننا اذا جردنا سيرة الفارس النصرانى مما يغمرها من ألوان التعصب والمبالغة والخيال المغرق ، ألفيناه صورة عادية لفروسة العصور الوسطى له من نقائصها أكثر مما له من خلالها . أما ما تمتاز به سيرته من وفرة فى الوقائع والمعارك التى خاض غمارها ، وتفوق فى الجرأة والمخاطرة ، وسعة فى الجاه والسلطان؛ فيرجع الى ظروف عصره، والى عوامل الشقاق التى كانت تمزق خصومه أكثر مما يرجع الى كفايته و براعته وخلاله .

كتب تاريخ السد الكمبيادور أكثر من مؤرخ اسبانى . وكان أول من استقصى سيرته وكتبها بأسلوب تاريخى مجرد من الرواية والقصة، ألفونسو العاشر ملك قشتالة الملقب بالعالم؛ كتبها فى أواخر القرن الثالث عشر حينما عنى بوضع تاريخ اسبانيا العام Cronic ageneral الذى اعتمد فى كتابته على الروايات اللاتينية والاسبانية القديمة، و بعض التواريخ العربية والمنظومات التاريخية؛ أعنى بعد وفاة السد بأكثر من قرن ونصف . بيد أن هذا القسم الخاص بترجمة السد يختلف اختلافا بينا فى روحه ولغته عن كل ما تضمنه تاريخ ألفونسو العاشر . وقد اختلف النقدة فى تفسير هذا الخلاف فى الأسلوب والروح؛ ولم يوفق أحد منهم الى تعليله بصورة جلية حتى جاء العلاّمة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى الذى قضى معظم حياته فى استجلاء غوامض التاريخ الأندلسى فأثبت بمقارنات وأدلة قاطعة أن ترجمة السد هذه التى ألحقت بتاريخ ألفونسو العاشر ، إنما هى ترجمة حرفية لسيرة كتبها مؤرخ عربى بلنسى عاش أيام السد وشهد وقائعه وحروبه ، وانها تستند فى كثير من رواياتها الى بعض رسائل ابن بسّام صاحب كتاب الذخيرة[1] الذى ضمنه سيرة

(١) وهو كتاب «الذخيرة فى التعريف بمحاسن أهل الجزيرة» ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية =

أدباء الأندلس فى القرن الخامس الهجرى. وقد وضع ابن بسام كتابه المذكور حوالى سنة ٥٠٣ من الهجرة (١١٠٩ م) فى مدينة إشبيلية أعنى بعد وفاة السد الكمبيادور بعشرة أعوام فقط. فروايته عن السد أقدم رواية. ومما يرفع قيمتها أن مؤلفها يستشهد فيها بشخص عرف السد حق المعرفة ووعى صفاته وأخباره، وقد وردت هذه الرواية فى الفصل الذى كتبه ابن بسام عن ابن طاهر ملك مرسية الذى خلع من ولايتها وهاجر بعد فقد عرشه الى بلنسية ليعيش فيها، فقد أثبت له ابن بسام بعض رسائل كتبها عن حوادث بلنسية. واستطرد ابن بسام نفسه الى تفصيل هذه الحوادث بإسهاب ودقة. وتقامة هذه الرواية واضحة لأن فتح السد لبلنسية أمجد صفحة فى تاريخه. وسنعود الى مناقشة الرواية العربية فى مقامها المناسب.

*
* *

من هو السد؟ هو فارس قشتالى يدعى، كما قدمنا، رودريجو أو راى دياز دى بيفار ويلقب بالسد[1]. وهو تحريف للكلمة العربية «السيد» حيث كان يسميه المسلمون كذلك، والكمبيادور وهى تعنى فى القشتالية القديمة (المقاتل أو البراز) أطلقت على السد لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال[2]. وقد ولد السد فى برغش بين سنتى ١٠٢٦ و ١٠٤٥ م، وأبوه لايان كالفو قاضى قشتالة فى عهد فرويلة الثانى. ولا يعرف

= تحتوى على قسمين منه فقط هما القسم الأول الخاص بقرطبة وأعيانها والثانى الخاص بغرب الأندلس وأعيانه وأخبار بنى عباد. وينقصها القسمان الثالث الخاص بأخبار بلنسية وأعيانها والرابع الخاص بأخبار الجزيرة. والناقص نحو نصف الكتاب. والنسخة فى مجلدين كبيرين (٢٢٦٧ و ٢٣٤٧ أدب) ولكن الأستاذ «ليفى بروفنسال» المستشرق الفرنسى عثر على نسخة خطية كاملة من «الذخيرة» فى بعض مساجد مراكش وفاس وأذاع فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى أكسفورد فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢٨ أنه قد أصبح من الميسور أن ينشر نص كامل لكتاب الذخيرة نقلا عن هذه المخطوطات.

(١) ويعرف فى الرواية الاسلامية «القنبطور» (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧)، ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور وهو أدق تعريب للاسم القشتالى «رودريجو الكمبيادور». وكذا يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة السيراء ص ١٨٩).

(٢) هذا تفسير دوزى، ولكن ورد فى ملحق البيان المغرب (ج ٣ ص ٣٠٥) أن الكنبيطور معناها «صاحب الفحص».

التاريخ شيئا عن حداثته بل كل ما فيها يرجع الى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره عقب وفاة فرديناند الأول ملك قشتالة وليون فى سنة ١٠٦٥ م ونشوب الخلاف بين أولاده، فقد انضم الى ولده سانكو (شانجة) وسار مع قوات حليفه أحمد ابن سليمان بن هود صاحب سرقسطة لمحاربة راميرو ملك أراجون الذى هزم وقتل فى جرادوس سنة ١٠٦٨ (٤٦٠ هـ) . ثم كان الى جانب سانكو سنة ١٠٧١ حينما نشبت الحرب بينه وبين أخيه الفونسو ملك ليون فى جلباريس؛ وهزم سانكو بادئ بدء ، ولكنه جمع فلوله تحت جنح الظلام وداهم أخاه بارشاد السد فهزمه وأسره .

ولبث السّد يحارب الى جانب ملك قشتالة حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سموره (زامورا) فى العام التالى . فانتقل الى خدمة أخيه ألفونسو الذى تولى عرش قشتالة أيضا بعد مقتل أخيه، وأرسله ألفونسو الى بلاط المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ليحصل جزية تعهد بنو عباد بدفعها الى ملك قشتالة، فلبث هنالك حينا، وحمل الجزية المطلوبة وطائفة كبيرة من التحف والهدايا الى بلاط قشتالة، ولكن جماعة من أعدائه وشوا به الى ألفونسو؛ وكان ألفونسو يحقد عليه منذ تحالفه مع أخيه عليه فنفاه من بلاطه وأراضيه فى سنة ١٠٨١

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقا فى حياة السد الكمپيادور، فيبدو مغامرا يبحث وراء طالعه ويخرج على كل اعتبار دينى أو قومى ، فيؤجر نفسه وسيفه وصحبه تارة لأمراء المسلمين، وتارة لأمراء النصارى، ويندس الى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك، ويطلب الغنم والسلطان حيثما استطاع . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة وقتئذ مما يفسح الميدان لأطماع مغامر كالسد ، فقد كان ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الدولة الأموية وشادوا دولهم الصغيرة فى المدن والثغور الأندلسية ، يمزق بعضهم بعضا، ويدس كل منهم للآخر، ويستعين على حربه بالمرتزقة النصارى، أو بمحالفة أمير نصرانى . وكانت هذه الخصومة الطائشة يضطرم لظاها بوجه خاص بين الإمارات الشمالية التى استقر فيها بنو هود فيما بين بلنسية

وسرقسطة . فالى هذا الميدان المضطرم هبط السد وجيشه المرتزق والتحق بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة . وكان المقتدر يسعى منذ بعيد الى سحق أخيه المظفر أمير لاردة ، فاستعان على حربه بالناڤاريين (البشكنس) والكاتلان حتى ظفر به أخيرا وسجنه ، فكان المظفر أسيرا وقت أن حل السد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعدئذ بقليل فى سنة ١٠٨١ م بعد أن قسم أراضيه بين ولديه ، فخص المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة . ولكن سرعان مادب الخلاف بين الأخوين وثارت بينهما الحرب فاستعان المنذر بسانكو راميرز ملك أرجوان وكونت برشلونه ، وحارب السد الى جانب المؤتمن وعاث مرارا فى أراضى خصومه وهزمهم فى النهاية عند أسوار قلعة المنارة ، ثم عاد الى سرقسطة ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء وبالغ المؤتمن فى إكرامه وإثابته . وكان نفر من أنصار المظفر بن هود قد خرجوا على المؤتمن نصرة لأميرهم واستغاث المظفر فى سجنه بملك قشتالة فأغاثه ، وأرسل الجند لقتال المؤتمن ولكن المظفر مالبث أن توفى فى سجنه وهدأت الثورة . ثم نشبت الحرب ثانية بين المنذر والمؤتمن فسار السد الى قتال المنذر وحلفائه وهزمهم هزيمة شنيعة وعاد الى سرقسطة مثقلا بالغنائم والأسلاب.

ثم توفى المؤتمن سنة ١٠٨٥ فخلفه ابنه المستعين والتحق السد بخدمته أيضا . ولسنا نعرف شيئا عن أعمال السد فى خدمة هذا الأمير فى بضعة الأعوام التالية ولكن الذى نعرف هو أن السد عقد مع المستعين فى سنة ١٠٨٨ اتفاقا بغزو بلنسية ، وهنا تبدأ أهم مرحلة فى مخاطرات السد الكمپيادور وهى المرحلة التى جعلت منه بطلا قوميا لإسبانيا النصرانية .



وكانت بلنسية فى ذلك الحين فريسة الاضطراب والفوضى . وكانت منذ تصرم سلطان بنى أمية مهبط المتغلبين والطامعين ، فاستولى عليها بادئ بدء حفيد للحاجب المنصور يسمى عبد العزيز المنصور . ثم خلفه ابنه المظفر ، ولكن صهره المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة خلعه وأسره وضم بلنسية إلى أعمال طليطلة . وكان

القادر خلف المأمون ضعيف العـزم والارادة، فخرج عليه حاكم بلنسية أبو بكر بن عبد العزيز واستقل بحكمها، واحتمى بالفونسو السادس وتعهـد له بجزية سنوية، ولكن ألفونسو ما لبث أن تخلى عن حماية بلنسية و باعها للقادر، ثم تحوّل بعد ذلك الى إغراء القادر وخديعته و إضعافه بالإغراء تارة والوعيـد والدس أخرى، حتى نضبت موارده وقواه ؛ وأخيرا حاصره فى طليطلة حتى أذعن لمطالبـه واضطر أن يسـلمه طليطلة على أن يفتتح له ألفونسو بلنسية ويسلمها اليـه ؛ ودخل ألفونسو السادس طليطلة حاضرة القوط القديمة فى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ (المحرم سنة ٤٧٨ هـ) وذهبت دولة بنى ذى النون وانهارت لأول مرة دعامة وطيـدة من دعائم اسـبانيا المسلمة . وهنا بحث ابن عبد العزيز صاحب بلنسية عن عضـد يحتمى به فلم يجد سوى المؤتمن صاحب سرقسطه ففاوضه وقدّم اليه ابنته عروسا لابنه المستعين ، فوافقه المؤتمن واحتفل بزواج ابنه فى حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء . ثم توفى ابن عبـد العزيز بعـد أن حكم بلنسية زهاء عشرة أعوام ، فدب الخلاف بين ولديه و بين البلنسيين أنفسهم، ورأى القادر بن ذى النون الفرصة سانحة لتحقيق أمنيتـه ، فزحف على بلنسـية فى جيش من النصارى أمدّه به ألفونسو، وخشى البلنسيون عاقبة الحرب فسلموا اليه المدينة دون قتال؛ ودخل القادر بلنسية واستقرّ بهـا ومال على أهلها وأرهقهم بالمغارم، واضطرب حبـل النظام والأمن ، وعاث النصارى فى المدينة وما يجاورها من الأراضى حتى اضطر كثير من أشرافها أن يغادروها إلى البلاد الأخرى .

فى ذلك الحين جاز المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشـفين إلى الأندلس فى جيوش جرارة نصرة لأمراء الأندلس وحماية للاسلام الذى كاد يسحقه نصارى الشمال، واضطر ألفونسو أن يسير للقائه فى كل جنده، فجلا القشتاليون عن بلنسية؛ والتقت جيوش الاسلام والنصرانية فى الزلاقة، فى يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ (١٤ رجب سنة ٤٧٩ هـ) فدارت الدائرة على النصارى، وخبت حماستهم حينا بعد ذلك، وانتعش ملوك الطوائف نوعا .

ولما غادر النصارى بلنسية ثار حكام القلاع المجاورة على القادر ، وسار المنذر ابن هود صاحب دانية لغزو بلنسية ، فاستغاث القادر بالمستعين صاحب سرقسطة ، ورأى المستعين الفرصة سانحة للاستيلاء على بلنسية ، فتعاهد سرا مع حليفه السد على أن يتعاونا على افتتاحها ، وأن تكون الاسلاب كلها من نصيب السد ، والمدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكان جيش السد فى ذلك الحين يبلغ زهاء ثلاثة آلاف مقاتل . فلما علم المنذر بذلك رفع الحصار عن بلنسية قبل أن يقدم اليها خصومه وعاد أدراجه .

أما المستعين والسد فسارا إلى بلنسية . وهنا يكشف السد القناع عن حقيقة خلاله ، فنراه مغامرا لاذمام له يبيع العدو والصديق معا . ذلك أنه تلق من القادر فى الخفاء تحفا ثمينة ، فماطل فى غزو المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو وأن محاربته محاربة لألفونسو ، ونصح القادر سرا بألا يسلم المدينة لأحد ، ووعد المستعين والقادر كل بمعزل عن الآخر أنه سيعاونه على تحقيق بغيته فى الفرصة الملائمة ، وأرسل فى الوقت نفسه إلى ألفونسو يؤكد له خضوعه وإخلاصه ، ثم زار قشتالة وتفاهم مع ملكها فأقطعه بعض الحصون ، وأقره على ولاية كل ما يفتتحه من أراضى المسلمين لتكون ملكا له ولعقبه . على أنه ما لبث أن فقد هذه الحظوة عند ملك قشتالة لمطله فى إجابة دعوته بالسير معه إلى محاربة المرابطين ، وفقد كذلك منصبه فى بلاط سرقسطة منذ ارتاب المستعين فى إخلاصه ومشاريعه .

عندئذ أصبح السد قائد جيش من المرتزقة أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة تجوب أنحاء الولايات الشرقية الشمالية طلبا للاغتنام والسلب . وتوترت العلائق بينه وبين جميع الأمراء والحكام فى تلك النواحى ، وأخذوا جميعا يدبرون محاربته وسحقه ، وكان أنشطهم الى ذلك الكونت برنجر أمير برشلونة ، ولكن السد هزمه وأسره مع نفر من بطانته ولم يطلقهم إلا مقابل فدية كبيرة ثم تحالفا بعد ذلك ، وكان السد قد غدا وقتئذ مثار الخوف والروعة فى هاتيك الانحاء وفرض الإتاوة على معظم المدن والقلاع .

وكان ألفونسو يتوق الى معاقبة السد لمطله وخياناته المتعددة فلم ير خيرا من أن يفتتح بلنسية التى كان السـد فى الواقع سـيدها الحقيق ، وبذلك ينزعه أمنع معقل لسيادته ونفوذه ، فحاصرها من البر والبحر سنة ١٠٩٢ م ، ورأى السـد خير وسيلة لإرغامه على رفع الحصار ، أن يعيث فى أراضى قشتالة ذاتها ، فاجتاح منها منطقة شاسعة ، وانقض على مدنها وقلاعها انقضاض الصاعقة يمعن فيها قتلا وتخريبا حتى اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار وأن يعود أدراجه .

***

فى ذلك الحين اشتد الإضطراب فى بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا نير الإستعباد الذى فرضه السـد على المدينة . وكان قاضى المدينة جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع الى انتزاع السلطة . وكان المرابطون قد اقتربوا من مقاطعة بلنسية باستيلائهم على دانيـة ومرسية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشـة ووعده ببلنسية اذا ساعده على محاربة القادر والسـد ، ووافقه ابن عائشة على ذلك ؛ وفى ذات يوم وفدت شرذمة من جند المرابطين على المدينة ، فاشـتد بها الهرج والاضطراب ، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب السد فى المدينة ، وبحث عن القادر الذى فر من قصره حتى عثر به وأمر بقتله فقتل ونهب قصره . وآلت السلطة بذلك الى « الجماعة » واختير ابن جحاف رئيسا لها فتولى زمام الأمور وأخذ يحشد الجند ويحصن المدينة . وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٠٩٢ (رمضان سنة ٤٨٥) .

ولما علم السد بذلك ولى فى الحال شطر بلنسية ، فاجتمع اليه أنصار الملك المقتول وفرض المغارم والأقوات على الحصون الواقعـة فى طريقه . ووصل الى ظاهر بلنسية فى منتصف سنة ١٠٩٣ بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، ولم تمض أيام حتى استولى على معظم الأنحاء القريبة ، وانقض على المرابطين والبلنسيين فأمعن فيهم قتلا وجرحا وأسرا ، واقتحم « الكدية » ضاحية المدينـة ، واضطر أهلها الى الاذعان والصلح ، ثم ضـيق الحصار على المدينـة ذاتها . فآثر البلنسيون الصلح ،

وفاوض ابن جحاف السد وانتهى الأمر بعقد الصلح على أن يغادر المرابطون المدينة، وأن تدفع إلى السد جزية شهرية قدرها عشرة آلاف دينار ، ولم يمانع المرابطون فى ذلك لما تولاهم من السأم فى بلد لاتهدأ له ثائرة. وعاد السد فرابط بجيشه فى قلعة كبولا غير أنه لبث يتردد على ضواحى المدينة و يرهق ابن جحاف بشروطه، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى ومن خروج بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين عليه؛ ثم بالغ السد فى مطالبه وطلب الى ابن جحاف أن يسلمه كل موارد المدينة وأن يقدّم ابنه رهينة . ولكن ابن جحاف أبى الاذعان وأغلق أبواب المدينة، وكتب الى ملك سرقسطة يستصرخه للغوث؛ فأرسل اليه المستعين يعده خيرا، واستغاث أيضا بالفونسو السادس فوعده كذلك . واعتزم ابن جحاف مقاومة السد الى آخر لحظة ، واستؤنفت الحرب . فضرب السد حول المدينة حصارا صارما ، وعاث فى الأنحاء المجاورة، ولم يدخر وسيلة لقطع الأقوات عن المدينة خوفا من أن تمتنع عليه حتى يدهمه المرابطون . ولبث الحصار على هذا النحو عشرين شهرا حتى ضاق البلنسيون ذرعا، وفتك الجوع بهم أيما فتك ، وغدوا كالأشباح هزالا . وهنا اجتمع أعيان المدينة وأرغموا ابن جحاف على أن يفاوض السد فى عقد الصلح فأذعن ؛ وترك لهم أمر المفاوضة . فذهب وفد منهم لمفاوضة السد . وتم الإتفاق على أن يبعث البلنسيون برسلهم الى ملك سرقسطة والى ابن عائشة قائد المرابطين يستنجدونهما لغوث بلنسية فى ظرف خمسة عشر يوما ، فإذا لم يحضر أحدهما لنجدتها فى هذه المدة سلمت المدينة بالشروط الآتية : أن يبقى ابن جحاف حاكما للمدينة، وأن يؤمن على نفسه وماله وأسرته، وأن يؤمن السكان على أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب السد الإشراف على تحصيل الضرائب، وأن تحتلها حامية من النصارى المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يرابط السد بجيشه فى كبولا ، وألا يغير شيئا من شرائع المدينة وأحكامها . وعلى ذلك عقدت الهدنة وسافر الرسل فى طلب النجدة . ولكن مضت الخمسة عشر يوما قبل أن يعود أحد منهم؛ ففى الغداة خرج ابن جحاف ومعه أعيان المسلمين والنصارى

ووقعوا عهدا بتسليم المدينة بالشروط المتقدمة . وفى ظهر هذا اليوم، يوم ١٥ يونيه سنة ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) — فتحت بلنسية أبوابها للسد الكمبيادور وجنده القشتاليين[١]، فدخلوها واحتلوا أبراجها خلافا لشروط المعاهدة، وجمع السد أشراف المدينة وألقى فيهم خطابا وعد فيه أن يسير شؤون المدينة بالعدل، وأن يستمع لظلامات الأهالى، وأن يحميهم، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها ؛ ولم يستمع سامع إلى تذمر أو ظلامة ؛ وبدا السد فى ثوبه الحقيق فأمر أشراف المدينة أن يسلموا اليه القاضى ابن جحاف، فقبضوا عليه وعلى أفراد أسرته وقدموهم اليه فزجهم فى السجن. وجعل إقامته فى القصر السلطانى واحتل جنده القشتاليون كل حصون المدينة ، وبذلك نقض كل شروط المعاهدة . ثم عمد السد إلى تعذيب القاضى ابن جحاف، وطالبه بأموال القادر وذخائره ؛ واستلب كل أمواله ، ثم أمر بحرقه فأحرق علنا مع نفر من أسرته ، وأحرق أيضا جماعة من الأعلام منهم أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور . ومال السد بعد ذلك على البلنسيين فأذلهم وأرهقهم بالمغارم وصنوف الاضطهاد، فغادر بلنسية معظم أهلها المسلمين واحتل النصارى أحياءهم، وغدا السد كأنه ملك متوج باستيلائه على ثغر من أعظم الثغور الاسبانية .

* * *

ولبث السد فى بلنسية بضعة أعوام يعيث بجيشه فى تلك الأنحاء، وحالف بطرس الأول ملك أراجون ، واستولى على بعض الحصون القريبة وأخذ يدبر المشاريع الضخمة . ولكن المرابطين كانوا ساهرين يرقبون حركاته، فعادوا إلى مرسية، واعتزموا استعادة بلنسية، واشتبكوا مع جيش السد فى عدة معارك محلية، وهزموه فى شاطبة . وكان السد قد اشتد عليه المرض فى ذلك الحين فتوفى غما وألما فى يوليه سنة ١٠٩٩ . وزحف المرابطون على بلنسية ؛ ولكن شمينا زوجة

---

(١) نفح الطيب — ج ٢ ص ٥٧٧ . ولكن ابن الأبار يقول إن استيلاء السد عليه بلنسية كان كان فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) — (الحلة السيراء ص ١٨٩) .

السد تولت مكانه الدفاع عن المدينـة واستطاعت أن تقوم بذلك مدى عامين . واستغاثت بألفونسو السادس ، ولكن ملك قشتالة لم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو فى مواقع نائية عن أملاكه ،وأشرف المرابطون فى جيش ضخم بقيادة أميرهم أبى محمد المدزلى على أسوار المدينة فى شهر اكتوبر سنة ١١٠١ ، فاضطرت شمينا وأصدقاؤها إلى مغادرة المدينة ولكن بعد أن أحرقوها وتركوها أطلالا دارسـة ؛ وحملت شمينا معها جثة زوجها لتدفنها فى أرض نصرانية . وفى ٥ مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) استعاد المرابطون بلنسية ووقفت بذلك مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء حينا .

هذه هى قصة السد الكمپيادور ، قصة فارس جرىء مغامر يجمع فى شخصه كل رذائل عصره ، لا قصة بطل خارق وقديس . ولكن الآداب النصرانية ، والقشتالية بوجه خاص ، تحاول أن تصور منه مثلا أعلى للبطولة القومية ،وتحيط تاريخه بطائفة كبيرة من الأساطير العجيبة ، فيروى مثلا أن الأهالى كانوا يعتبرونه قديسا ويحجون إلى مزاره ليتبركوا بجثته التى حنطت وأودعت تابوتا مفتوحا فى كنيسة سان پيدرو دى كاردينا ؛ وأن يهوديا حاول مرة أن يمس الجثة فتحركت يدها اليمنى وقبضت على السيف الذى كانت تعتقله فسقط اليهودى مرتاعا . ثم دفنت الجثة بعد ذلك ونقلت مرارا إلى أماكن مختلفة . ويروى أن تابوت السد فتح فى أيام شارل الخامس سنة ١٥٤١ فانتشرت منـه رائحة ذكية ، ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ومعها سيف ورمح ، وكان الشَّرق عظيما فى تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير روى جميع أرجاء قشتالة ؛ الى غير ذلك من الأساطير .

⁂

نعطف بعد ذلك على الرواية العربية التى يرجع الفضل اليها فى تسجيل تاريخ السد الحقيق ، والتى بقيت ترجمتها القشتالية فى تاريخ ألفونسو العام مصدرا وحيدا لهذا التاريخ . هذه الرواية العربية التى أثبت المؤرخ المستشرق دوزى كما قدمنا أنها أصـل للرواية القشتالية ، كتبها على ما يستفاد من سـياقها كاتب بلنسى عاش أيام السد ، ووقف على سيرته وأعماله . ولمـا كانت هذه الرواية تقف عند دخول السد

بلنسية فإن دوزى يرتاب فى أن كاتب السيرة قد لقى حتفه فى الاضطرابات التى وقعت عندئذ ، بل يرتاب فى أنه قد يكون الأديب أبا جعفر بن البناء الذى أحرقه السد مع من أحرق من أعلام بلنسية عقب افتتاحها . وقد فقدت هذه الرواية العربية ولم تبق منها إلا ترجمتها القشتالية التى يشهد روحها وأسلوبها بأصلها العربى[١].

ولكن بقيت لدينا رسالة ابن بسّام التى وردت فى كتابه « الذخيرة » وأتى فيها على لمحة من سيرة السد وأعماله وصفاته وخصوصا وقت ثورة ابن جحاف . وأول ما يذكر ابن بسام السد الكمبيادور فى هذه العبارة : « ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر هذا فى البقاء حتى تجاوز مصارع جماعة الرؤساء، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يدى الطاغية الكنبيطور قصمه الله، وجعل بذلك الثغر فى قبضته سنة ٨٨ » ثم يستطرد ابن بسام بعد ذلك الى ذكر سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ، وسقوط بلنسية فى يد السد فى عبارة مسجعة ولكن قوية بليغة . ويبدأ بذكر التحاق السد بخدمة ابن هود ويصفه فى هذه العبارة : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنترى الى وقتنا هذا على سرقسطة بعساكر أمير المسلمين (يشير الى المرابطين) تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكلب الجلالقة يسمى بردريق ويدعى بالكنبيطور . وكان عقالا ، وداء عضالا ، له فى الجزيرة وقائع على طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع . وكان بنو هود قديما هم الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها وأدانيها شره ... » ثم يصف افتتاح السد لبلنسية فى قوله : « وقوى طمع رذريق فى ملك بلنسية فلزمها ملازمة الغريم ، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، ينسف أقواتها ، ويقتل حماتها ، ويسوق اليها كل منية ، ويطلع عليها من كل ثنية . فرب ذروة عز

---

(١) أشار صاحب البيان المغرب (ج ٣ ص ٣٠٦) فى كلامه عن حوادث بلنسية ودولة القاضى ابن جحاف الى أن المؤرخ أبو العباس أحمد بن علقمة كان موجودا يومئذ ببلنسية ، وشهد السد وأعماله فيها ، وأورد سيرته مفصلة فى « تاريخه » .

قد طالما بلدت الأماني والنفوس دونها ، ويئست الأقمار والشموس من أن تكونها ، قد ورد لذلك الطاغية يومئذ معينها ... وتم للطاغية مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ٨٨ على وجه من وجوه غدره ، وبعد إذعان من القاضي المذكور (يشير الى ابن جحاف) لسطوة كبره ، ودخوله طائعا في أمره ، على وسائل اتخذها وعهود ومواثيق بزعمه أخذها لم يمتد لها أمد ، ولا كبر لأيامها عدد» ثم يلخص خلال السد في هذه العبارة القوية «وكان هذا البائقة وقته في درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهي صرامته ، آية من آيات ربه» . ويستطرد ابن بسام بعد ذلك الى ذكر افتتاح المرابطين لبلنسية طبقا لما فصلنا . وترى مما تقدم أن عبارته المسجعة المنمقة لم تمنع من دقته في ترتيب الوقائع التاريخية وضبطها[1] .

نستطيع إذن أن نرجع في هذا القسم من تاريخ اسبانيا النصرانية الى مصدر عربي ثقة هو المصدر الوحيد كما رأينا لتاريخ الكمبيادور . وقد رأينا أن ظروف اسبانيا المسلمة ، وما غمرها يومئذ من الخصومات والحروب الأهلية ، هي التي مهدت سبيل الظفر والفخار للفارس القشتالي ، فاستطاع بجرأته ودهائه أن يستثمر هذه الخصومة الى الذروة ، وأن يجني من المغامرة والخيانة والدس ما لم تجنه الجيوش الجرارة[2] .

---

(١) وردت هذه الرسالة في القسم الثالث من كتاب «الذخيرة» وهو ليس بين أيدينا ، لأن مخطوط دار الكتب ينتهي بالقسم الثاني ، ولكن دوزي اطلع عليها في مخطوط آخر ، ونقل منها هذه الفقرات في كتابه عن السد Le Cid ، وكذلك نقلها ابن الأبار في الحلة السيراء (ص ١٨٩) .

(٢) راجع في تفاصيل هذه الحوادث : دوزي في كتابه Le Cid ، وكذلك في كتابه Recherches sur l'Hist. et Litter. d'Espagne وأيضا في كتابه Hist. des muslmans d'Espagne (ج ٣ الطبعة الجديدة) وراجع أيضا نفح الطيب للمقري (ج ٢ ص ٥٧٧) والبيان المغرب لابن عذاري (ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦) والحلة السيراء لابن الأبار (ص ١٨٩) .

الفصل الرابع عشر

سقوط طليطلة

لبثت اسبانيا المسلمة نحو ثلاثة قرون كتلة واحدة، تخضع لحكومة مركزية واحدة هى حكومة قرطبة، ولا تعرف داخل شبه الجزيرة خصما سوى اسبانيا النصرانية . فلما تقوض آخر صرح للدولة الأموية الأندلسية، بعد أن سلبتها الدولة العامرية سلطانها، واستأثرت بتراثها ورسومها، وهوى الغاصب والمغصوب معا الى نفس الهاوية التى حفرتها يد المطامع والأهواء المضطرمة، سقطت اسبانيا المسلمة، فريسة الطغيان والفوضى، واجتاحها سيل جارف من الإنحلال والتفرق، ووثب الجوارح المتطلعون الى الرياسة، الظمأى الى السلطان والملك، بالفريسة الممزقة فأجهزوا عليها، وتخاطفوا أشلاءها، وشادوا فوق أنقاضها دولا و إمارات عدة، ما كادت تستقر دعائمها حتى نشطت الى تمزيق بعضها البعض، وتفرغت لخوض غمار طاحنة من الحروب والمعارك الداخلية لم تنته حتى صرعت بجملة على يد دول جديدة قامت فى الضفة الأخرى من المضيق[1]، و وجدت فى الأندلس ميدانا شاسعا لتحقيق أطماعها فى السيادة والملك الباذخ؛ ثم لقيت حتفها متعاقبة على يد عدوها القديم الذى لم يفتأ خلال القرون يتحين الفرصة لاستعادة وطنه من قبضة الاسلام و رده الى حظيرة النصرانية .

هؤلاء الرؤساء الذين ورثوا ملك الدولة الأموية بالأندلس يسمون « ملوك الطوائف » . وقد وثبوا الى الطليعة إبان العاصفة، وهم ما بين وزير سابق، وحاكم لاحدى المدن، وشيخ للقضاء، وكبير من ذوى المال والحسب؛ وأنشأوا لهم

(١) نريد المرابطين والموحدين .

حكومات مستقلة وأسرا ملوكية، وسماشان بعضهم، وامتد سلطانه الى أكثر من ولاية من الولايات الكبيرة مثل بنى هود فى سرقسطة والثغر الأعلى (أراجون) وبنى عباد فى إشبيلية التى ازدهر فيها بلاط كاد يعيد سيرة البلاط الأموى الذاهب فى الفخامة والبهاء .

وقد كان فى وسع هذه الدويلات الجديدة أن تقيم سدا منيعا فى وجه اسبانيا النصرانيـة لو اتحدت كلمتها، أو كلمة بعضها، على مقاومة العدو المشترك؛ غير أنها شغلت عن الخطر العـام الذى يهدد حياتها جميعا، بالمنازعات الشخصية والمعارك الداخليـة، بل لم يحجم بعضها عن أن يظاهر ملوك الشمال على البعض الآخر، فلم يمض غير بعيد حتى كان معظمها يدفع الاتاوة لقشتالة واراجون وبعضها تابعا لملوك الشمال .

* * *

وكانت طليطلة أول ركن منيع انهار من صرح الاسلام فى الأندلس . وكانت منذ أواخر القرن الخامس حاضرة القوط من خلفاء «ألاريك» . ولكن العرب لم يروا أن يتخذوها عقب الفتح قاعدة لدولة الاسـلام فى اسبانيا، بل اتخذوا إشبيلية، ثم استبدلوها غير بعيـد بقرطبة التى لبثت قاعدة الولاة، ثم قاعدة للدولة الأموية . وكانت طليطلة مدينة ثائرة شديدة المراس لقى عبد الرحمن الداخل وخلفاؤه فى حكمها وإخضاعها صعابا وخطوبا؛ فلما سقطت الدولة الأموية خرجت المدينة التالدة فيمن خرج، واستقلت بشئونها حينا حتى تسنم حكمها اسماعيل بن ذى النون الملقب بالظافر . وكان اسماعيـل من بيوتات شنت برية (سانتا ماريا) فلمـا توفى والى طليطلة أيام الاضطراب استدعاه جندها لحكم، فلبى الدعوة، وأنشأ لنفسه فى طليطلة أسرة ومُلكا، وكان ذلك فى منتصف القرن الحادى عشر (سنة ٤٢٧ هـ) . ثم توفى لعامين من حكمه، فخلفه ابنه المأمون يحيى . وكان أميرا ذا عزم واطماع فدفع حدود مملكته شرقا وجنوبا، واستولى على بلنسية من حاكمها، وهو من ولد بنى عامر . وكانت الحرب الأهلية تضطرم يومئذ فى سائر جنبات الأندلس، وتحمل الى مروجها

الجميلة صنوف الخراب والويل . وكان أولئك الرؤساء الذين اقتسموا ميراث الدولة الأموية ، يتربص بعضهم ببعض ، ويحاول كل منهم أن يوسع ملكه على حساب الآخر . وكانت قرطبة وأشبيلية وطليطلة أطراف هذه المعركة الخطيرة على مستقبل الاسلام فى اسبانيا . وكانت قرطبة فى يد آل جهور ، وإشبيلية فى يد بنى عباد أقوى ملوك الطوائف وأشدهم بأسا . وكانت سياسة المعتضد بالله العبادى هى محور هذه الحرب الأهلية فى الواقع ، فقد كان يطمح الى افتتاح ما حوله من المدن والمقاطعات ، والى الاستئثار بتراث الدولة الأموية كله ؛ وكان ابن جهور من جهة أخرى يحاول أن يوسع حدوده ؛ وكان ابن ذى النون يتجه ببصره نحو الثغور الشرقية حيث استولى منها على بلنسية كما قدمنا ، ويطمح من جهة أخرى الى انتزاع قرطبة من يد ابن جهور . وكان المعتضد بالله يعمل على إثارة الحرب الاهلية بين صغار الأمراء ، فيحرض بعضهم من جهة وينجد المغلوبين من جهة أخرى ، ويرقب مجرى الحوادث وسنوح الفـــرص .

وكان ابن ذى النون يشد أزر ولاة المدن والحصون التابعة لقرطبة التى يحاول ابن جهور أن يخضعها لسلطانه ؛ وكانت أعمال قرطبة من جهة أخرى تجاور أعمال طليطلة فى أنحاء كثيرة ، فأغار ابن جهور على أراضى ابن ذى النون وعاث فيها مرارا ؛ فغضب ابن ذى النون ، واعتزم أن يغزو قرطبة ، وعقد الهدنة مع فرديناند الاول ملك قشتالة ليأمن جانبــه أثناء اشتباكه مع خصمه . ثم زحف على قرطبة بجيش ضخم ، واستغاث ابن جهور بابن الأفطس ملك بطليوس (باداجوس) وابن عباد ، فلبى الأول نداءه ، واعتذر ابن عباد باشتغال قواته بمحاربة أمير قرمونة ، وبعد عدة معارك صغيرة كانت سجالا بين الفريقين التقى الجيشان أخيرا بين قونقة وطليطلة . وكان جيش قرطبة وبطليوس بقيادة الحارث بن الحكم أشهر جندى فى ذلك العصر ، وكان ابن ذى النون يقود جيشه بنفســه . فنشبت بين الفريقين موقعــة طويلة رائعة ؛ وكان النصر حليف ملك طليطلة ، فارتد الجيش المنهزم الى قرطبة ، وارتاع ابن جهور ، وكان شيخا هدمه الإعياء واليأس ، وكان ولده عبد الملك متفرغا لبذخه

ولهوه فى قصور الزهراء، فهب أخيرا لتلافى النكبة واستغاث بصديقه ورفيق حداثته المعتضد، فاحتفى به ورده بأطيب الوعود. ولكن الجيش الظافر أحاط عندئذ بقرطبة، وشدد عليها الحصار وقطع كل علائقها، فانسل جماعة من أنجاد القرطبيين، وهرعوا ثانية الى ابن عباد، ونبؤوه بالخطر الداهم. فرآها ابن عباد فرصة ملائمة لتحقيق جزء من مشروعه الضخم، فانفذ للحال جيشه بقيادة ولده محمد لانقاذ المدينة، ووقعت بين قوات ابن عباد وابن ذى النون تحت أسوار قرطبة معركة حاسمة، هزم فيها ابن ذى النون وولى بجيشه مهزوما شطر طليطلة.

وكان روح مشاريع ابن عباد عندئذ رجل وافر الذكاء والجرأة، هو الوزير ابن عمار، وهو من شخصيات الأندلس المعدودة فى الدهاء والسياسة. وكان يشهد المعركة ويرقب تطوراتها، فلما رأى انشغال القرطبيين بنهب معسكر المهزومين دخل قرطبة على رأس سرية قوية، واحتل قلاعها وقصورها، وقبض على الملك الشيخ وسجنه فمات فى بضعة أيام غما وقهرا. وما كاد ولده عبد الملك يعود من مطاردة خصمه حتى علم بالحقيقة الرائعة، فسار الى أسوار المدينة، وهنالك تألب عليه جند ابن عباد وأثخنوه جراحا ثم قبضوا عليه وزجوه الى السجن فمات فيه بعد قليل. واستمال ابن عباد أهل قرطبة بالتحف ورقيق المعاملة والحفلات الشائقة، فانفضوا عن ملكهم القديم، إلا الحارث بن الحكم فانه لم يصبر على تلك الخيانة والذلة، فارتد الى ملك طليطلة المهزوم واحتمى به؛ وهكذا تم لابن عباد ما أراد من الاستيلاء على العاصمة الأموية، وبلغ فى ذلك الحين ذروة بأسه، وبلغت مملكته أعظم حدودها.

وأما ابن ذى النون فلزم السكينة حينا حتى يصلح جيشه وينظم أهبته. ولكنه كان يضطرم توقا الى الانتقام لهزيمته، وكان الحارث من جهة أخرى يحثه ويحرضه. نعقد الهدنة مع ملك قشتالة، وكتب الى صهره عبد الرحمن المظفر ملك بلنسية ليمده بجيشه فأبى خوفا من سطوة ابن عباد وسطوة حلفائه المحيطين به؛ فحقد عليه ابن ذى النون، وسار فى قواته خلسة الى بلنسية ودخلها، وقبض على

عبد الرحمن ، واكتفى بخلعه رأفة بابنته ، ونادى بنفسه ملكا مكانه .

وفى ذلك الحين توفى المعتضد بالله العبادى (٤٦١ هـ — ١٠٦٩ م)، وخلفه ابنه محمد المعتمد على الله، فرأى ابن ذى النون فى ذلك الظرف فرصته، لأن محمدا لم يكن كأبيه حزما وعزما و بأسا؛ورأى أن يغزو حلفاءه أولا، فغزا مرسية وتدمر، فاستغاثا بحليفهما ملك إشبيلية، وكان عندئذ مشتغلا بمحاربة مالقة وغرناطة، فأوفد اليهما ابن عمار فى قوات قليلة، واشترى الوزير الداهية محالفة الكونت رايموند أمير برشلونة (برشنونه) بمبلغ من المـال . ولكن ابن ذى النون هزم الحلفاء جميعا . وجاء ابن عباد بقواته فى اللحظة الأخيرة لحال نهر شقر (سجورا) بينه و بين حلفائه حتى تمت الهزيمة، ولم يسرف ابن ذى النون فى الاستفادة من نصره، فأبقى ملك مرسية كما هو تحت حمايته ولكن ملك تدمر آثر الفرار، فاحتمى بالكونت ولكن الكونت اعتقله حينا حتى افتداه ابن عمار بالمـال .

ولم يرد ابن ذى النون أن يمهل خصمه حتى يصلح من شأنه ، لحشد قواته فى العام التالى (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) واستأجر من ملك قشتالة فرقة من الفرسان، وقاد الجيش الحارث بن الحكم فزحف بسرعة على قرطبة واستولى عليها، وقتل فيها سراج الدولة ولد المعتمد و رفع رأسه فوق رمح ؛ ثم بادر بالزحف على إشبيلية ودخلها . وكان المعتمد فى ذلك الحين يحارب بجوار مالقة، وقواته مشتتة فى كل ناحية ، فلما بلغته أنباء النكبة أقسم بالانتقام و جمع كل قواته وأسرع الى إشبيلية . وكان المأمون ابن ذى النون ما زال فيها ، وكان مريضا فتوفى فى ذروة نصره أثناء حصار ابن عباد للمدينة ، وذاع الخبر رغم التكتم وتحطمت بذلك آمال جيشه . وخشى القادة التمرد، وثورة الإشبيليين، فشقوا لأنفسهم طريقا فى الجيش المحاصر، وغطيت مؤخرتهم بأكداس قتلاهم . ودخل محمد مدينته معتزما أن ينتقم من أعدائه شر انتقام . وكان الخوف قد فرق كلمتهم فامتنع الحارث بقرطبة، ولكن ابن عباد ما كاد يظهر تحت أسوارها حتى ثار عليه القرطبيون، فخشى الغدر، وفر من باب قرطبة الشرقى بينما دخل ابن عباد من بابها الغربى . وكان المعتمد يضطرم رغبة

فى القبض على الحارث ومعاقبته بجد فى مطاردته حتى لحقه ، ويقال انه خشى افلاته فلما اقترب منه رماه بحربتـه بمهارة فاخترقت جسـده وخر قتيلا . ثم أمر بجثته فربطت مع جثـة كلب ، وعرضت فوق قنطرة المدينـة وعليها كتابات مزرية . وبذلك انتقم ابن عباد لمقتل ولده أشنع انتقام .

* * *

وخلف المأمون ولده يحيى الملقب بالقـادر فى ظروف عصيبة، ولكنه لم يرث عزمه وبأسه ودرايته بل آثر اللهو والحياة الناعمة . وكما رأى المأمون فرصة سانحة فى موت المعتضـد فكذلك رأى المعتمد فرصـة سانحة فى موت المأمون . فأنفذ جيوشـه فى جهات مختلفة من أملاك ابن ذى النون، واستولى على مرسية ولورقة وغيرها من ملحقات طليطلة ، وسلخ حلفاءه منه ؛ والقادر يشهد هـذه الخطوب غير مكترث ولا هياب للخطر الذى يهـدد ملكه . وكانت عناصر الشعب تضطرم فى طليطلة ذاتها ، يذكيها الناقمون والفقهاء، ولعل يد ابن عمـار لم تكن بعيدة عن تدبيرها . وسرعان ما نضـج التآمر واستحال الى ثورة عامة . فحاصر الثوار الأمير فى قصره (سنة ١٠٨١ م) ولم ينج وأسرته من الهلاك إلا بصعوبة، فالتجأ الى حصن بالقرب من بلنسـية وأخذ يفاوض ابن هود صاحب سرقسطة ، وكذلك الفونسو ملك قشتالة صديق أبيه الحميم . وكان ملك قشتالة حينما نازعه أخوه العرش قد فر الى المأمون بن ذى النون فأجاره وحمـاه . ولكن السياسـة والأطماع كانت تفعل فعلها، فنكث ملك قشتالة كل العهود التى قطعها أيام محنتـه للمأمون، وأغضى عن نجدة ولد صديقه وحاميه، وآثر محالفة ابن عباد . فالتجأ القادر الى ملك بطليوس، فأنجده، وعاونه حتى عاد الى عرشه . ولكن ملك قشتالة رفع قناعه بغتة، وانقض على أراضى طليطلة يوسعها إغارة ونهبا . وكان ملك بطليوس وحده يقف الى جانب القادر . وكانت المعاهدة السرية التى عقدها ابن عباد مع ملك قشتالة تطلق يده فى طليطلة . وسرعان ما حشـد ملك قشتالة كل قواته وتقدم فى جيش جرار من أسوار طليطلة ، وكانت هاتيك السهول مهبط الحرب منذ أعوام حتى اقتحمت

كلها وخربت وأجدبت، وأخذ شبح المجاعة يهدد السكان بويله المريع . ولم يك يخفى على عقلاء المسلمين ان المأزق عصيب ، وان سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد ملك قشتالة إنما هو نذير السقوط النهائى ، وان انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية إنما هو انهيار الصرح كله ؛ فبادر جماعة منهم الى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك ؛ ونهض أبو الوليد قاضى باجه ، وكان شيخا ذا نفوذ ومكانة ، فطاف بالولايات والمدن ، وتجول فى ماردة وغرناطة و إشبيلية ،صائحا منذرا محذرا من عواقب التفرق ، مؤكدا أن ملك قشتالة سيهلك دول الطوائف كلها واحدة بعد الأخرى ، اذا لم تسارع الى التعاون والاتحاد ؛ ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ما يضمره المستقبل من ويل ذهبت كلها سدى ؛ وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية على كل مبدإ حكيم ؛ ولبث ملك إشبيلية مدبر النكبة يشهد مصرع طليطلة جامدا ، ولم يستمسك بالدفاع عن المدينة التالدة الى جانب مليكها المنكود سوى عمر بن الأفطس ملك بطليوس الشهم ؛ ولكنه أرغم على الارتداد أمام قوى الفونسو الجرارة بعد سلسلة من المعارك الدموية . وأحاط النصارى بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، وشددوا فى حصارها ، وقطع كل علائقها مع الخارج ، حتى تحرج الموقف واشتد الضيق بالمحصورين ، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم فى الحياة إلا بتسليم شريف وانهم لن يفلتوا من مخالب الجوع والموت إلا بالخضوع والعبودية ، فاتفقوا مع ملكهم القادر أن يرسل وفدا لمخاطبة ملك قشتالة فى أمر الصلح فأبى الملك النصرانى أن يصغى لهم ما لم تسلم المدينة أولا . فاستشاط النبلاء والشيوخ حقدا واشمئزازا ، واعتزموا أن يدافعوا عن حرياتهم حتى آخر نسمة وأن يزهقوا تحت أنقاض الأسوار . ولكن صوت العامة ارتفع بالتسليم من كل ناحية بعد الذى برح بهم من مصائب الجوع والحرمان . فعندئذ أرغم الكبراء على إرسال وفد جديد الى ملك قشتالة يعرض عليه تسليم المدينة مقابل وعد بتأمين السكان على أنفسهم وأموالهم ، واستبقاء المساجد والشعائر الاسلامية ومنح الخيار فى البقاء فى طليطلة

أو الرحيل عنها لمن شاء، واستبقاء المسلمين لقضائهم وشريعتهم . فتظاهر الملك النصرانى بالقبول . وفى الحال فتحت المدينة أبوابها، ودخلها الفونسو على رأس جنده القشتاليين (٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ م — فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ) أما الملك المنكود يحيى القادر فسار بأهله وأمواله الى بلنسية وتبعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف. ويقال إن ملك قشتالة أمده بشرذمة من الجند لكى يستقر فى بلنسية آمنا.

وهكذا سقطت المدينة الكبرى، وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد، وارتدت الى النصرانية حظيرتها القديمة . يقول كوندى : «وقد كانت سدا أوحد يحول دون اقتحام النصارى لنهر التاجة . وكشف هذا الحادث الذى أسبغ على سلطان ملك قشتالة قوة جديدة، للمسلمين عن ضعفهم، وصور لهم أشباح العبودية والموت تتعانق بعد قرون من السلطان والمجد فى ظلمات مستقبل مشؤوم؛ ولم تكن أمامهم لاتقاء هذه المصائب سوى وسيلة واحدة هى أن يتحدوا ، وأن يعهدوا الى الأيدى الماهرة بادارة كل قواهم مجتمعة . ولكن المصالح الخاصة غلبت عندئذ، كما تغلب دائما على الصالح العام ، واستمرت تحدر مسرعة الى هاوية الانحلال[1] » .

وكان لتلك النكبة وقع هائل فى الأندلس وفى العالم الاسلامى بأسره . فأثارت قريحة الشعر العربى مدى حين ونظمت فى بكائها القصائد الرائعة[2]، وكان لها آثار عميقة فى سير التاريخ الأندلسى، فهى التى دفعت ملوك الطوائف الى الاستنصار بالمرابطين على محاربة النصارى؛ وجمعت كلمتهم حينا، حتى جاء المرابطون فافتتحوا الأندلس لأنفسهم، ودخلت اسبانيا المسلمة فى طور جديد من تاريخها هو طور الممالك البربرية، وغدت مهبطا لسيل من الغزاة المسلمين يتدفق اليها من الضفة الأخرى من المضيق[3] .

---

(١) Hist. de la Domination des arabes en Espagne.

(٢) أورد صاحب نفح الطيب كثيرا من هذه القصائد (راجع ج ٢ ص ٥٨٩ وما بعدها) .

(٣) راجع أيضا فى حوادث سقوط طليطلة، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٢ وما بعدها، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ودوزى ج ٣ ص ١٢٠ وما بعدها .

الفصل الخامس عشر

موقعة الزلاقة

كانت الأندلس أيام الطوائف حسبما قدمنا فريسة الخلاف والتمزق، تسير مسرعة الى الإنحلال، ويتربص بها العدو الخالد — اسبانيا النصرانية — . وكانت اسبانيا النصرانية قد اشتد ساعدها ولاح لها أن حبل الاسلام قد تصرم وغدت أيامه معدودة فى اسبانيا . وكانت قد اتحدت كلمتها يومئذ والتأم شملها الى مملكتين كبيرتين هما قشتالة وأراجون (أرغن أو الثغر الأعلى) . وكان على عرش قشتالة فى ذلك الحين ملك شديد البأس والعزم هو الفونسو السادس الذى رأيناه يتحدى ممالك الطوائف ويتربص لافتراسها تقدم . وكان قد تبوأ عرشه ضعيفا مهيضا بمؤازرة أمير أندلسى هو ابن عباد صاحب إشبيلية، فبدأ حكمه بالإغارة على الممالك النصرانية الصغرى مثل ليون وجليقية ونافار، واقتسم ما افترسه منها مع حليفه سانكو الثانى ملك أرجوان . ثم تجرد للدس والضرب بين الدول الاسلامية، ولبث يحالف أميرا على أمير، ويغلب زعيما على زعيم، حتى استطاع بعزمه ودهائه أن يستولى على مدينة طليطلة من يد أميرها يحيى بن ذى النون ، وهى أول قاعدة إسلامية كبيرة سقطت فى يد اسبانيا النصرانية (سنة ٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) ودفعت حدود اسبانيا النصرانية لأول مرة الى ما وراء ضفاف التاجه . ثم رفع الفونسو القناع بغتة وبدا فى حقيقته لأولئك الأمراء المسلمين الذين مالؤوه وزعم محالفتهم، ودفع جيوشه نحو إمارة سرقسطة حيث أخذ ملكها أبوجعفر بن هود يدافع عن أرضه دفاع اليائس؛ وأرسل من ناحية أخرى الى ابن الأفطس ملك بطليوس يدعوه الى تسليم بعض حصونه ، فرد عليه ابن الأفطس ردا شديدا حازما، ولكنه لم ير حوله من أمراء

المسلمين من يستنصر به، ونفذت جيوش قشتالة الى الأراضى الاسلامية واستولت على مدينة قورية وقلاعها . ثم طالب الفونسو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وأقوى أمراء المسلمين يومئذ، بتسليم بعض قلاعه أيضا، فثار ابن عباد لذلك وأخذ يتأهب للحرب، وطرد رسل الفونسو الذين جاءوا يقبضون منه بقية مال تعهد بدفعه لملك قشتالة فى إحدى المعاهدات التى عقدت بينهما ، وأمر بكبير هؤلاء الرسل فقتل ليلا فى إشبيلية، فاستشاط ملك قشتالة غضبا وأقسم بالانتقام .

واعتزم المعتمد بن عباد أمره ، بجمع القادة وحشد الجند، وأقام الحاميات، وأصلح الحصون ، ولكنه ذهب الى أبعد من التأهب لمحاربة النصارى بمفرده، فنبذ سياسة التغلب والفتح التى حركته على زملائه أمراء المسلمين حينا، ودفعت به الى ممالأة النصارى عليهم غير مرة؛ وكتب الى ملوك غرناطة والمرية و بطليوس وغيرهم من الأمراء والولاة يدعوهم للاجتماع والتشاور فى دفع الخطر المشترك ؛ فأجاب هؤلاء الأمراء الدعوة واجتمع ممثلوهم فى إشبيلية وطرحت فى هذا المؤتمر فكرة خطرت من قبل لأكثر من أمير أندلسى، ونفذها أمير بطليوس بالفعل، وهى الالتجاء الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى اللمتونى ملك المغرب ، واستنهاض حميته للذود عن الاسلام فى الأندلس .

وكان أولئك المرابطون اللمتونيون قد برزوا من الصحراء فيما وراء جبال الأطلس قبل ذلك بنحو نصف قرن، وغلبوا على قبائل الجبال المجاورة ودوخوا معاقل المغرب الأقصى تباعا، واستولوا على سجلماسة و بلاد دارة ومصمودة، ثم اخترقوا جبال الأطلس وهرعت القبائل من كل صوب الى الانضواء تحت لوائهم،وأنشأوا دولتهم الجديدة فيما بين الأطلس والبحر واختطوا مدينة مراكش لتكون قاعدة لملكهم . وكان على عرش هذه الدولة الفتية يومئذ أمير بارع الخلال وافر العزم والحزم هو يوسف بن تاشفين . فالى أولئك الغزاة الأشداء اتجهت أنظار ملوك الطوائف ، وأجمع المؤتمرون فى إشبيلية على الاستغاثة بأميرهم، إلا والى مالقة فانه انفرد بمعارضة الفكرة وحذرهم من دعوة أولئك البدو المتوحشين الى وديان الأندلس الجميلة خشية

أن يغصوا بنعائها وأن يضمروا فتحها واستعباد أهلها بعد أن يدفعوا عنها خطر النصارى، ونصحهم بأن يعتمدوا على أنفسهم وعلى اتحادهم، فما جاء ضعفهم إلا من التفرق . فلم يصغ المؤتمرون اليه ، بل قرروا الالتجاء الى يوسف بن تاشفين، وأوفد ابن عباد اليه باسمه وباسم أمراء الأندلس سفارة وتحفا ثمينة، وأرسل يشرح اليه ما آلت اليه دول الأندلس من ضعف، وما أصاب الاسلام فيها من ذلة، ويستنصره لغوث إخوانه فى الدين قبل أن يفوت الوقت ويضرب النصارى ضربتهم الأخيرة .

وكان يوسف بن تاشفين وقت أن جاءه رسل ابن الأفطس يلتمسون غوثه ما زال مشتغلا بتوطيد النظام فى مملكته ودعوة القبائل البربرية المتجولة الى الانضواء تحت لوائه، فاستقبل الرسل استقبالا حسنا ولكنه صرفهم بوعود غامضة. فلما تم له ما أراد من استقرار شؤونه أخذ يفكر فى شؤون الأندلس . وهنا وصلته سفارة ملك إشبيلية ورسالته التى يشكو فيها من طغيان ملك النصارى وإغاراته المتكررة على بلاد الأندلس، وانتهاكه للعاهدات، وانصراف أمراء الأندلس عن حماية البلاد الى الفتور والدعة . فعقد يوسف مجلسا للشورى وأجمع الزعماء البربر على إجابة ملتمس ملوك الأندلس . وكان هذا رأى ابن تاشفين أيضا . وليس من ريب فى أن زعماء البربر كانت تحملهم نزعة من الحماسة الدينية ورغبة فى غوث الاسلام وغوث إخوانهم، ولكن ليس من ريب أيضا فى أن ملك المرابطين كان منذ الساعة الأولى يضطرم بأمل خفى فى بسط سلطانه على الأندلس الجميلة التى طالما سمع عنها وعن بدائعها العجائب .

ولكن يوسف بن تاشفين اشترط لإجابة الدعوة أن يعطيه ابن عباد ثغر الجزيرة حتى يكفل بذلك سلامة طريقه فى الذهاب والعودة،فأجابه ابن عباد الى ذلك رغم معارضة ابنه الرشيد وغيره من الأمراء الذين توجسوا ريبا من وراء ذلك ، ثم جاز ابن عباد نفسه البحر الى المغرب وتقدم الى يوسف مكررا التماس الغوث والنجدة فصرفه ملك المغرب بأشد العهود والمواثيق .

وأوفى ملك المغرب بعهده، وتقاطر سيل الجيوش من جميع أنحاء المغرب تجاه البحر، وسار ملك المرابطين على رأس جيشه الجرار، وجاز البحر الى الأندلس، فاستقبله ابن عباد فى الجزيرة وسلمه حصونها فاحتلتها قوة من المرابطين، وأمر يوسف باصلاح قلعتها المنيعة، ثم سار بجيشه نحو إشبيلية بعد أن زوده بكميات وافرة من المؤن والذخائر.

* * *

وكان ملك قشتالة فى ذلك الحين مشتغلا بمحاربة ابن هود أمير سرقسطة ومحاصرة عاصمته، فبلغته أهبة المرابطين وعبورهم الى اسبانيا، فارتد من فوره عن سرقسطة، واستقدم الجند من كل ناحية، من جليقية وبسكونية واشتريش (الأوسترياس) وجمع جيوش قشتالة كلها، ودعا الى معاونته السد الكمبيادور (الكنبيطور) فارس قشتالة الأشهر، واستغاث بملكى أراجون وناڤار، فلبى الجميع الدعوة وهرعوا اليه فى جندهم. وكان يوسف بن تاشفين ينتظر وقتئذ فى إشبيلية أهبة أمراء الأندلس، فلما علم بأهبة ملك قشتالة وسيره نحو الأندلس خرج فى جموع البربر من إشبيلية وجيوش الأندلس تتدفق حوله من كل ناحية، وسارت الجيوش المسلمة المتحدة الى لقاء الجيوش النصرانية المتحدة؛ فكان اللقاء على مقربة من بطليوس فى سهل تسميه الرواية العربية بالزلاقة وتسميه الرواية النصرانية «ساكرالياس» Sacralias[1]. ونظم ملك قشتالة جيشه الى قسمين، تولى هو قيادة الأول، وتولى ملك ناڤار قيادة الثانى. ويروى أن جيش النصارى كان يبلغ زهاء خمسين ألف[2] بينما كان جيش المسلمين زهاء عشرين ألف فقط[3]. ونظم يوسف قواته أيضا الى قسمين كبيرين يضم الأول فرسان البربر جميعا وتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر، ويضم الثانى فرسان إشبيلية وغرناطة وبلنسية وبطليوس. وتولى

(١) Dozy ; ibid III-126

(٢) ابن الأثير (مصر) ج ١٠ ص ٥٢، ونقل يوسف كوندى أن جيش النصارى كان يبلغ زهاء ثمانين ألف فارس غير المشاة.

(٣) المعجب لعبد الواحد المركشى (مصر) ص ٨١

المعتمد بن عباد القيادة العامة . وتولى يوسف قيادة الجيش الاحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

وانتظم الجيشان كل تجاه الآخر لا يفصلهما سوى نهر وادى بيرا وهو فرع صغير من وادى يانه يمتد ما بين بطليوس وماردة . وكتب يوسف قبيل المعركة الى ملك قشتالة كتابا يعرض عليه فيه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب اتباعا للسنة . ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش (الفونسو) أنك دعوت الى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر الينا ، فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » فرد عليه ملك قشتالة بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد اليه كتابه ممهورا بتلك العبارة «الذى يكون ستراه»[1] .

وفى الرابع عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ — ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م[2] ، ابتدأ القتال واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجم ملك قشتالة بفرسانه على جناح المرابطين الذى يقوده ابن عائشة بشدة كادت ترده عن مواقعه وتبعث اليه الخلل رغم ما أبداه المرابطون من ضروب الشجاعة ؛ وبرز ملك ناڤار أيضا فى قتاله للقوات الأندلسية التى اختل نظامها ، وتقهقر سوادها نحو بطليوس ؛ ولم يقف فى وجه الناڤاريين سوى ابن عباد وجنده . على أن الأمير الباسل لم يلبث أن أثخن جراحا ، وتفرق جنده من حوله . ورأى ملك المرابطين كفة النصارى ترجح من كل ناحية فدفع من فوره الى الميدان بقواته الاحتياطية ، وهى نخبة جنده كما تقدم ، وقادها

---

(١) نفح الطيب — ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير — ج ١٠ ص ٥٢

(٢) تختلف الرواية الاسلامية فى تحديد تاريخ الموقعة ، فيقول ابن خلكان : إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ (ج ٢ ص ٤٨٤) ، ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) ، ويقول المراكشى إنها كانت فى ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ (ص ٧٢) ، ويقول ابن خلدون أنها كانت سنة ٤٨١ (ج ٦ ص ١٨٦) . ولكن الرواية النصرانية متفقة فى أنها كانت يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو ما يوافق ١٤ رجب سنة ٤٧٩ (راجع دوزى ج ٣ ص ١٢٩ والهامش) وهى أرجح رواية وتتفق مع رواية ابن خلكان .

الى قلب النصارى قائد من أشجع وأمهر قواده هو ابن أبى بكير ، وسرعان ما تغير وجه المعركة والتف الفارون حول القوة الجديدة ، واستأنفوا القتال ؛ وهجم يوسف على معسكر النصارى ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ففتك بها ، ووثب الى مؤخرة القشتاليين وأثخن فيهم من الوراء ، فاضطر ملك قشتالة أن يرتد بقواته لملافاة هذا الخطر الجديد ، وانتهز ابن عائشة هذه الفرصة فاندفع بقواته الى مطاردة المرتدين ، ومن حوله الجيش الاحتياطى ؛ وجيوش الأندلس تضطرم وتتدفق ، فمزقت صفوف النصارى من كل ناحية ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى من حول ملك قشتالة ، وأصابه فى فخذه جرح بالغ ، ولم ينقذه وينقذ جيشه من الفناء سوى دخول الظلام .

وامضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب يرقبون حركات النصارى ، وفى صباح اليوم التالى زحفت قوة من فرسانهم لمطاردة المرتدين ، وعمدت قوة أخرى الى جمع الأسلاب ، وكانت عظيمة وافرة .

وتقول الرواية الاسلامية إن ملك قشتالة فر مع نحو خمسمائة فارس أو أقل هم بقية جيشه ، وان المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم . ويروى أيضا أن رؤوس القتلى من النصارى جمعت فاجتمع منها تل عظيم وأنها أحصيت فوجدت أربعة وعشرين ألف ؛ وفى رواية أخرى أن رؤوس القتلى التى وزعت على أمصار الأندلس كانت أربعين ألفا[١] . وهذه مبالغة بلا ريب وان كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة وكانت خسائر النصارى فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضا أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، ولا سيما بين المرابطين الذين كانوا يحاربون فى أرض أجنبية . ولم تقف الجيوش الظافرة عند النصر الحاسم فى سهول الزلاقة ، بل زحفت شمالا واستعادت من النصارى كثيرا من القلاع والبلاد التى استولوا عليها منذ أعوام . وعاد ابن تاشفين الى إشبيلية ومكث بها قليلا ثم قفل الى المغرب لشؤون عجلت بعودته .

---

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٨٤) ونفح الطيب (ج ١ ص ٥٣١) وابن الأثير (ج ١٠ ص ٥٣) .

* * *

وظاهر أن لقاء الاسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها، والتى اضطرمت بعد ذلك فى الشرق فى نفس الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فواقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة وظفر للطوائف وحلفائهم المرابطين . ذلك ان فورة المرابطين الدينية التى اجتاحت صحارى المغرب فى فترة قصيرة ثم عبرت البحر الى اسبانيا لنصرة الدول المسلمة بادئ بدء، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك، كانت عنيفة رائعة توجست النصرانية منها، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل سنة (٧٣٢ م) مرتين، الأولى فى عهد الناصر لدين الله، والثانية فى عهد الحاجب المنصور، وفى المرتين ردت اسبانيا النصرانية الى ما وراء الجبال الشمالية، ونفذ الاسلام الى قاصية اسبانيا .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة هذه الموقعة وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الروحية، من ذلك ما يروى من أن يوسف ابن تاشفين حينما استقل سفنه فى البحر ثارت الأنواء واشتدت فدعا ربه أن يهدئها وقال ما معناه : اللهم ان كان ما أفعل خيرا وكانت رحلتى لخير الاسلام فهدئ الموج وإن كان ما أفعل شرا يضر الاسلام، فليكن هذا الموج معبرا عن إرادتك المقدسة، فما لبثت الأمواج أن هدأت عقب الدعاء، ودفعت سفنه نحو الأندلس ريح طيبة. ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين توالت عليه الأحلام المرعبة، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتا مرعبا كلما قرعه ، وأن فقيها مسلما من أهل طليطلة فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة مشبها ذلك بما حدث فى عام الفيل من سحق أبرهة الذى كان يركب الفيل أيضا ، وغير ذلك . ويضيف الرواة المسلمون الى هذه الأساطير أن جيوش

النصرانيـة قد سحقت فى الزلاقة سحقا تاما، وأن ملك قشتالة لم ينج إلا فى خمسمائة فارس من جيش يقدر بأكثر من خمسين ألف . وهذه مبالغة تذكرنا بمبالغة الرواية الكنسية عن خسائر المسلمين فى موقعـة بلاط الشهداء إذ تزعم أنه قتـل فيها من المسلمين زهاء ثلاثمائه ألف مسـلم فى حين أنه لم يقتل من النصارى سوى ثلاثة آلاف !

على أن هذه الأساطير والمبالغات لاتثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة، ولا تنقص من شأن نتائجها الحاسمة . ففى سهول الزلاقة ارتد سـيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة بعـد ان كان ينذرها بالفناء والمحو، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا امتدت إلى أربعـة قرون أخر، وسرت اليه تلك الروح الفتيـة القوية التى بعثت من أنقاض الطوائف بمملكة غرناطة المجيدة التى لبثت أكثر من قرنين تبهر أوروبا برائع علومها وحضارتها[1]

---

(١) راجع فى تفاصيل الزلاقة : ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ — ٥٣ ، والمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ ، ودوزى ج ٣ ص ١٢٥ — ١٣٠ .

الفصل السادس عشر

مصـــرع غرناطـــة

ليس بين فواجع التاريخ الاسلامى، أروع وأدعى الى الحزن وانهمار الدمع من مصرع غرناطة الأندلس ؛ ففى تلك الصفحة المؤسية المشجية ضروب روائع من البسالة، وتقديس الحرية والكرامة القوميـة ، والتفانى فى الذود عن الوطن، وفيها ضروب روائع من الاضطهاد والاستشهاد والتضحية فى سبيل الوطن والدين؛ قصة شعب نبيل تالد، شاد صروح عظمته وحضارته فى تلك المهاد قرونا ، ولبث أحقابا سيد الجزيرة يجوس خلالها فى كبرياء وعزة، فاذا به ذات يوم يضعف أمام عدوه ، ثم يفقد قواعده الزاهرة واحدة فأخرى ، ثم يصبح فلا يجد من نفسـه إلا بقية ممزقة دامية، تمتنع بين أسوار آخر معقل إسلامى هو غرناطة .

ومن ثم كانت روعة المأساة : غرناطة التى لبثت أحقابا سيدة الأندلس ، تشرف من حمرائها على مصائر شعب عظيم عزيز الجانب ، وترسـل من معاهدها ومدارسها ضوء العلوم والفنون الى جنبات الجزيرة والى جنوب أوربا ، وفيها للاسـلام دولة، تجد نفسها فى سنة ١٤٩١ ، فريدة منبوذة من كل ناصر تحيط بها جيوش النصرانية من كل صوب، ظمئة الى حرياتها، متطلعة الى حمرائها ، فتشهد بذلك معركة الفصل ، ومصرع الاسلام فى ديار الأندلس، ويكتب عليها أن تكون قبرا لهـذه الأندلس وحضارتها الزاهرة ، وفنونها وعلومها، وكل أسـباب مجدها وعظمتهـا .

كانت دولة الاسلام فى الأندلس قبل ذلك بحقبة يسـيرة قد أخذت تنحدر بسرعة الى هاوية الانحلال والفناء ، وأخذت قواعدها وثغورها الباقية تسقط تباعا

فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها فى أواخر القرن الخامس عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل . ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت مملكتا قشتالة وأراجون النصرانيتان بزواج ملكيهما ايزابيلا وفرديناند الخامس ؛ واعتزمت اسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للاسلام فى الأندلس ، فتدفقت جيوشها المتحدة على مملكة غرناطة . وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، فقد دب اليها الخلاف الداخلى ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها الى شطرين يتربص كل منهما بالآخر ؛ أحدهما غرناطة و بعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن النصرى ؛ و وادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله المعروف بالزَّغَل ؛ وكان فرديناند وايزابيلا قد شهرا الحرب على الاسلام قبل ذلك بأعوام ، واستوليا تباعا على مالقة أمنع ثغور الأندلس (شعبان سنة ٨٩٢هـ — أغسطس سنة ١٤٨٧م) ثم على وادى آش والمنكب والمرية (أواخر ٨٩٤هـ — ١٤٨٩م) ثم على بسطة (المحرم سنة ٨٩٥هـ — ديسمبر سنة ١٤٨٩م) ، ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للاسلام ، وكان ملكها أبو عبد الله يسالم فرديناند و يصانعه و يعترف بطاعته ولكنه حمل بعزم شعبه على القتال والجهاد ، فوقعت بين الغرناطيين والنصارى خلال سنة ٨٩٥ هـ عدّة معارك ثبت فيها المسلمون واستردوا عدّة حصون ، و وقفت الحرب خلال الشتاء مدى أشهر ؛ ثم زحف النصارى منذ الربيع على غرناطة فى جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوافرة ، وهبطوا مرج غرناطة الجنوبى فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ (مارس سنة ١٤٩١م) ، وضربوا حولها الحصار الصارم ؛ وأنشأ فرديناند لجيشه فى تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتا فى (Santa Fé) (شنتفى) أو العناية المقدسة رمزا للحرب الدينية ؛ و بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين الاسلام والنصرانية فى أسبانيا[1] .

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث ، المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ — ٦١٥ . وقد انتهت الينا عن سقوط الأندلس وغرناطة رواية عربية مفصلة بعنوان : « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » . وهو كتاب يقع فى ست وخمسين صفحة ولا يعرف مؤلفه ، ولكنه يذكر فى نهايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، فروايته معاصرة تقريبا ، والظاهر =

ولم يك ثمة شك فى نهاية ذلك الصراع وجيوش النصرانية تضطرم حول غرناطة كالموج الزاخر، وافرة الأهبة والعدة والمؤن، وغرناطة لا قوام لها غير جندها القليل وعدتها ومؤنها المحدودة، وشعبها المضنى ؛ ولكن غرناطة لم تستسلم الى قدرها القاهر قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة . ولم يكن هذا الدفاع قاصرا على تحمل بلاء الحصار وفتكه مدى سبعة أشهر، بل كان يتعدى ذلك الى ضروب رائعة من الاقدام والبسالة؛ فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مرارا، يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ويفسدون عليه خططه وتدابيره. وكان الفرسان المسلمون يبدون خلال هذه المعارك من الشجاعة والبراعة والاقدام ما يثير روعة العدو ودهشته وإعجابه ؛ أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية التى لبثت قرونا زهرة الفروسة فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارسا رفيع المنبت والخلال، وافر العزم والبراعة والشهامة، هو موسى بن أبى الغسان[1] . وهو سليل أحد الفروع الملكية، وأحد هذه الأصول القديمة التى عرفت برائع فروستها، وعميق بغضها للنصارى، والتى كانت ترى الموت خيرا ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز التالد مهادا للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان وركوب الخيل . وكان يثير بجماله وظرفه وبراعته عطف المجتمع

= أنه من تأليف أحد أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ولكنهم لبثوا مسلمين فى روحهم وسريرتهم، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الاسلام ويندد بفظائع النصارى، وقد نشر المستشرق الألمانى مارك ميلر هذا الكتاب (سنة ١٨٦٣) عن النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بمكتبة الاسكوريال، وهى نسخة لم يرد ذكرها فى معجم كازيرى (معجم مكتبة الاسكوريال)، وينقل المقرى فى نفح الطيب عن هذه الرواية معظم ما كتبه عن حوادث سقوط الأندلس، (راجع الكتاب المذكور ص ٢٨ — ٤٠) .

(١) لم نعثر فى جميع المصادر العربية التى بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله، ومرجعنا فى ذلك هو يوسف كوندى فى حديثه عن سقوط غرناطة (الترجمة الانكليزية ج ٣ ص ٣٩٠ وما بعدها) . ويقول كوندى انه ينقل روايته عن مصادر عربية ولكنه كعادته لا يذكر لنا هذه المصادر، ولهذا لم نستطع تحقيق لقب موسى أو تقصى نشأته وظروفه .

الغرناطى وإعجاب سيداته . وكان مذ رقى أبو عبد الله محمد عرش غرناطة ينقم منه استسلامه وخضوعه لملك النصارى ويعمل على إذكاء الروح الحربى ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا الى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . وكان وقت أن أشرف فرديناند الخامس بجموعه على مرج غرناطة وأرسل الى أبى عبد الله يدعوه الى التسليم ، معبود الجند ، يلتفون حوله ، ويضطرمون لدعوته وحماسته . عندئذ كانت صرخة موسى : «ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فاذا طمح الى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعا عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين» وسرعان ماضج الشعب حماسة ، وسرت الى غرناطة روح الحرب مرة أخرى ، وتأثر أبو عبد الله ووزراؤه بالحماسة العامة ، فأرسل الى ملك النصارى يخبره بأنهم سيقاتلون حتى الموت .

دوت غرناطة بصيحة الحرب ، وتولى موسى قيادة الفروسة وقادها مرارا إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة ، حتى غدا اسمه مثار الرعب بين النصارى . وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة ، وكان فرديناند يرسل السرايا لاتلاف ماحول المدينة من المزارع والحقول تمهيدا للحصار ، فكان موسى ينظم السرايا لازعاج قواته ، وقطع مواصلاته ، وانتزاع مؤنه ؛ ولكن جيوش النصارى مالبثت أن ملأت سهل شنيل (النهر الذى تقع عليه غرناطة) ، واعتزم فرديناند ألا يدخر وسعا فى ارهاق غرناطة ، وألا يرفع الحصار حتى تسلم آخر المدن المسلمة . وكان موقف غرناطة حرجا جدا ، فان جميع المدن والحصون المسلمة الواقعة حولها مثل بسطة ووادى آش واندرش وغيرها وقعت فى يد النصارى كما قدمنا ، وسلم مولاى عبد الله « الزغل » (عم ملك غرناطة) ملك البشرات ووادى آش جميع أراضيه ، وقطعت علائق غرناطة مع البر والبحر من كل ناحية ، ورابطت سفن النصارى فى مضيق جبل طارق وما حوله لتحول دون وصول أى مدد اليها من مسلمى إفريقية ؛ ولم يبق أمامها سوى طريق البُشُرات الجنوبية من ناحية

جبل شُلير (سِييرا نِفادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة . ولبثت المدينة المحصورة أشهرا تعانى مصائب الحصار صابرة جلده حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة (أبو القاسم عبد الملك) ذات يوم الى مجلس الحكم وقرر أن المؤن الباقية لاتكفى إلا لبضعة أشهر، وأن اليأس قد دب الى قلوب الجند والعامة وأن الدفاع عبث لايجدى. ولكن موسى اعترض كعادته بشدة وقرر أن الدفاع ممكن وواجب، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة، فاستسلم أبو عبد الله الى تلك الروح، وسلم إلى القادة أمر الدفاع .وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان؛ وكان من مساعديه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وهما من أنجاد عصرهما؛ ثم أمر بفتح الأبواب وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى ، داهمها بفرسانه فى لمح البرق وأثخن فيها ،ومزقت على هذا النحو صفوف برمتها من النصارى ، وكان يقول لفرسانه : « لم يبق لنا إلا الأرض التى نقف عليها ، فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وأخيرا رأى فرديناند الخامس أن يزحف بقواته على أسوار المدينة فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى، ونشبت بين الفريقين فى المرج الواقع ظاهر غرناطة عدة معارك محلية هائلة؛ وكان الفرسان وعلى رأسهم موسى كالعادة روح المعركة ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعا خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لايعتمد عليهم ، فمزقوا بسرعة وفروا هنا وهنالك ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وعبثا حاول موسى أن يجمع شمل الجند وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ماهو مقدس لديهم ، وألفى نفسه وحيدا فى الميدان مع فرسانه المخلصين وقد تضاءل عددهم ، وأثخن الباقون منهم جراحا ، فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضبا ويأسا .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة ،وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ،وأبدى

النصارى وطيد العزم على متابعة الحصار، وضيقوا على المدينة المحصورة بكل الوسائل وشددوا فى قطع علائقها ومواصلاتها، والمسلمون داخل غرناطة يعانون أهوال الجوع والحرمان والمرض، حتى دب اليأس الى قلوب الناس جميعا . فدعا أبو عبد الله مجلسا من كبار الجند والفقهاء والأعيان فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير، واليأس ماثل فى وجوههم، وشرح لهم أبو القاسم عبدالملك حاكم المدينة ما انتهى اليه الخطب من تفاقم، والأقوات والمؤن من نضوب، ومايعانيه الشعب من بلاء، وصرح الجماعة بأن الشعب لايقوى بعد على تحمل مصائب الدفاع، وأن ليس لهم الا التسليم أو الموت، وأجمعوا على طلب التسليم . ولكن موسى ابن أبى الغسان انفرد كعادته بالمعارضة وقال : « لم يحن الوقت بعد للكلام عن التسليم، فلم تنضب كل مواردنا بل مازال لنا مورد هائل للقوة كثيرا ماأدى المعجزات، ذلك هو يأسنا . فلنعمل على إثارة الشعب، ولنضع السلاح فى يده ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وانه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها ! »

على أن كلماته لم تؤثر فى تلك المرة، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل فى قلوبهم وغاضت فيهم كل حماسة، ووصلوا إلى حالة من اليأس لاتتجع فيها البطولة ولا يحسب فيها للابطال حساب، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب، وهكذا حدث فان أبا عبد الله أصغى إلى رأى الجماعة واعتزم التسليم، وأرسل أبا القاسم عبد الملك إلى ملك النصارى ليفاوضه فى الشروط، فاستقبله فرديناند الخامس بحفاوة، ولبثت غرناطة ترتجف من أقصاها إلى أقصاها حتى عاد الوزير يحمل آخر الشروط التى رضيها ملك النصارى وخلاصتها : أن يقف القتال بين الفريقين سبعين يوما إذا لم تصل خلالها امداد إلى المسلمين من اخوانهم فى افريقية سلمت غرناطة ودخلت فى طاعة ملك النصارى، وأن يطلق سراح جميع الاسرى من النصارى بلا فدية، وأن يطلق الأسرى المسلمون كذلك، وأن يؤمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم، وأن يتمتعوا أحرارا

بشعائر دينهم من الصلاة والصوم والأذان وغيرها، وأن تبقى المساجد حرما مصونة لا يدخل نصرانى مسجدا أو دار مسلم، وألا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى، وأن يجوز الى افريقية من شاء من المسلمين فى سفن يقدمها ملك النصارى فى ظرف ثلاثة أعوام، وألا يقهر مسلم على التنصر، وأن يوافق البابا على هذه الشروط. واتفق أيضا على أن يغادر أبو عبد الله غرناطة الى البشرات حيث يُقطع ضياعا يعيش فيها ويكون مقره أندرش من أعمالها، وأن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها كفالة بالاخلاص والطاعة [1].

هذه خلاصة الشروط التى وضعت لتسليم غرناطة، وقد كانت بلا ريب أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذا الظرف العصيب لو أخلص النصارى فى عهودهم. ولكن سنرى انها كانت عهود غدر وخيانة، وانها نقضت جميعا لأعوام قلائل من تسليم غرناطة. وهذا ما تنبأ به موسى بن أبى الغسان حينما اجتمع الزعماء فى الساعة العصيبة التى أتوا ليوقعوا فيها قرار التسليم وليحكموا على دولتهم بالذهاب وأمتهم بالمحو. عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل. ولكن موسى لبث وحده هادئا صامتا عابسا، وقال: « أتركوا أيها السادة العويل للنساء والأطفال. نحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء، وانى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة. ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ذلك هو موت مجيد! فلنمت دفاعا عن حريتنا، وانتقاما لمصائب غرناطة. وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارا من أغلال الفاتح وعسفه؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فانه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال ان أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها! »

ثم صمت موسى، وساد المجلس سكون الموت، وسرح أبو عبد الله البصر حوله، فاذا اليأس ماثل فى تلك الوجوه التى أضناها العناء، واذا كل حماسة قد غاضت فى تلك القلوب الكسيرة الدامية. عندئذ صاح « الله أكبر، لا اله الا الله،

(١) اخبار العصر — ج ٤٨ — ٥٠ ونفح الطيب — ج ٢ ص ٦١٥ — ٦١٦

محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب على أن أكون شقيا ، وأن يذهب الملك على يدى » ، وصاح الكبراء على أثره « الله أكبر! ولا راد لقضاء الله » وكرروا جميعا أنها ارادة الله ولتكن ، وأن لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وان شروط ملك النصارى أفضل مايمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى بن أبى الغسان انهم هموا بتوقيع صك التسليم نهض مغضبا وصاح : « لاتخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . ان الموت أقل مانخشى . فأمامنا نهب مدينتنا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا وخراب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون ، والأنطاع ، والمحارق : هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه ! » . ثم غادر المجلس ، واخترق «بهو الأسود» عابسا حزينا ، وجاز الى أبهاء الحمراء الخارجية دون أن يرمق أحدا أو يفوه بكلمة . ثم ذهب الى داره وغطى نفسه بسلاحه ، وامتطى غارب جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب ألبيرة ، ولم يره انسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية العربية عن نهاية موسى بن أبى الغسان[١] ، ولكن مؤرخا اسبانيا قديما هو القس انطونيو أجاپيدا يحاول أن يلق ضياء على مصيره فيقول ، إن سرية من الفرسان الإسبان تبلغ زهاء الخمسة عشر ، كانت تسير فى ذلك المساء بعينه على ضفة نهر « شنيل » فرأوا على ضوء الشفق فارسا مسلما يدنو وقد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه . وكان مغلقا خوذته ، شاهرا رمحه ؛ وكان جواده القوى غارقا مثله فى رداء من الصلب . فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا اليه أن يقف وأن يعرف بنفسه . فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه الى الأرض ، ثم انقض على الباقين . وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل

(١) هذه هى رواية كوندى فيما نقل عنه مصادر عربية غير معروفة (ج ٣ ص ٣٩٤) .

وان يسيل الدم، وكأنه انما يقاتل للانتقام فقط، وكأنما يتوق الى أن يقتل دون رغبة فى أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى أفنى أكثر من نصفهم. غير أنه جرح فى النهاية جرحا خطرا، ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة أخرى، فسقط على الأرض، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه ، فلما رأى قواه قد نضبت، ولم يرد أن يقع أسيرا فى يد خصومه ارتد الى ورائه بوثبة أخيرة، وألقى بنفسه الى مياه النهر، فابتلعه لفوره، ودفعه سلاحه الثقيل الى الأعماق .

يقول الراوية المذكور، إن هذا الفارس هو موسى بن أبى الغسان، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الاسبانى عرفوا جواده المقتول . وهى رواية لا بأس بها غير أن الحقيقة لم تعرف قط[1] .

* * *

وهكذا اذعنت غرناطة وسلمت (صفر سنة ٨٩٧ هـ — ديسمبر سنة ١٤٩١م)، ودخل النصارى غرناطة فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها وباقى قصورها وحصونها . وخفق علم النصرانية فوق صرح الإسلام المنهار وانتهت دولة الاسلام فى الأندلس، وطويت الى الابد تلك الصفحة المجيدة الخالدة من تاريخ الاسلام، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الشامخة، وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالمحو والفناء .

تلك قصة غرناطة المشجية المبكية؛ وتلك قصة فارسها موسى بن أبى الغسان؛ قصة فارس مسلم، يمثل أسمى خلال الفروسة، وأجمل معانى التضحية والإخلاص والإباء والشهامة؛ واذا كانت الأساطير الإسبانية قد اتخذت من «السد الكمبيادور» مثلا أعلى للبطولة والفروسة النصرانية، وجعلت منه فارس اسبانيا القومى ، فإن فى سيرة الفارس الغرناطى المؤسية، وخلاله الرفيعة، ما يجعله بحق مثلا أعلى للفروسة الاسلامية، ومن ثم فارس الأندلس القومى[2] .

(١) راجع هذه الرواية فى : Irving : Conquest of Granda; Ch. 97

(٢) تجد الرواية النصرانية عن حوادث سقوط غرناطة مفصلة فى كتاب ارفنج Conquest of Granda. ، وكذلك فى كتاب : Prescott : History of Ferdinand and Isabella

الفصل السابع عشر

مصـرع الحضارة الأندلسـية

ومأساة العرب المتنصرين

ثمانية قرون كاملة من نضال مضطرم بين العرب والإسبان ، وصراع متصل بين الإسلام والنصرانية ، وانقلابات وتوارث لانهاية لها فى سبيل الغلبـة والملك ، ودول وامارات كبرى وصغرى تتنازع تراث الدولة الأموية ، وجهاد مستمر من الاسلام ليحتفظ بأرضه وسيادته ، وجهاد مستمر من اسبانيا النصرانية لاستخلاص الحريات القومية من الفاتح ، واستبسال الفاتح فى الحرص على وطنه المكسوب والذود عن دينه ومدنيته : تلك هى أدوار المأساة الأندلسية التى انتهت بذهاب دولة الاسلام فى اسبانيا .

وإذا كان لنا أن نعجب بذلك الجهاد المتصل الذى شهرته اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة ، وذلك التقدم المنظم الذى أحرزته خلال القرون فى سبيل استرداد أرضها وسيادتها ، وما أبدته دائما من براعة فى الاستفادة من تفرق الدولة الاسلامية ، واتحاد كلمتها دائما على مقاومة كل وثبة جديدة للاندلس ، ونبذها كل نزاع داخلى كلما أنذرها الخطر المشترك ، فإن التاريخ من جهة أخرى يسجل على اسبانيا المستردة لأوطانها الظافرة بعدوها ، أعظم الأخطاء والجرائم فى سياستها نحو الاسلام بعد ذهاب دولته ونحو بقية أهله وحضـارته ، ويرينا كيف جنت هذه السياسـة الغاشمة على عظمة اسبانيا ، وكيف كانت من أعظم عوامل انحلالها

كانت اسبانيا النصرانية عظيمة فى الهزيمة ولم تكن عظيمة فى النصر ؛ عظيمة فى الهزيمة لأن شرذمة من القوط الذين سحقهم طارق بن زياد فى موقعة شريش ،

وطاردهم موسى بن نصير حتى هضاب البرنيه، هى التى وضعت أسس تلك الإمارات النصرانية التى استخفت بأمرها الدولة الاسلامية بادئ بدء ولم يمض قرنان حتى غدت فى عهد الناصر لدين الله (٩١٢ — ٩٦١ م) قوية شديدة البأس تنافس الدولة الاسلامية، وتثخن فى أقطارها، بل غدت فى أواخر الدولة الأموية خطرا عظيما على وجود الدولة الاسلامية ذاته. كذلك كانت اسبانيا النصرانية وقت الخطر العام دائما قدوة حسنة فى الذود عن دينها والتمسك بوحدتها القومية، بل كانت فى ذلك أوفر عزما وأشد حماسة، من اسبانيا المسلمة. ففى الوقت الذى تحرك فيه الحاجب المنصور (٩٧٦ — ١٠٠١ م) ليغزو نصارى الشمال والغرب وليسحق استقلالهم القومى، ألفى اسبانيا النصرانية كتلة واحدة ولم يوفق إلى تحقيق غايته وإن استطاع أن يمزق جيوش الامارات النصرانية وأن يقتحم أمنع قلاعها وأنأى ثغورها. وفى الوقت الذى انفجر فيه بركان الثورة فى الدولة الاسلامية واجتاحتها ريح الخلاف والتفرق، وتواثب على أشلائها ملوك الطوائف، استطاعت اسبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى، وأن تجعل من معظم الزعماء المسلمين آلات فى يدها تسيرهم طبق غاياتها، وأن تبدو فى ذروة البأس واتحاد الرأى والقوى. ولما نبذ ملوك الطوائف خلافهم مدى لحظة واعتزموا أن يجعلوا من إماراتهم جبهة موحدة بزعامة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، كانت اسبانيا النصرانية أسبق إلى جمع كلمتها وتوطيد وحدتها. واجتمعت جيوش الامارات النصرانية كلها فى سهول الزلاقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) بقيادة أكبر أمرائها الفونسو السادس، واجتمعت جيوش الطوائف والمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين. وهزمت اسبانيا النصرانية فى الزلاقة، ولكن الهزيمة لم تزدها إلا عزما واتحادا. ولا نعنى بذلك ان اسبانيا النصرانية لم تعرف أسباب الخلاف الداخلى، فقد عرفته فى أطوار كثيرة وكان خطره عليها عظيما فى بعض المآزق، ولكنا نريد أن نقول إنها لم تنس قط ساعة الخطر العام أن تخمد نزاعها الداخلى وجدلها الشخصى، وهو مبدأ لم تعن الامارات الاسلامية كثيرا بمراعاته وتطبيقه.

على أن اسبانيا النصرانيـة لم تكن عظيمة فى النصر . ذلك لأنها ما كادت تظفر بالغاية التى جاهدت من أجلها مدى القرون ، وما كادت تظفر بآخر معقل اسلامى، حتى غلّبت التطرف على الاعتدال، والتعصب على الايمان، والشهوات الوضعية على المثل الحكيمة ، فعملت بإصرار وعمد على هدم هـذا الصرح الباهر الذى أقامه الاسلام فى الأندلس وأودعه المسلمون كنوزا رائعة من العلوم والمعارف والفنون، واعتقدت أنها بهدمه تمحو الذكريات الأخيرة لاستعباد ذاهب، وتمحو أثر العدو المغتصب، وتطهر النصرانية مما أصابها من الانتهاك والدنس، ولم تشفق على عظمة اسبانيا أن تذوى بذوى حضارة الأندلس وعظمتها الفكرية، ولم تقدر خطورة هـذا الجرم الشائن الذى ارتكبته بتبـديد هذا التراث الباذخ الذى خلفـه الاسلام فى اسبانيا للغرب والانسانية كلها .

سلم المسلمون غرناطة آخر معاقلهم إلى العدو القاهر بعـد ان استنفدوا كل وسائل الدفاع؛ وقطع فرديناند الخامس على نفسه كل العهود التى تكفل لهم الامن والطمأنينـة على حياتهم وأموالهم وأعراضهم وضمائرهم وشـعائرهم فى ظل الحكم الجديد؛ غير أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ؛ ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزما بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته . وكان اليهود أول ضحايا سـياسة الارهاق والمحو التى رسمها منشئ اسبانيا الجـديدة : ذلك أنهم كانوا فى ظل الحكم الاسـلامى يتمتعون بكل صنوف الحرية ، ويقبضون على ناصية التجارة والشؤون المـالية، ولكنهم ما كادوا ينتقلون إلى الحكم الجديد حتى أُمروا بترك دينهم ومعتقداتهم واعتناق النصرانية ، وفُرض النفى ومصادرة المـال على المخالفين، فأذعن البعض إشفاقا على وطنهم وثرواتهـم، وأُلقى المخالفون إلى نار محاكم التحقيق (١) أو شتتوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان ؛ بل لم ينج المتنصرون أنفسهم من المطاردة والارهاق كلما هبت عليهـم ريح شبهة، فاتهـموا

(١) نريد بها المحاكم الكنسية الشهيرة المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش (L'Inquisition) .

بالزيغ أو التذمر . وكان هذا المثل السيئ داعيا إلى جزع المسلمين وحزنهم ، وإشفاقهم أن تستلب العهود التى قطعت لهم ، وأن يتحول تيار الإرهاق والمطاردة اليهم ؛ ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة التى ألقاها عليهم موسى بن أبى الغسان أشجع فرسان غرناطة يوم أن اعتزموا التسليم للعدو : « أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ؟ وان يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ماله من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون ، أنهم جميعا ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم . أن ما ينتظركم شر الاهانات ، والانتهاك ، والرق ، ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، ينتظركم الجور والإرهاق ، تنتظركم المحارق الملتهبة[1] لتجعل منكم حطاما هشيا ! » .

وقد صدقت هذه النبوءة ، وتحققت مخاوف المسلمين ، فلم يمض على تسليم غرناطة أعوام قلائل حتى بدأ الاسبان بتحوير المعاهدة وتعديل نصوصها ، ثم تفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصا فنصا ، واستلاب الحقوق الممنوحة واحدا فواحدا . فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين اقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم ، ثم دعوا علنا إلى التنصر ، وهددوا باروع صنوف الأذى . وكان قبس من الحماسة ما زال يضطرم بين سكان المناطق الجبلية ؛ فرفعوا أصواتهم بالتذمر والشكوى وثارت الأنفس وهاجت الخواطر . وكان مجلس الدولة يرقب فرصة لإلغاء المعاهدة والنكث المطلق ، فاتخذ من التذمر حجة ومن خطر الهياج سندا[2] ! واعتزم أن ينفذ فكرة مشئومة كانت تجول بخاطره منذ أمد بعيد هى تشريد المسلمين وإبادتهم . ولم تكن السياسة تعوزها الحجة ؛ ألم يفاوض المسلمون اخوانهم فى المغرب ومصر وقسطنطينية ؟ ألم يلتمسوا منهم المال والرجال للثورة والانتقام ؟ اليس فى وجودهم خطر على الدولة والدين ؟ بيد أن مجلس الدولة جنح

---

(١) كانت محارق ديوان التحقيق تقام فى اشبيلية منذ سنة ١٤٨٠ أى قبل العهد الذى نحدث عنه بخمس عشرة سنة .

(٢) راجع نفح الطيب — ج ٢ ص ٦١٦

إلى التوسل بحماية الدين وأصدر قراره بوجوب اعتناق المسلمين النصرانيـة، ونفى المخالفين منهم؛ ذلك لأنه يعلم شـدة تمسك المسلمين بدينهم وانهم يؤثرون التشريد والنفى؛ وماذاع قرار المجلس حتى ذكا الهياج فى كل ناحية، فى غرناطة والبشرات والبيّازين؛ وحاول المسلمون المقاومة ولكنهم كانو عزلا، وكانت جنود النصرانية صارمة شـديدة الوطأة على الخارجين فمزقتهـم بلا رأفة. وحمل التعلق بالوطن، وخوف الفاقة وهموم الأسرة، كثيرا من المسلمين على الإذعان والتسليم، فتنصروا (٩٠٤ هـ — ١٤٩٩ م) ولكن فكرة الإبادة كانت تجثم وراء السياسة الاسبانية، فكانوا فى نظرها حتى بعد التنصر خونة مارقين، وكانوا أعداء للدين فى سريرتهم، وكانت حركاتهم وتصرفاتهم مثارا للريب والمظنة. أما سكان المناطق الجبليـة فاسـتطاعوا المقاومة حينا، ولكن فرديناند جرد عليهم جموعا عظيمة، فآثروا النفى وطلبوا الإجازة إلى افريقيـة، فخيرتهم حكومة قشتالة بين أن يعتنقوا النصرانيـة فى ظرف ثلاثة أشهر وبين أن يغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة؛ فهاجرت جموع كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها من ثغور افريقية. وبقى الذين استسلموا إلى الردة والتنصر موضعا للارهاق المستمر، يروعهم شبح السجن والتعذيب والإحراق لأتفه حجة وأقل بادرة.

وتصف الرواية المسلمة المعاصرة هذه المأساة فى تلك الكلمات المؤثرة: «ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا فى دينهم كرها وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا اله إلا الله محمد رسول الله الا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارا ودموعهم تسيل سيلا غزيرا وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للاوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون عن منعهم ولا

على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب فيالها من فجعة ماأمرها ومصيبة ماأعظمها وطامة ماأكبرها»[١] .

ويقول المقرى : « وبالجملة فانهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا الا ما كان من جبل بلنقة[٢] فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان الى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرار ولم يقيض الله تعالى لهم ناصرا »[٣] .

فلما ارتقى شارل الخامس (شارلكان) عرش اسبانيا التمس المسلمون عدله واستغاثوا به من سياسة الخسف والإرهاق ، على يد وفد بعثوه اليه ليشرح ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) فعرضت مطالبهم على محكمة من رجال الدين وقضاة التحقيق والأحبار ، وكان أهم ماعنيت ببحثه هو : هل يعتبر التنصير الذى فرضه الأمر الملكى على المسلمين وتم بفعله ملزما بمعنى أنه يحتم اعدام المخالف بالاحراق ؟ وقد أجابت المحكمة على ذلك بالايجاب واعتبرت «التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئا لصفة لايمكن لارادة معارضة أن تزيلها» هكذا يصف المؤرخ كوندى[٤] وهو اسبانى نصرانى قرار المحكمة . واذا فقد اعتبر قرار

---

(١) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر — ص ٥٤ و ٥٥ .

(٢) جبل بلنقة هو الجبل المعروف فى الاسبانية Villa Leunga وهو يقع بجوار رندة .

(٣) نفح الطيب — ج ٢ ص ٦١٦ و ٦١٧ .

(٤) تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا (ج ٣) .

التنصير ملزما وحتم على الموريسكيين (وهو الاسم الذى أطلق حينئذ على العرب المتنصرين) أن يعتنقو النصرانيــة أو يغادروا أوطانهم فى أجل قصير، وإلا كان جزاؤهم الموت فى محارق ديوان التحقيق، والتكفير عن اثمهم « بأعمـال الايمان » (الأوتوداف) Auto-da-fé وهى حفلات الاحراق التى ابتدعها "الديوان المقدس" لاعدام فرائسه ترفعا عن سفك الدماء .

ولم يقف العسف والارهاق عند هـذا الحد ، فقد حصل أسقف اشبيليـة فى العام التالى على أمر يحتم على الموريسـكيين فى غرناطة أن يغيروا فى ظرف يوم واحد ملابسهم ولغتهـم، وعاداتهم وأخلاقهم ، كأنما الثورة المفروضـة فى المظاهر الخارجية تفوز بنزع ميراث القرون من مشاعر وتقاليد وأخلاق . وأحيط تنفيذ هذا الأمر بكل مظاهر الشدة، وخول لكل نصرانى اسبانى حق الرقابة على تنفيذه ؛ وأنشئت فى غرناطة محكمة تحقيق لمعاقبة المخالفين،وهبت على الغرناطيين ريح عاتية من السفك والتعذيب والإرهاق ، واشتدت المطاردة فى جميع الأنحاء ، وعمت الوشـاية والسعاية ، ووثبت جماعة من النصـارى المتحمسـين على الموريسكيين فى بلنسية، فأثخنت فيهم قتلا ونهبا، وتعذيبا وتشريدا. يقول كوندى : "فغدوا ازاء الإرهاب الذى يخضعهم لصولة مطارديهم وما منهم إلا مسكين ومنـكود . وكان منظر المحارق فى غرناطة وقرطبـة و إشبيلية، وأنين الفرائس تلتهمها النيران تباعا ، ومناظر المصادرة والنفى والتعذيب المستمر ، تملأ نفوسهم رعبا يحول دون ابدائهم التذمر بالقول بل بالإشارة اذ اعتبر ذلك دعوة إلى الثورة . على أنهـم نجوا أعواما من ذلك التفسير التى يرى فيـه العسف ملاذه، وهو القضاء بإدانة أولئـك الذين تعجز عن تقديم الادلة على جرائمهم » [١] .

ثار الغرناطيون ، ولكن حطمتهم جنود الملك ، ولم تقنع اسبانيا النصرانية بتجريدهم من كل امتياز وحق، ونهب أملاكهم وأرزاقهم، «والباسهم ثياب الرق فى البلد الذى كان يدين لسلطانهـم، وجعلهم غرباء فى أوطانهم . بل أرادت أن

(١) يوسف كوندى (ج ٣) .

تستأصلهم، وأن تسحق جنسهم، وأن تبيد حتى ذكرى حياتهم المجيدة »[1] . وكان على عرش اسبانيا عندئذ فيليب الثانى، وكان يضطرم تعصبا للكنيسة والكثلكة، ويجعل من الدين قناعا يستر به مآرب السياسة . عندئذ كررت التهم القديمة فقيل إن الموريسكيين يفاوضون قصور افريقية وتركيا؛ وقال أسقف غرناطة إنهم ليسوا نصارى فى سرائرهم؛ فهم مازالوا يتكلمون العربية، ويكثرون من الاستحمام اتباعا لشعائر الاسلام، ومازال نساؤهم يخرجن محجبات ! ألفت محكمة ثانية من الأحبار والعلماء وقضاة التحقيق . وكيف يعتبر التكلم بالعربية ، والاستحمام ، وحجاب المرأة من المظاهر البريئة ؟ وحاول الموريسكيون الدفاع عن أنفسهم فلم يصغ اليهم أحد . قالوا ، ان الأزياء والاستحمام واللغة والأخلاق والرقص ، كلها تقاليد للتربية والعرف لاعلاقة لها بالمبادئ الدينية، وان ترك ثياب الآباء أمر صعب، وإن الاستحمام ضرورى للصحة فى الأقليم الحار، وإن الرقص ذائع فى كل الأمم، وان تحجب النساء يرجع إلى مبدأ العفاف والحشمة، وان ليس من السهل على أناس تكلموا العربية منذ المهد أن يدرسوا اللغة القشتالية فيجردوا أنفسهم فجأة من كل وسيلة للتفاهم والتخاطب . ولكن هذا المنطق البسيط لم يقنع ولاة الأمر وأحبار المجلس المقدس، فاذا امرأة بدت محجبة نزع حجابها ، واذا موريسكى تكلم العربية زج الى السجن، بل فعلت حكومة فيليب الثانى ما هو شر وأنكى إذ نزعت من الموريسكيين أطفالهم ذكورا وأناثا ، وألقتهم أكداسا فى المعاهد والمدارس العامة . عندئذ ضاق الموريسكيون ذرعا، وألفوا ملاذا فى الخروج واليأس، فاجتمعوا فى السهل سرا، وائتمروا على الثورة والدفاع عن أنفسهم ازاء العسف والجور، وأوفدوا بعض زعمائهم سرا الى افريقية؛ وطاف الآخرون جبال البشرات لبث الدعوة وإحكام الثورة . ولكن ضبطت لسوء طالعهم بعض الكتب التى تبادلوها مع سلاطين افريقية، وظهر منها أن حكومات افريقية قد لبت داعى الغوث واعتزمت أن تبعث الجند والذخيرة الى شواطئ ماربلة والمرية ؛ فعززت

---

(١) يوسف كوندى (ج ٣) .

الثغور وشددت المراقبة على الشواطىء . ولكن همم الثوار لم تفتر ، بل اجتمعوا فى ضاحية غرناطة سرا واختاروا لهم زعيما شجاعا جريئا هو محمد بن أمية الذى نصر باسم فرديناند دى ڤالور ، ونزحوا الى جبال البشرات و رفعوا هنالك لواء الثورة ، وانضم اليهم سكان تلك المنطقة ومزقوا جند الحكومة بادئ بدء واقتحموا الكنائس والاديرة ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة . واستفحل أمر الثورة ، واستطالت معاركها حتى جردت الحكومة على البشرات قوات كبيرة أحاطت بها من كل ناحية ، ونفذت الى مراكز الثوار بعد معارك شديدة (سنة ١٥٦٩) فتحصن الثوار بالجبال . وقدمت إليهم بعض نجدات صغيرة من افريقية استطاعت أن تجوز الشواطئ رغم كل رقابة ، ولبث القتال سجالا بين الفريقين مدى حين ، حتى اضطرت حكومة فيليب الثانى أن توفد من إشبيلية جيشا كبيرا بقيادة القائد الشهير الدون چوان فسارعت البيّازين وغيرها الى تقديم فروض الطاعة ، ولكن الثوار اعتزموا القتال الى النهاية .

وكان محمد بن أمية أو فرديناند دى ڤالور قد قتل غيلة أثناء ذلك ، قتله بعض أنصاره بتهمة الخيانة ، فانتخب الثوار مكانه مولاى عبد الله ، واستمرت الحرب طول الشتاء سجالا بين الفريقين . ولما رأى الدون چوان استبسال الثوار وفداحة المهمة ، لجأ الى المفاوضة وأذاع منشورا بالعفو العام وعد فيه بان يمنح الموريسكيين شروطا حسنة ، وان يقمع الخارجين بلا رأفة ، فجنح من أضناهم النضال الى المسالمة ، وأباها أولئك الذين عرفوا غدر القشتاليين ، وارتد كثيرون بأسرهم الى افريقية خيفة الفشل والانتقام ، فاضطر مولاى عبد الله عندئذ الى الخضوع والمسالمة ، بيد أنه أذعن مؤقتا . وما كاد الدون چوان يرتد بجيشه حتى جمع فلوله ، وطاف بأبناء جنسه يحثهم على القتال والنضال . فاستشاط فيليب سخطا وأمر بأن يطارد مولاى عبد الله وجنده ، وان يؤخذوا أحياء أو موتى ، وان ينفى جميع الموريسكيين من غرناطة . فطورد مولاى عبد الله من صخرة الى صخره حتى مزق جنده ، وقتله أنصاره فى النهاية افتداء لسلامتهم ، وحملت جثته حيث عرضت فى غرناطة ومثل

بها ! وانتزع الموريسكيون من دورهم بلا رأفة، وشردوا فى جبال أوستورياس وجليقية، ووضعوا تحت الرقابة الصارمة[1].

وفى عهد فيليب الثالث، اتخذت أسبانيا النصرانيــة خطوتها الحاسمة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين، وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والارهاق نصارى وقشتاليين، يشهدون القــداس فى الكنائس، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن فرضت عليهم دينها ومدنيتها أن تضمهم الى حظيرتها . وكان ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية ؛ وكان فيليب الثالث ملكا ضعيفا جبانا، وكان يخشى الموريسكيين ! أولئك الذين يعيشون منذ نحو قرن فى ظل العبودية، ويحملون أغلال الذلة دون مقاومة أو تذمر ؛ فأصدر قراره الشهير بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين وأخراجهم نهائيا من جميع الأراضى الإسبانية (سنة ١٦٠٩ م — ١٠١٧ هـ)، وحشدت السفن لنقل من كان منهم فى الثغور إلى افريقية؛ ونزح سكان الشمال منهم الى فرنسا حيث استقروا فى لانجدوك وجويان؛ وبذلك انتهى الفصــل الأخير من مأساة الموريسكيين ؛ وطويت صفحة شعب من أمجد شعوب التاريخ، وحضارة من أعرق حضاراته[2] .

* * *

يقول كوندى فى خاتمة تاريخه معلقا على تلك المأساة :

« وهكذا اختــفى من الأرض الاســبانية الى الأبد، ذلك الشــعب الباسل، اليقظ الذكى المستنير، الذى أحيى بهمتــه وجده تلك الأرض التى اسلمتها كبرياء القوط الخاملة الى الجدب ؛ فأدر عليها الرخاء والفيض، واحتفر لها عديد القنوات ؛ ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معا عرش الخلفاء بسياج من البأس ؛ والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس فى مدنه صرحا

(١) راجع رواية مفصلة لهذا النضال المؤثر فى :
Prescott, Philip II. of Spain, III. Ch. 1-8

(٢) تجد تفصــيلا وافيا لقرار النفى وما اقترن به من الحوادث فى كتابى ديوان التحقيق (ص ٢٥ وما بعدها) .

خالدا من الأنوار التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ؛ والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظيرله من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف لونا غامضا من العظمة الخارقة ، ودهانا سحريا من البطولة يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم انصاف آلهة اليونان .

« ولكن شيئا لا يدوم فى هذا العالم ، فإن هذا الشعب ، قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون إلى أقصى الاجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح . وعبثا يسائل اليوم السائح الفريد قفار الأندلس المحزنة التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب بغتة فى اسبانيا كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه وينشر لهبه فى جنبات الأفق ثم يغيض سريعا فى عالم العدم ؛ ظهروا فى اسبانيا فملأوها بغتة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه الى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة . ولكن هوى يضطرم الى الحرية والاستقلال ، وخلقا متقلبا يميل الى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة يثيره دائما خيال ملتهب ، وشهوات واطماع عنيفة ، ونزعة الى التغلب وغيرها من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئا فشيئا على هدم ذلك الصرح العتيد الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب الى خلافات داخلية فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء . . .

« خرج ملايين العرب من اسبانيا حاملين أموالهم وفنونهم — ثروات الدولة فماذا أنشأ الاسبان مكانهم ؟ لانستطيع أن نجيب بشىء الا أن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . إن ثمة بعض الآثار المشوهة مازالت تشرف على هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الآثار ، ومن صميم هذه الأطلال الدراسة : الشرف والمجد للعربى المغلوب ! والانحلال والبؤس للاسبانى الظافر ! »

وما كلمات الأستاذ لاين بول أقل بلاغة اذ يقول فى مقدمة كتابه عن العرب فى اسبانيا « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر

أوربا ، وازهرت بقاعها الخصيبة بجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير فلم يبق ثمة مايذكرنا بماضيها المجيد سوى الأسماء — والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون دون سائر الأقطار الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والتشريع الا فى اسبانيا العربية ، فكل مايدعو الى عظمة أمة وسعادتها ، وكل مايؤدى الى رقى باهر وحضارة سامية فاز به مسلموا اسبانيا .

« . . ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وايزابيلا وشارل الخامس وفيليب الثانى وكلومبس وكورتيز و بيزارو لتموت بموتها دولة عظيمة ، ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق ، وسادت بعد ذلك فى اسبانيا ظلمة حالكة ، فأصبح لايعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور ... وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، ومحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدن الكبيرة ، وذوت نضارة الوديان الخصيبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان . ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد اقصائها العرب ، وهكذا يبدو البون شاسعا بين أدوار تاريخها ! »

هكذا كانت مأساة العرب المتنصرين ، وهكذا كان مصرع الحضارة الأندلسية . ولعل فى قول ابى البقاء الرندى فى مرثيته الأندلسية الشهيرة خير تفسير لتلك المأساة الخالدة التى تجوزها الأمم والدول والمدنيات على كر العصور :

لكل شىء اذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الامور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضى كل شىء للفناء ولو	كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

الفصل الثامن عشر

تراث الأندلس الفكرى

فى مكتبة الاسكوريال

كانت حضارة العرب فى اسبانيا مبعث ضوء عالمى فى العصور الوسطى ، وكان للتفكير فى الأندلس أعظم دولة ؛ و بينما كانت أوربا تجوز غمر البداوة والجهالة ، ويبلى تراث التفكير القديم فى ظلمات الأديار، إذا معاهد قرطبة ترسل أضواءها الى أقاصى الشمال والغرب . وفى قرطبة بلغ التفكير الاسلامى أرفع ذراه و بلغ تراثه أنفس مراحله وأعظمها . ولكن عواصف السياسة ، ومصائب الحروب وخطوب الزمن، نكبت هذا الصرح غير مرة فقوضت دعائمه، و بددت من كنوزه أثناء قيام الدولة الاسلامية ذاتها .

ولما تضاءلت عظمة الإسلام فى اسبانيا، وانحصرت دولته فى مملكة غرناطة، لبثت غرناطة زهاء قرنين مركز التفكير الاسلامى فى الغرب، ولبثت مستودع العلوم والآداب، وغصت مكاتبها العامة والخاصة بنفائس الكتب والآثار . فلما سقطت دولة الاسلام فى اسبانيا بسقوط غرناطة معقله الأخير سنة ١٤٩٢، انهارت دعائم هذا الصرح الفكرى الجليل، ولم تمض أعوام أخرى حتى ارتكبت اسبانيا النصرانية جريمتها البربرية الشائنة بتدمير تراث التفكير الاسلامى . ففى سنة ١٤٩٩ ، أمر الكردينال كمنيس مطران طليطلة بجمع جميع الكتب والآثار العربية فى غرناطة وتنظيمها أكداسا فى ساحات المدينة ، واحتفل باحراقها « بعمل من أعمال الايمان » Auto da fé، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة «الكالا» (القلعة)، وهلك فى تلك المحنة معظم تراث

الأندلس الفكرى[١] ، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربيـة قبرت فيما بعد فى أروقة قصر الاسكوريال المظلمـة وفى بعض المكاتب العـامة .

وكانت المخطوطات العربيـة التى أودعت فى مكتبة الاسكوريال الملكية تبلغ عدة آلاف حتى أواسط القرن السابع عشر . وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها فى اسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقيـة من تراث الأندلس . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الاسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين[٢] . وكانت الحكومة الاسبانية أثناء هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء الآثار العربيـة عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تنبث روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل جهد وسيلة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم تحملهم نزعة الدين والجنس ، فيعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسـة ، التى تلق أكبر ضوء على تاريخ اسـبانيا وحضارتها وثقافتهـا أيام الدولة الاسـلامية ، ولا يرجعون فى هذا القسم من تاريخ بلادهم إلا الى المصادر القومية النصرانية ، ومن ثم كانت كتبهم فى هـذه العصور تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تفق الحكومة الاسبانية من جمودها ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس والتعريف به قبـل أواسط القرن الثامن عشر . فعندئذ انتدبت عالمـا شرقيا يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية

---

(١) يختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة ، فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن كوندى يقدرها بثمانين ألفا وتقديره أرجح وأقرب الى المعقول ؛ لأن المكتبة الأموية الشهيرة فى قرطبـة لم تزد طبقا لأصح الروايات على ستمائة ألف مجلد . وقـد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ولم يجتمع فى غرناطة مجموعة بهذه الضخامة . ولكنها كانت تحتوى عدة مجموعات مختلفة خاصة وعامة وكان طبيعيا أنها وهى عاصمة الاسلام فى الأندلس تحتوى أنفس الآثار العربية الأندلسية . وفى عهد فيليب الثالث أسر الأسبان مركبا ضخمة مشحونة بالكتب العربية التى كانت لمولاى زيدان أمير مراكش ، فزادت بها مجموعة الاسكوريال زيادة كبيرة .

(٢) يقـدر عدد الكتب التى هلكت فى هـذا الحريق بثمانية آلاف مجـلد معظمها من المخطوطات العربيـــة .

وهو ميشيل الغـزيرى اللبنانى الذى يعرف فى الغـرب باسم كازيرى — Casiri وعهدت اليه بدرس الآثار العربيـة ووضع فهرس جامع لها . والظاهر أن مثـل هذا الفهرس الجامع لم يوضع من قبل ، وكل ما هنالك أن العلامة شتاينشنيدر عثر أثناء مباحثه فى مكتبة الفاتيكان على ثبت لمحتويات مكتبة الاسكوريال باللاتينية أدرجت فيه أسماء مئات قليلة من الكتب العربية ، ووضعت عناوينها فى مزيج من العربية واللاتينية[1] ولكن المجموعة العربية لبثت طوال هذه العصور محجوبة مجهولة من البحث الحديث .

وكان « كازيرى » (الغزيرى) رجل المهمة فهو سـورى درس العربيـة ثم درس اللغات الساميـة واللاتينية والاسبانية ، وقضى حداثته وفتوته فى رومه مهد المباحث الشرقية يومئذ الى جانب مكتبة الفاتيكان التى تغص بالمخطوطات العربية والشرقيـة . فلبى دعوة الحكومة الاسـبانية وعين سـنة ١٧٤٩ مديرا لمكتبة الاسكوريال ، وأقام فى قصر الاسكوريال زهاء أربعة أعوام يستعرض الآثار العربية ويدرسها ويحققها ، ثم بدأ يضع عنها الفهرس الجامع الذى عهد اليه بوضعـه . وفى سنة ١٧٦٠ ظهر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان

Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis

« المكتبة العربيـة الاسـبانية فى الاسكوريال » ، « وضـع وشرح العلامة ميخائيل كازيرى السـورى المـارونى ، الحبر ، الخبـير ، اللغوى ببلاط كارلوس الثالث » . وصدّر كازيرى معجمه بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة المخطوطات العربية وأهميتها . وقسم هذه الآثار إلى عدّة فنون ، وبدأ بكتب اللغـة وعلومها ، وهى تشـمل من المخطوط رقم ١ حتى رقم ١٥٩ ، وأولها نسخة من كتاب سيبويه فى النحو ، ثم الشعر وأبوابه وعلومه ، ويشمل هذا القسم من رقم ١٦٨ الى ٤٨٨ . ثم الفلسفة وما يتعلق بها وتشمل من رقم ٤٨٩ الى ٧٠٥ . ثم الأخلاق والسياسـة وتشمل من رقم ٧٠٦ الى ٧٨٤ . ثم الطب والتاريخ الطبيعى وتشمل من رقم ٧٨٥

(١) راجع : Direnbourg : Les Manuscrits arabes de l' Escurial — المقدمة

الى ٩٠١ . ثم الرياضة والهندسة والفلك وتشمل من رقم ٩٠٢ الى ٩٨٥ . ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن وتشمل من رقم ٩٨١ الى ١٦١٧ . ثم الآثار النصرانية وتشمل من رقم ١٦١٨ الى ١٦٢٨ . وهذه هى محتويات الجزء الأول من الفهرس . ولم يظهر الجزء الثانى الا فى سنة ١٧٧٠، أى لعشرة أعوام كاملة من ظهور الجزء الأول . وأوله كتب الجغرافيا وتشمل من رقم ١٦٢٩ الى ١٦٣٥ ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ الى ١٨٥١ . وهذا الرقم هو نهاية الفهرس . ولم يدون كازيرى بعده شيئا، وان كانت قد ظهرت بعد ذلك نحو مائة مخطوط أخرى على نحو مانذكر بعد . ويختتم كازيرى معجمه بثبت جامع لأسماء المؤلفين وأرقام مؤلفاتهم .

ولم يقف كازيرى فى معجمه عند ذكر العناوين والأسماء والمحتويات، ولكنه يعمد فى فرص كثيرة الى التحقيق والتعليق والشرح، فيدرس حقيقة المخطوط وشخصية مؤلفه، ويعرض خلال معجمه كثيرا من النصوص والتراجم، وينقل وثائق برمتها، ومعجمه مجهود علمى شاسع ينم عن غزارة علمه رغم مايتخلله فى مواطن كثيرة من الخطأ والتحريف . وقد حمل على مجهوده بعض العلماء المتأخرين الذين درسوا من بعده مجموعة الاسكوريال وأبدوا ريبهم فى قيمته العلمية[١] . ولكن معجم كازيرى يبقى مع ذلك مرجعا نفيسا وبيانا غزيرا وعرضا بديعا للآثار العربية فى قصر الاسكوريال .

* * *

وكان أهم ما اتجهت اليه الأنظار بعد ظهور معجم (كازيرى) هو التنقيب فى مجموعة الاسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ العرب فى اسبانيا، وسياسة الحكومات المسلمة وخواص المجتمع الاسلامى؛ فعنى طائفة من الباحثين فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى، ببحث تاريخ الآداب والعلوم العربية، فأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدى مؤلفه

---

(١) راجع مقدمة درنبور المشار اليها .

الضخم «التاريخ النقدى لاسبانيا والحضار الاسبانيه» .

Historia critica de Espana y de la cultura espanola

وهو من أجل المصادر فى تاريخ الحضارة الأندلسية، وفيه نبذ و روايات شائقة عن خواص المجتمع الاسلامى فى اسبانيا ونواحى التفكير الاسلامية . ويفسح ماسدى للمراجع العربيـة فى مؤلفه مجالا شاسعا . ولكن تاريخ اسبانيا المسلمة كما تعرضه المصادر العربية لبث محجوبا عن الغرب حتى جاء العلامة المستشرق يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد ، فدرس المصادر العربية من هذه الناحية درسا مستفيضا . وأنفق أعواما طويلة فى التنقيب فى مخطوطات الاسكوريال . وأخرج مؤلفه الشهير «تاريخ دولة العرب فى اسبانيا» .

Historia de la Dominacion de los Arabos en Espana.

وظهر الجزء الأول من هذا التاريخ فى سنة ١٨١٠ ، ولكن كوندى توفى فى نفس هذا العام فنشر الجزآن الباقيان من مخطوطاته فى العام التالى . ويتناول الجزء الاول تاريخ العرب فى اسبانيا من الفتح حتى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) فى أوائل عهد الحاجب المنصور، ويتناول الجزء الثانى تاريخ الدولة العامرية وملوك الطوائف حتى قيام مملكة غرناطه . ويشمل الثالث تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها فى سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) — وينقل كوندى كثيرا من الروايات العربية دون دقة أو تمحيص أو مقارنة، ويقع فى كثير من الاخطاء التاريخية، ولكنه يمتاز فى كثير من تعليقاته وملاحظاته بالصراحة الجمة، حتى أنه يذهب أحيانا الى اصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصا فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الاسبان للعرب ومطاردتهم وتنصيرهم، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم فى غمر من الفظائع والدماء، على أن أهم ميزة لمؤلف كوندى هى انه أول مؤلف غربى يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية، وفيه لأول مرة يقف الغرب على دفاع العرب و وجهات نظرهم وخواص نظمهم وسياستهم .

ومن ذلك الحين أخذت المصادر العربية تمثل فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس، حتى جاء العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى[١] فخص دراسة التاريخ الأندلسى ودراسة مصادره العربية والغربية، باعظم جهوده، وأخرج لنا فى سنة ١٨٦١ كتابه القيم «تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين» Histoire des Musulmans d' Espagne jusqu' à la Conquête de l'andalousie par les Almoravides فى أربعة أجزاء . ويتناول دوزى تاريخ الأندلس بأسلوب فلسفى نقدى قوى ، ويعنى بشرح الظواهر السياسية والاجتماعية أكثر مما يعنى بسرد الحوادث، ومؤلفه بلا ريب من أجل المراجع الغربية فى تاريخ الأندلس وان كانت تشوبه أحيانا نزعات من التحامل والتعصب. ويهاجم دوزى، كوندى ومؤلفه بشدة ، ويرميه بالادعاء والجهل حتى بمبادئ اللغة العربية، ويقول عنه فى كتابه « مباحث فى تاريخ اسبانيا وآدابها فى العصور الوسطى »[٢] : « إنه — أى كوندى — لا يعرف من العربية غير الحروف التى كتبت بها سوى القليل وإنه يستعيض عن أقل المعارف الابتدائية بخيال وافر الخصوبة، وبجة لا مثيل لها ، فيزيف مئات التواريخ، وآلاف الحوادث . ويزعم فى نفس الوقت أنه ينقل النصوص العربية نقلا صادقا » . ودوزى يذهب بعيدا فى الحكم على كوندى ومؤلفه . فإن كوندى يدلل فى كثير من المواطن على تمكنه من اللغة التى ينكر عليه دوزى معارفها الابتدائية، وينقل كثيرا من الأقوال والروايات العربية المعروفة بدقة، وإذا كان كوندى قد وقع فى كثير من الأخطاء سواء من حيث الوقائع أو التواريخ، فإنه مع ذلك صاحب الفضل الأول فى اظهار الناحية العربية من تاريخ الأندلس للغرب، ومؤلفه يبقى رغم ذلك مرجعا له قيمته، ولا سيما فى تاريخ الطوائف والمرابطين، ومملكة غرناطة .

---

(١) سنة ١٨٢٠ — ١٨٨٣

(٢) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge.

* * *

ولبث معجم « كازيرى » أكثر من قرن مرجعا فريدا للمجموعة العربية فى الاسكوريال حتى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية، بدراسة جديدة لمحتويات هذه المجموعة . فأنفق فى هذه المهمة أعواما . وأخرج فى سنة ١٨٨٤ ، أول جزء من معجمه : « المخطوطات العربية فى الاسكوريال » Les Manuscrits arabes de l'Escurial

ومع أنه انتهى بالدرس والمقارنة الى الارتياب فى قيمة مجهود سلفه، والى تبيان كثير من اخطائه، فانه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته فى التنظيم والتبويب والترقيم، مع تغيير يسير[١]. وقد عثر ديرنبور فى زوايا الاسكوريال على نحو مائة مخطوط عربى أخرى لم يذكرها كازيرى، كما أنه لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى كثير من آثار هذه المجموعة خلال الأحقاب المختلفة، ويرجع ذلك على ما يظهر الى تهاون فى حفظها وصونها . ذلك أن مكتبة الاسكوريال لم تكن مكتبة عامة، بل كانت مكتبة خاصة، وكانت ملكا خاصا للعرش الاسبانى، ولم تصبح ملكا للدولة إلا منذ عامين، أعنى منذ سقوط الملكية الاسبانية . والمرجو أن تكون حكومة الجمهورية أكثر حرصا على صون ذلك التراث النفيس ورعايته .

وقد انتهى ديرنبور فى تعداده الى الرقم ١٩٥٥، وكازيرى يقف عند الرقم ١٨٥١ التى تعادل رقم ١٨٥٦ من احصاء ديرنبور، فهو يزيد على كازيرى بمائة أثر جديد عثر بها . ويخصص ديرنبور الجزء الأول من معجمه لكتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة متبعا فى ذلك تقسيم كازيرى تقريبا، ويشمل هذا الجزء سبعمائة كتاب وثمانية من (١ — ٧٠٨) وفى سنة ١٩٠٣، أصدر ديرنبور قسما صغيرا من الجزء الثانى محتويا على كتب الأخلاق والسياسة، وتعدادها من الرقم ٧٠٩ الى ٧٨٨. ثم توفى سنة ١٩٠٥ دون أن يتم مهمته . فانتدب المستشرق الفرنسى ،الأستاذ ليفى بروفنسال لاتمام عمله . واستعان بمذكرات ديرنبور، وأصدر الجزء الثالث

---

(١) راجع مقدمة ديرنبور لمعجمه المشار اليه .

من فهرس الاسكوريال سنة ١٩٢٨ محتويا على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ (من الرقم ١٢٥٦ — ١٨٥٢) متبعا تقسيم كازيرى وترقيمه أيضا . ولا يزال عليه أن يخرج لنا بقية الجزء الثانى وفيه الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه، ثم الجزء الرابع محتويا لأوصاف الكتب التى غابت عن كازيرى وعددها مائة (من الرقم ١٨٥٣ — ١٩٥٢)[1] .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار العربية والتعريف بها على هذا النحو فتحا عظيما فى تاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الاسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية النصرانية من شذور مغرضة. وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والكذب، فجاءت وثائق الاسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ومبلغ ما وصلت اليه من الإزدهار والتقدم . فقد ظفر البحث فى هذه الوثائق مثلا بمخطوطات عربية ترجع الى سنة ١٠٠٩ م كتبت على ورق من القطن، ثم بأخرى ترجع الى سنة ١١٠٦ م كتبت على ورق من الكتان مما يشهد لعرب الأندلس بفضل السبق والبراعة فى هذه الصناعة، وكذا بطائفة من المخطوطات التاريخية تدلى بأن العرب كانوا أول من استعمل الديناميت فى الحرب ، وغير ذلك مما يلقى أكبر الضياء على حقائق لبثت تحتضر قرونا فى ظلمات الاسكوريال .

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ ليفى بروفنسال لجزء الثالث من الفهرس .

بحـــوث مفـــردة

- ٣ -

الفصل التاسع عشر

مركو بولو

رحالتان شهيران هما أول من كشف للعالم أسرار المجتمعات الأسيوية فى العصور الوسطى وروعة الشرق الأقصى، وبهاء قصوره، وبذخ امرائه وسادته . ذان هما مَرْكو بولو البندق ،وابن بطوطة الطنجى . وقد انتهى الرحالة الفرنجى من اختراق القارة الشاسعة، وفرغ من تدوين رحلته ومشاهداته فى الوقت الذى ولد فى فيه الرحالة المسلم، واجتاز الأول القارة من أواسطها ، واجتازها الثانى من الجنوب ، فجاء مجهوده متمما لمجهود سلفه ؛ وقد سلخ كل منهما شرخ شبابه فى تعرف أحوال الأمكنة والمجتمعات التى ألقت به إليها أقدار رحلته . وإذا كان للرحالة الفرنجى فضل السبق فى كشف ما كشف من مجاهل المجتمعات الأسيوية، فانما تدين بهذا الفضل إليه أمم الغرب التى كانت يومئذ أقلية فى العالم المتمدن؛ وانما يرجع الفضل الى الرحالة المسلم فى تعريف الأمم الشرقية والإسلامية بعضها بأحوال بعض ، وأحوال ما يشوق من أسرار مجتمعات كان ذكرها يجرى يومئذ مجرى الأساطير والقصص الرائعة؛ بل إن مشاهدات مركو بولو لم تكن عرفت ولا ذاعت بعد، يوم بدأ ابن بطوطة جولته من مغرب الأرض الى مشرقها . هذا الى أن الرحالة المسلم يمتاز عن سلفه الفرنجى باجتيازه مجاهل إفريقية الشرقية، وكثيرا من الأقطار والجزائر الأسيوية الجنوبية ، ويمتاز عنه بما هو أهم من ذلك، أعنى بدقة البيانات والملاحظات الجغرافيه والتاريخية والاجتماعية؛ ويرجع ذلك إلى أن الرحالة المسلم كان بتربيته وظروف المجتمع الذى نشأ فيه أقرب من سلفه إلى تفهم أحوال الأمم والمجتمعات التى أتيح له أن يتجول فيها .

ومع ذلك فان مشاهدات مركو بولو صفحة من أنفس صفحات التاريخ الأسيوى وتاريخ التتار والترك السلاجقة بوجه خاص . وهى ما زالت وثيقة يُرجع اليها فى تحقيق كثير من الحوادث التى تقترن بسيرة هذه الدول المغولية التى كانت تبسط سلطانها من شواطىء المحيط الهادئ إلى شرق أوربا .

***

وقد نشأ مركو بولو رحالة بالمصادفة . ولذلك قصة شائقة طريفة ؛ ففى القرن الثالث عشر كانت البندقية (ڤينيزيا)[1] أهم بلد تجارى فى بحر الروم ، وكانت سفنها التجارية تجوس خلال الثغور الشرقية حتى بلاد القرم ، وتجارها يجوبون آفاق المشرق كله . وكان من هؤلاء والد الرحالة نيكولو بولو وهو بندقى من أسرة نبيلة وصاحب بيت تجارى يعمل فى قسطنطينية ما بين البندقية والمشرق . ففى سنة ١٢٦٠ م ركب نيكولو بولو البحر فى مركب خاصة ، محملة بنفيس البضائع ، ومعه أخوه وشريكه مافيو ، الى بيزنطية (قسطنطينية) فوصلاها بسلام . وكان ذلك فى عهد بلدوين الثانى آخر ملوكها من الأمراء الصليبيين . وبعد أن انفقا حينا فى المتاجرة اعتزما أن يتابعا الرحلة إلى ثغور البحر الأسود فقصدا سولدانيا (سوداق) من ثغور القرم ؛ ثم سافرا بمتاعهما على ظهور الخيل حتى وصلا إلى "بلغارا" ونزلا ببلاط أمير تترى يحكم تلك الأنحاء ، فرحب بهما وأكرم مثواهما ، فرأيا أن يثيباه عن حسن اللقيا وقدما اليه ما معهما من الجواهر الغالية هدية خالصة ، فأعجب الأمير بكرمهما وأمر بأن يدفع اليهما ثمن الجواهر مضاعفا وان تقدم اليهما طائفة من نفيس الهدايا والتحف .

وبعد أن أقام الأخوان عاما فى أرض الأمير أرادا العودة الى وطنهما ؛ ولكن الحرب نشبت بين هذا الأمير وبين «الاؤو» وهو أمير تترى آخر يحكم الولايات الشرقية فقطعت السبل وأضحى من المستحيل على نيكولو وأخيه أن يعودا الى بيزنطية من حيث قدما ؛ فسلكا طريقا غير مطروقة ، وسافرا شرقا الى بخارى وكانت يومئذ

(١) يسمى العرب ڤنيزيا بالبندقية تحريفا لاسمها اللاتينى Venetiae

تابعة لحكومة فارس، وفيها اضطرا بحكم الظروف الى الصبر والانتظار، وتعرفا هنالك بعظيم من أكابر التتر كان قد أوفده «الاؤو» سفيرا الى الملك الأكبر «كو بلاى خان» أمبراطو التتار جميعا؛ وكان بلاطه يومئذ «فى نهاية القارة فيما بين الشرق والشمال الشرقى» فأعجب هذا السفير بذكاء الإيطاليين وخلالهما الحسنة، ولم يكن رأى فرنجيا من قبل. وكانا قد درسا اللغة التتارية فاقترح عليهما أن يصحباه الى «الخان» (الملك) الأكبر فيسر برؤيتهما و يغدق عليهما عطفه وكرمه؛ ولما كانا قد يئسا مؤقتا من العودة الى البندقية فقد قبلا دعوته وسارا معه سنة كاملة حتى وصلا الى بلاط الملك الأكبر، فاستقبلهما بأدب واحتفى بهما؛ وكانا أول من وفد على بلاطه من الفرنج. وسألهما عن ملوك النصرانية وأمبراطور الروم وأحوال ديارهم ومدى أقطارهم وطرق اجراء العدل لديهم وأساليبهم فى الحرب الى غير ذلك؛ وسألهما بالأخص عن البابا وعن دين النصرانية، فأجاباه بالتتارية عن كل ما سأل إجابات حسنة شافية سر منها وقربهما اليه؛ واعتزم أن يبعث بهما سفيرين مع أحد رسله الى رومة ليطلبا إلى قداسة البابا أن يبعث اليه بمائة رجل من ذوى العلم والتقى ليذيعوا فى أقطاره دعوة النصرانية ثم يحملان إليه قدرا من الزيت المقدس الذى يحرق فى قبر السيد المسيح فى بيت المقدس.

فلما سمعا هذه الأوامر من الخان الأكبر سجدا أمامه وأعلنا أهبتهما لتنفيذ ما طلب، فزودهما بالرسائل والجوازات وانتدب رسولا من قبله معهما يدعى «خوجاتان». ولكن رسول الخان ما لبث أن مرض بعد أسابيع قلائل من السير فتركاه بإذنه وأمره فى مدينة «ألاو» وجدا فى السير، والجوازات الملكية تفتح لهما كل طريق وتذلل كل صعب، حتى وصلا بعد ثلاثة أعوام إلى ثغر لايسوس فى جنوب الأناضول، وسافرا من هنالك الى عكا فوصلاها فى شهر أبريل سنة ١٢٦٩؛ وهنالك علما أن البابا كليمنضوس (كليان) الرابع قد توفى. وكان يقيم فى عكا سفير بابوى يدعى تبالدو دى بياشنزا فأبلغاه رسالة الخان فنصح اليهما أن ينتظرا حتى ينتخب البابا الجديد ويبلغاه الرسالة فعملا بنصحه وسارا إلى البندقية، وهنالك الفى نيكولو پولو

أن زوجه قد توفيت بعد أن تركت له طفلا كانت تحمل به حين سفره واسمه (مركو) وكان يومئذ فى الخامسة عشرة من عمره وهو الرحالة المستقبل الذى كان أول من كشف للمجتمع الأوربى أسرار الشرق الأقصى .

ولسنا نعرف شيئا عن طفولة « مركو بولو » ولكن الظاهر أنه قضى أعوامه الأولى فى منزل أحد أعمامه فى البندقية . وقضى نيكولو وأخوه مافيو عامين فى البندقية انتظارا لانتخاب البابا الجديد، فلما يئسا من ذلك اعتزما العودة إلى الخان الأكبر ليبلغاه بما كان من أمر رسالته وكيف انهما اخفقا فى مهمتهما . فركبا البحر فى سنة ١٢٧١ ومعهما « مركو » وكان عندئذ فتى فى السابعة عشرة . فلما وصلا إلى عكا أخذا من السفير البابوى خطابا للخان شرح فيه حقيقة الحال ، وحملا للخان شيئا من الزيت المقدس . ثم تابعا السير نحو الشمال، غير أنهما لم يبعدا كثيرا حتى أرسل السفير فى أثرهما ينبئهما بأنه قد انتخب خليفة للكرسى المقدّس واتخذ اسم البابا جريجورى العاشر، وانه يستطيع الآن أن يحقق أمنية الخان . فعادا مسرعين إلى عكا فى سفينة مسلحة قدمها اليهما ملك أرمينيا . فاستقبلهما قداسته بترحاب؛ وزودهما بعدّة رسائل بابوية للخان، وأوفد معهما قسيسين ليقوما فى البلاط التترى بمهمة الوعظ وسائر الاجراءات الدينية ومعهما من لدنه عدة تحف مقدسة للخان باركها بنفسه . ثم ركب الجميع البحر ثانية إلى ثغر لايسوس . وما كادوا يتوغلون فى الأراضى الأرمينية حتى نمى اليهم أن الحرب تضطرم فى تلك الأنحاء، وأن جيوش سلطان مصر الظاهر بيبرس « البندقدارى » تمعن فيها قتلا وتخريبا، فارتاع القسان واعتزما العودة وسلما مامعهما من الرسائل والتحف الى الأخوين ؛ واستمر نيكولو ومافيو ومركو فى طريقهم حتى عبروا حدود أرمينيا سالمين . ثم جازوا عدة صحارى قفرة ومفاوز وعره وتوغلوا فى الشمال الشرقى حتى علموا أن الخان الأكبر يقيم يومئذ فى مدينة ضخمة كبيرة تسمى « كامنفو » فقصدوها ووصلوها بسلام بعد رحلة شاقة دامت أكثر من ثلاثة أعوام . واستقبلهم كوبلاى خان فى مجلس حافل فقصوا عليه ما آلت اليه سفارته وقدموا اليه خطابات البابا وهداياه والزيت المقدّس ، ثم

استفهم من نيكولو عن ذلك الفتى الذى رآه لأول مرة فأجابه «انه عبدك ولدى» فسر الخان بذلك وأمر بأن يلحق «مركو بولو» بغلمانه؛ وسرعان ماشق الفتى طريقه فى البلاط وأعجبت بطانة الخان بظرفه وخلاله . ودرس مركو اللغة التارية واعتنق عادات التتار بسرعة . فقربه الخان وأحبه لذكائه ومواهبه، وأرسله فى عدة مهام فى بعض أقطاره النائية؛فكان يؤديها على أكمل وجه ويطرب الخان بما يقصه عليه من أنباء الرحلات وأحوال الرعية .

وأنفق مركو وأبوه وعمه فى بلاط كوبلاى خان زهاء سبعة عشر عاما قام مركو خلالها بكثير من المهام السياسية والادارية فى جميع أقطار الدولة المغولية الشاسعة، وتوغل فى أقصى جنباتها ، ودرس أحوالها ومواقعها واستطاع أن يقف على كثير من الأمور والشئون سواء مما شاهد بنفسه أو مما سمعه من الثقات؛ وكان البنادقة بعد طول البعاد يضطرمون شوقا إلى الأهل والوطن ويخشون أن يموت كوبلاى خان وقد شاخ وضعف قبل أن يمهد لهم سبيل العودة . ولكن الخان لم يأذن لهم وأصر على استبقائهم ، فصبروا مكرهين حتى سنحت فرصة رأوها صالحة لتدبير العودة . وذلك أن الملكة بلغان زوج أرجون خان ملك فارس وخراسان توفيت ، وكانت من البيت التتارى الملكى . فبعث أرجون إلى الخان الأكبر فى كاتاى يلتمس اليه أن يبعث اليه بزوج جديدة من أسرة الملكة المتوفاة . والتقى رسله هنالك بالبنادقة ، واهتم الخان الأكبر بالتماس أرجون واختار له فتاة حسناء رفيعة التربية والخلال تدعى كوچاتين وأعد لها أسباب الرحيل مع رسل أرجون . وسار الركب الملكى مدى ثمانية أشهر فى وهاد ومفاوز شاقة حتى اعترضته الأنباء بأن حروبا جديدة نشبت فى الغرب بين الأمراء التتار وأن السبل إلى فارس مقطوعة خطرة . فارتد مرغما إلى بلاط الخان الأكبر . وكان مركو بولو قد عاد وقتئذ من من رحلة بحرية قام بها فى البحار الجنوبية إلى جزائر الهند الشرقية، وروى للخان أن الملاحة فى هذه البحار آمنة جدا . فاهتم رسل أرجون لقوله ، واجتمعوا بالبنادقة واتفق الفريقان أن يلتمس الرسل الى الخان أن يعودوا بالملكة إلى بلادهم من

طريق البحر الآمن طبقا لقول مركو بولو وأن يلتمسوا اليـه فى الوقت نفسـه أن يأذن بأن يصحبهم البنادقة فى رحلتهم لانهم قوم مهرة فى الملاحة . وعلى ذلك تقدم الرسل الى الخان بهذا الالتماس المزدوج فأذن به مكرها . ودعا البنادقة وخاطبهم فى رفق وعطف وطلب اليهم أن يقطعوا على أنفسهم عهدا بالعودة اليه بعد أن يروا أهلهم وأوطانهم . ثم زودهم بالجواز الامبراطورى وعهد اليهم أن يكونوا سفراءه الى ملوك فرنسا واسبانيا وغيرهم من ملوك النصرانية . وأعد الخان للركب أربع عشرة سفينة كبيرة ووهب البنادقة طائفة من الحلى والأحجار النفيسة . وركب الجميع البحر ومعهم الأميرة الفتاة فوصلوا إلى جاوة بعد ثلاثة أشهر، ثم جازوا البحار الهندية فوصلوا إلى ثغور الملك أرجون بعد ثمانية عشر شهرا مات خلالها مئات من البحارة واثنان من رسل الملك ولم يبق سوى الثالث . فلما رسوا عرفوا أن الملك أرجون قد توفى وأن أخاه كيا كاتو يحكم مكانه بالنيابة عن ولده الصبى كاسان، فتقرر أن تزوج الاميرة الفتاة من كاسان . واستراح البنادقة هنالك عدة أشهر، ثم منحهم كيا كاتو الجوازات الملكية وأمر أن يزودوا أينما ساروا بالحرس والمؤن ، وأن يذلل فى سبيلهم كل صعب حتى يخرجوا من أرضه . فاستأنفوا سيرهم ، وعلموا أثناء الطريق بموت الخان الأكبر كوبلاى ، و وصلوا إلى ثغر طرابزون ، ثم ساروا إلى القسطنطينية ، ثم إلى نجرو بنت . وأخيرا وصلوا إلى البندقية فى أمن وسلام فى سنة ١٢٩٥م . وقد رويت عن مقدمهم قصص غريبة من ذلك أن أقاربهم لم يعرفوهم حين وفدوا عليهم فى ثياب تتارية خلقة لايكادون ينطقون بلسانهم القومى ، ولم يعرفوهم حتى انتزعوا تلك الأطمار البالية ، وأخرجوا من بطانتها أنفس الجواهر . على أن مركو بولو لم يمكث طويلا بين أسرته ، فقد كانت الحرب ناشبة بين البندقية وجنوه ، ولما كان آل بولو من النبلاء الأغنياء فقد دعوا إلى تجهيز مركب خاصة . وقاد مركو مركب أسرته فى أسطول أندريا داندولو صاحب البندقية ، فهُزم البنادقة فى مياه كرسولا فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٩٧ ، وأسر مركو بولو ، وحمل سجينا إلى جنوه حيث بقى زهاء ثلاثة أعوام رغم مابذل لافتدائه . والغالب

أنه أنشأ سيرة رحلاته فى تلك الفترة وقد أملاها بفرنسية رديئة على رفيق أسير. ثم عاد إلى البندقية فى سنة ١٢٩٩، وتزوج بعدئذ بقليل. ولسنا نعرف كثيرا عنه بعد عودته من الأسر، وخلاصة مانعرف أنه عاش غنيا شهيرا، وأنه كان يسمى « المليونى » أعنى صاحب الملايين لما كان يذيعه من القصص الرائعة عن بذخ كوبلاى خان. ومرض الرحالة فى سنة ١٣٢٤ مرضا أنذره بدنو اجله، فكتب وصيته وتوفى بعد تنفيذها بقليل ودفن فى كنيسة القديس لورنزو، ولكن موقع قبره الحقيق غير معروف.

⁂

تلك هى السيرة العجيبة التى تخرج فى حوادثها الشائقة أول رحالة كشف للعالم عظمة الشرق الاقصى وصور روعته وبهائه. بيد أن المجتمع الذى أفضى اليه مركوبولو بمشاهداته ومباحثه كان ضنينا فى تأييده والإيمان به، فلم تلق روايات الرحالة يومئذ كبير ثقة. بل لعل مركوبولو قد تأثر بتلك العاطفة ولم يكشف كل مارأى وسمع مما قد يذهب لدى قومه مذهب الأساطير المدهشة. ولنا فى روح هذا العصر وأحواله ما يفسر ذلك، فلم تعرف أوربا فى القرون الوسطى عن المشرق من الصور إلا ما جاء فى التوراة وما رواه الصليبيون، ولم تشهد منها إلا ماعرضته ثغور الشام و بيزنطية وما جاورها من ثغور البحر الأسود. أما الشرق الأقصى فكان يحجبه عن العالم الأوربى ستار كثيف من الخيال الرائع. ومع ذلك فإن روايات مركوبولو جاءت أعجب من كل ماتصور الناس يومئذ عن هذا الشرق، وذهبه الوهاج وملوكه العظام، وقصوره السحرية، وأنهاره التى تفيض بالشهد واللبن، وحوره وولدانه، وجنه وشياطينه وكنوزه، وعلى العموم كل مايحيط به من أسباب الخفاء والبهاء والروعة. وقد لاقى ابن بطوطة من مجتمع عصره مالقيه مركوبولو من الانكار والتحامل.

ومع ذلك فان مشاهدات مركوبولو وبحوثه من أعظم ما كتب الرحالون؛ فما زالت إلى اليوم حجة لبعض أنحاء آسيا الوسطى والصين، وستبق دائما من أثمن

المصادر للجغرافى والمؤرخ والباحث فى شئون الحياة الأسيوية . واذا كان مركو بولو يمزج مشاهداته بطائفة من الصور والأساطير التى لا يسيغها العقل الحديث والتى تذكرنا «بالكرامات» التى يذكرها ابن بطوطة فى روايته من آن لآخر ، فان ذلك يرجع إلى روح العصر وعقليته من جهة، و إلى الوسط الذى استقى فيه مركو بولو صوره من جهة أخرى؛ فقد وفد مركو بولو على أعظم قصور هذا العصر، وشاهد من بذخ «ملك الملوك» (كوبلاخان) ومن شاسع أقطاره، وعظم سلطانه، ووفرة ماله وترفه؛ وسمع من بطانته وقادته وضباطه، عباده وعبيده، ما أذكى خياله — خيال العصور الوسطى — الى الذروة، ودفع لسانه وقلمه بما قد يقبله خيال عصره، وما يلفظه العقل الحديث . على أن هذا الانحراف الذى يرجع الى طبيعة العصر ، لم ينتزع من الرحالة صدق الرواية ولا عمق البحث، فى كثير من الأمور التى قد تنبو عن ذهنه لدقتها وغرابتها . وللتدليل على هذه الدقة نورد روايته عن الاسماعيلية فى عصره ففيها يقول :

« فى التعريف بشيخ الجبل، وقصره و بساتينه وأسره وموته

«و إذ ذكرنا هذه البلاد (مشيرا الى شمال فارس وولايات قزوين) فسوف نتكلم الآن عن شيخ الجبل . إن البقاع التى يشغلها تعرف «بالملحدة» وهو ما يعنى فى لغة العرب مكان الكفرة، وسكانها هم الملاحدة أو أصحاب العقائد الزائغة كما نطلق نحن صفة الباتارينى (الباتالان أو الألبيون) فى النصرانية على بعض الكفرة. وهذه قصة هذا الزعيم كما سمعها مركو بولو من أناس عدة . كان اسمه علاء الدين ودينه دين محمد، وقد أنشأ فى واد جميل يقع بين جبلين شاهقين بستانا نخما فيه من كل فاكهة لذيذة وكل نبات عطر فى العالم؛ وأقيمت قصور ذات أحجام وأشكال مختلفة فى جهات مختلفة زينت بنقوش الذهب ، وفرشت بأثاث من الحرير النفيس ، تخترقها فى كل ناحية بواسطة صهاريج مصنوعة، قنوات من الخمر واللبن والشهد والماء أحيانا . أما سكان هذه القصور فقد كن غانيات أنيقات فاتنات، بارعات فى الغناء والموسيقى والرقص، و بالأخص فى الاغواء والنفثات الغرامية؛ وكن يرتدين

ثيابا نفيســة و يقطعن أوقاتهن بالتريض واللهو فى البستان والخمائل ؛ أما حراسهن الأناث فكن يتوارين داخل الأبواب ولا يظهرن قط . وكانت غاية الزعيم من إنشاء هذه الحديقة الفاتنة ما يأتى : بمـا ان محمدا [صلعم] قد وعد من أطاعه بمتعة الجنة حيث يوجد كل أنواع الملاذ الحسية بصحبة حور حسان (كذا) ، فقد اراد «الزعيم» أن يفهم أتباعه أنه أيضا نبى قرين محمد ، وأنه يستطيع أن يدخل جنتــه من شاء . ولمـا كان يحرص على أن لا ينفذ إلى واديه البديع انسان دون إذنه فقد أنشأ فى مدخله قلعـة منيعة يدخل منها إليه بمدخل سرى . وكان هـذا الزعيم يجمع فى بلاطه أيضا عددا من الفتيان بين الثانيــة عشرة والعشرين ، يختارهم من سكان الجبال المجاورة ممن يميلون إلى الرياضة العسكرية ، ويتصفون بالشـجاعة الوافرة ، ويحادثهـم كل يوم فى موضوع الجنة التى ذكرها النبى ، وفى موضوع قـدرته أن يدخل فيها من شاء . وكان أحيانا يضع الأفيون فى شراب عشرة فتيان أو اثنى عشر . فاذا فقدوا الرشاد أمر بحملهم إلى بعض قصور البستان . فاذا استيقظوا من سباتهم ، التهبت حواسهم بكل ما وصفنا من الأمور ، وألفى كل حوله طائفــة من الجوارى الحسان يغنين ويلعبن و يجذبن بصره بأرق إيمـاء ، ويقدمن إليــه اللحوم اللذيذة ، والخمور الفاخرة ، حتى يذهب برشده الافراط فى المتعـة بين قنوات اللبن والخمر ، فيتوهم أنه فى الجنة بلا ريب ، ويشـعر بأنه لا يريد أن يفارق نعيمها ؛ فاذا قضى الفتيان بضـعة أيام على هذا النحو ، ألقى إليهم المخدر ثانيــة حتى يسلب رشـدهم ثم ينقلون من البستان ؛ فاذا قُدموا إلى الزعيم وسألهم أين كانوا ، أجابوا « فى الجنة ، بشفاعتك ياذا السـمو » ثم يقصون أمام جميع البطانة وهم يصـغون إليهم بلهف ودهشة ، كل ما رأوا ؛ وعندئذ يخاطبهم الزعيم بقوله : « لقد أكد نبينا ان من يدافع عن سـيده يرث الجنة فاذا أخلصتم أنتم إلى الطاعة ، فسوف تنعمون بهذا المصـير السـعيد » فتثور حماستهم لأمثال هذه العبارة ، ويصرحون بأنهم جميعا سـعداء إذ يتلقون أوامر سيدهم وإذ يموتون فى خدمته . وكانت نتيجة هذا النظام هو أنه إذا اجترأ على هذا الزعيم أحد الأمراء المجاورين أو غيرهم قتلهم أولئك القتلة المدربون ؛

ولم يكن أحد منهم يحرص على حياته من خطر قط ، فلم تكن الحياة فى نظرهم شيئا ما داموا يستطيعون تنفيذ أوامر سيدهم ، ومن ثم كان بطشه موضع الرعب فى الأنحاء المجاورة . وقد أقام لنفسه أيضا وكيلين أحدهما بجوار دمشق والآخر فى كردستان ، كل منهما ينفذ الخطة التى وضعها لتدريب الأنصار الفتيان . وهكذا لم يكن ثمة إنسان يعرض نفسه لنقمة شيخ الجبل ليستطيع النجاة من القتل مهما كان من القوة . وكان مركز شيخ الجبل يقع فى أراضى أولاغو (هولاكو) أخو الخان الأكبر « منجو » ، فنمى الى هذا الأمير مايرتكبه شيخ الجبل من الفظائع التى ذكرناها وأنه يستخدم الأشقياء فى سلب المسافرين الذين يمرون بهذه الأنحاء ، فسير إليه فى سنة ١٢٦٢ جيشا حاصره فى قلعته . على أنها كانت من المناعة بحيث لبثت ثلاثة أعوام دون أن تتأثر بشدة الحصار ، وأخيرا أرغم على التسليم لفقد المؤن ، وأسر وأعدم وهدم حصنه ، وخربت حدائقه وجنته وطويت صفحة شيخ الجبل[1] » .

* * *

فى هذه الصفحة التى أوردها مركوبولو عن الاسماعيلية دقة فى البحث والاستقصاء يقدرها كل من عرف تاريخ الاسماعيلية وأحوالهم . ونجد هذه الدقة ماثلة فى كثير مما يكتبه مركوبولو عن دول آسيا الوسطى فى عصره وعن الدول التارية بنوع خاص ، وعن تاريخها وقصورها ومجتمعاتها . وقد لبثت مذكرات مركوبولو عصورا حجة المؤرخين والباحثين فى استقصاء كثير من أحوال هذه الأمم والدول فى العصور الوسطى ، وما زالت إلى يومنا وثيقة نفيسة فى تاريخ آسيا وجغرافيتها تربط تراث الماضى والبحث الحديث بأوثق الصلات

---

(١) كان مقتل شيخ الجبل علاء الدين الذى يشير اليه مركوبولو سنة ١٢٥٥ م بعد حكم طال أمده فخلفه ابنه ركن الدين الذى حكم عاما فقط وهو الذى حاصره جيش هولاكو وكان على يده مصرع دولة الاسماعيلية .

الفصل العشرون

ابن بطوطـــة

فى الوقت الذى اختتم فيه «مركو پولو» البندقى تجواله فى أعماق الأراضى والمجتمعات الأسيوية، ودون رحلاته ومشاهداته ، ولد بطنجة رحالة مسلم هو إحدى هذه الشخصيات البارزة القليلة التى يقدمها تاريخ الاسلام فى القرن الرابع عشر؛ ففى سنة ١٣٠٣ م (٧٠٣ هـ) ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى المعروف بابن بطوطة . ولم نتلق الكثير عن نشأته أو تربيته الأولى، ولكن الظاهر أنه نشأ فى بيئة وظروف عادية وأنه درس الفقه وعلوم الدين دراسة حسنة . كذلك لسنا نعرف ظروفا أو بواعث خاصة هى التى حملت الرحالة المسلم على أن يسلخ شبابه وكهولته فى طواف الأرض حتى أقاصى العالم المعروف يومئذ ؛ وكل ما نعرف عن ذلك هو أن الفتى الطنجى ماكاد يبلغ الثانية والعشرين حتى ملكه شغف الحج وزيارة البقاع المقدسة، وكان الحج من أسمى النزعات التى يضطرم بها يومئذ قلب كل مسلم يستطيع تحقيق هذه الأمنية . والظاهر أيضا أن ابن بطوطة لم يكن يملك نفقات الرحلة الى مكة وأنه كان يقرن عزمه، بنوع من المغامرة . وقد كان اختراق صحارى المغرب وأمم الاسلام من طنجة إلى مكة فى ذلك العصر مغامرة كبيرة . فخرج الرحالة المستقبل من مسقط رأسه طنجة فى شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) حسبما يقص فى رحلته «معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته، لباعث من النفس شديد العزائم» . وكان ارتحاله فى عهد سلطان الموحدين أبى سعيد بن أبى يوسف، فجاز أمصار المغرب الشهيرة يومئذ مثل تلمسان والجزائر

وبجاية وقسنطينة ، حتى وصل إلى تونس وسلطانها عندئذ أبو يحيى بن أبى زكريا أحد أمراء بنى حفص . ولم يكن للرحالة الفتى يومئذ صبر على تحمل مرارة البعاد ووحشته ، وكان بعيدا كل البعد عن فكرة الطواف حول الأرض ؛ حتى أنه لما وصل الى تونس ولم يسلم عليه أحد لغربته « وجد من ذلك فى النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكاؤه » . ثم ارتحل فى ركب الحاج إلى طرابلس ونزل بالاسكندرية التى يصفها بأنها «الثغر المحروس ، والقصر المأنوس ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين » وكان ذلك لعشرة أشهر من مغادرته لطنجة ؛ ثم قصد الى القاهرة ، وهو يصفها فى تلك الكلمات الشعرية : « ثم وصلت الى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد . ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة . مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ... تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم » .

وقد بهر الرحالة ما رأى فى مصر وشاهد من مظاهر العمران والثروة فلم يشأ أن يمر بها مرورا فقط ، فنراه يجوس خلال الاسكندرية ويدقق فى وصف منارتها وعمودها وسائر آثارها ومواقعها ، ويتجول فى جميع انحاء القاهرة وينفذ إلى جميع مساجدها ومعاهدها وآثارها الشهيرة ، ويطوف أنحاء الوجه البحرى من الشمال إلى الجنوب ، ثم يهبط الى صعيد مصر حتى نهايته ، ويرى جميع الآثار المصرية القديمة ؛ ونراه يتعرف بسلطان مصر وهو يومئذ الملك الناصر بن قلاوون ، وأمرائها وعلمائها وقضاتها ، ثم يفيض فى وصف عمرانها ومدنيتها ونيلها واهرامها ومشاهد الحياة الاجتماعية فيها . ثم يعود من طريق الصحراء بحذاء البحر الأحمر فيصل الى فلسطين من طريق سيناء ، ويتفقد بيت المقدس وآثارها الشهيرة من اسلامية ونصرانية . ثم يتجه شمالا بحذاء البحر مخترقا بلاد الشام كلها حتى حلب الشهباء ، متصلا فى كل سفراته بالأمراء والكبراء والعلماء ، متفقدا كل ما يقع عليه من

مساجد وآثار ومعاهد شهيرة . ثم يهبط إلى دمشق فتبهره محاسنها، فيستقر فيها حينا ويفيض فى وصف جامعها الأموى وأسواقها ورياضها ومعاهدها وأهلها .

وهنا فقط يعتزم ابن بطوطة أن يحقق الأمنية التى دفعت به إلى ديار الغربة أعنى قضاء الحج ؛ فخرج من دمشق فى ركب الحاج واخترق الطريق العادية حتى وصل الى المدينة وطاف بالحرم والآثار المقدسة ، ثم إلى مكة حيث أدى فريضة الحج ، وطاف بالكعبة الشريفة والمسجد الحرام وقبور الصحابة والتابعين . ويفرد الرحالة قسما ضافيا من رحلته لوصف البقاع والمشاهد المقدسة وما اليها من الرسوم والروايات والأساطير، ومجتمعات مكة والمدينة ومواقعها ومعاهدها وأسواقها؛ وعباراته فى ذلك القسم تنم عن الخشوع والإجلال والحماسة أو بالحرى عن شديد اسلامه وعميق إيمانه .

* * *

على أن الرحالة لم يفكر فى العودة الى وطنه بعد تحقيق الأمنية التى يقرر فى رحلته أنها كانت باعث سفره . ومن المرجح أن فكرة الانقطاع الى السفر وطواف العالم لم تخطر فى ذهن ابن بطوطة إلا فى هذا الظرف فقط . ذلك انا نراه يتجه فجأة نحو الشمال الشرقى ميمما شطر العراق بدلا من أن يسلك طريق العود الى وطنه، ونراه يستسلم لاجتياز مفاوز الصحراء العربية بما يحيط بها من وعورة وقفر ومخاطر ومشاق . وهو قد اجتاز الى ذلك الحين أمم الاسلام الواقعة فى الغرب والشرق الأدنى . على أنها لم تكن مجاهل بالنسبة اليه ، فقد كانت مصر والشام كعبة السياح والتجار الوافدين من المغرب والأندلس؛ وكانتا ممرا للحاج فى كل عام ؛ وكانت مجتمعاتهما وتقاليدهما وعاداتهما أقرب الى عرفان المغرب من أى مجتمع اسلامى آخر . ولكن الاتجاه نحو المشرق يعتبر فى حياة ابن بطوطة فاتحة مغامراته الحقة ورحلته الشهيرة؛ فهو من ذلك الحين يجوز أقطارا تختلف فى أقليمها وطبيعتها كل الاختلاف عما عرفه فى الشطر الأول من رحلته ، ويجوز مجتمعات لا يعرفها ولا يعرف شيئا من عاداتها وإن تكن اسلامية ؛ ثم هو يلقى فوق ذلك مجتمعات تتكلم

غير العربية التى كان يتحدث بها حتى هذا الشطر من رحلته . وهنا تبـدو مواهب الرحالة البارزة فى تعرف كل ما يقع عليه بصره من مشاهد جغرافية واجتماعية، ودقته فى استقصاء هذه المشاهد، وقوته فى تصويرها، وهنا أيضا يبدأ ابن بطوطه فى تعلم الفارسـية والتركية، وقد كانت الفارسية له سـلاحا فى طوافه بالمجتمعات الهندية كما كانت التتارية سلاحا لسلفه مركو بولو فى طوافه بالممالك التتارية .

اتجه الرحالة الى المشرق فجاز نجدا وصحراء العرب إلى العراق، ووصف هـذه المسالك وما تحتويه من بقاع تاريخية ومشاهد أثرية وما قيل فيها من أساطير . وهـذه من خواص ابن بطوطه حين يصـف الآثار . ثم جاز الفرات ودجلة إلى العراق الفارسى . وزار شيراز واصفهان، وعاد من طريق شماليـة نوعا فعبر الدجلة والفرات ثانية إلى العراق العربى، ونزل ببغـداد ،ولقى فيها يومئذ سلطان العراقين وخراسان وهو السلطان أبو سعيد بهادر خان ؛ وكانت بغداد يومئذ قد جردت من صفة الرياسـة فلم تعد قاعدة الملك مذ دخلها التتار وقتل بهـا المستعصم آخر خلفاء بنى العبـاس (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) وكانت قد فقدت رونقها القديم وبهاءها السالف، وغلب عليها الخراب والعفاء . وترى تأثر الرحالة ظاهرا فيما كتبه عن بغداد وآثارها ومجتمعاتها ورصافتها التى كانت يومئذ غاصة بقبور الخلفاء . وهنا يعنى أيضا بالتاريخ فيقص تاريخ الأسرة الملوكية التى كانت تحكم العراق عنـدئذ كما يقص بعـد تاريخ كل الأسر السلجوقية والهندية التى كانت متربعة على دست الملك .

وغادر الرحالة مدينة الخلفاء إلى الموصل ثم إلى نصيبين ثم إلى سنجار واتصل بملوكها جميعا . ذلك أن الاقطاع كان سائدا فى تلك الأنحاء بأوسع معانيـه، وكان الأمراء السلاجقة يقتسمون الولايات والمدن، فلكل ولاية أو مدينـة فقط حاكم اقطاعى مسـتقل يسمى بالسلطان أو الخان (الملك) . وهنـا تنتهى أول مرحلة فى جولات ابن بطوطة . ولسنا نعرف ماالذى جال بخاطره عنـدئذ فدفع به إلى الجنوب ثانية أعنى إلى بغداد ثم إلى مكة، بيد أنه يقول لنا فى رحلته إنه وصل إلى مكة للمرة الثانية مريضا منهوكا، فارتاح فيها زهاء عام، ثم جاور عاما آخر . ويلوح

لنا أنه فى تلك الفترة وطد عزمه نهائيا على طواف العالم، وانتفع بأحاديث الحاج الذين يفدون من جميع الاقطار فى وضع شبه برنامج لهذا الطواف؛ فبدأ عندئذ بالسفر جنوبا إلى اليمن فبلاد السومال، ثم طاف ساحل البحر العربى حتى عمان والبحرين، وشهد هنالك مغاص اللؤلؤ ووصف طريق استخراجه، واتصل بأمراء هذه الانحاء، ثم اخترق الصحراء ثانيـة إلى مكة فحج للمرة الثالثة . وكان ذلك فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) فالتقى هنالك بالملك الناصر سلطان مصر . ثم ركب البحر الأحمر الى السودان واخترق بلاد النوبة فصعيد مصر الى القاهرة . ولم يمكث بها كثيرا ، بل تابع سفره إلى الشام وركب البحر من اللاذقية فوصل إلى بر « تركية » أو ساحل الأناضول سنة (٧٣٣ هـ — ١٣٣٣ م)

وكانت آسيا الصغرى تموج يومئذ بالأمراء السلاجقة ، ولكن قبيلة عثمان كانت قد بدأت تظهر عليهم جميعا . وكان عثمان مؤسس دولة الترك العثمانيين قد توغل غربا فى أقطار الدولة البيزنطيـة وهزم امبراطورها اندرونيـكوس الكبير فى عدة مواقع واستولى على كثير من أراضيه . وكانت بورصة عاصمة العثمانيين يومئذ، وملكهم على عهد قدوم الرحالة أورخان ولد عثمان . وكان فى الأناضول غير بنى عثمان عدة ملوك أقوياء أخر منهـم أوزبك خان ملك الولايات الشمالية . وكان الاسلام قد ساد معظم هذه الأنحاء عندئذ، ولكن دولة الاسلام فيها كانت جديدة . فكانت هذه المجتمعات غريبة فى روحها ورسومها وتقاليدها عن أى مجتمع شهده الرحالة من قبل ؛ كذلك كان الاقليم غريبا، والطبيعـة أغرب . فاخترق الرحالة مفاوز الأناضول من شرقه إلى غربه ومن جنوبه إلى شماله ، وأفاض فى وصف ما رأى ولاحظ من جغرافيـة ، ونظم وطبائع ، ومحاصيل وعادات وأخلاق، ثم اخترق أراضى السلطان أوزبك خان إلى ضفاف البوسفور مع جماعة أوفدها هذا السلطان إلى امبراطور بيزنطية .

* * *

وكان الجالس على عرش قسطنطين يوم أن وفد الرحالة المسلم على بيزنطيـة ، الامبراطور اندرونيكوس الثالث أو الأصغر . وكان قد ارتقى العرش فى سنة ١٣٢٨م

وكان قدوم ابن بطوطة إليها كما قدمنا فى ركب أرسله السلطان محمد اوز بك خان بصحبة زوجه الخاتون (بيلون) إبنة الامبراطور ، وكانت قد ذهبت لزيارة أبيها فى قسطنطينية ، فسافر فى ركبها الرحالة معززا مكرما . وأشرف على مدينة قسطنطين بعد رحلة دامت زهاء شهر فى البر والبحر فدخلها مع الركب الملكى فى ظهر يوم من أيام سنة ٧٣٣ ﻫ (سنة ١٣٣٣ م) . ويصف الرحالة دخوله اليها فى تلك العبارة الشائقة : «وكان دخولنا عند الزوال، أو بعده إلى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون . سرا كنو سرا كنو ومعناه المسلمون[1] » . ويصف مقابلته للامبراطور فيما يأتى : «وفى اليوم الرابع بعثت إلىّ الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر، فجزنا اربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم ، فلما وصلنا الى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون معى سكين، وقال لى القائد تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام، غريب أو بلدى . ثم قام الموكل بالباب فأخذ بيدى ، وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى واثنان من ورائى، فدخلوا بى إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الأشجار والناس واقفون يمينا ويسارا، سكوتا لايتكلم أحد منهم، وفى وسط المشورة ثلاثة رجال وقوف اسلمنى أولئك الأربعة اليهم ، فامسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل، فتقدموا بى وكان أحدهم يهوديا فقال بالعربى : لاتخف وأنا الترجمان . ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته بين يديه، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح، فأشار إلى قبل

---

(١) المرجح أنه يقصد سرازنو Sarrazino وهى الكلمة التى أطلقها الكتاب اليونانيون على مسلمى شبه جزيرة العرب .

السلام والوصول اليه بالجلوس هنيهة ليسكن روعى ففعلت ذلك . ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل ، وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن كل ذلك واليهودى يترجم بينى وبينه فأعجبه كلامى وقال لأولاده اكرموا هذا الرجل وآمنوه . ثم خلع على خلعة وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة وهى علامة الأمان » ويسمى الرحالة الامبراطور « تكفور » وأباه بجرجيس ، وهو خطأ ظاهر ، فالامبراطور كما قدمنا هو اندرونيكوس الثالث وأبوه أندرونيكوس الثانى .

وكانت القسطنطينية فقد فقدت يومئذ كثيرا من فخامتها السالفة ، وكان الفرنج الصليبيون قد افتتحوها قبل ذلك بقرن وربع ، وعاثوا فى أنحائها وخربوا كثيرا من قصورها وكنائسها وأحرقت أثناء الحرب مرارا . على أنها كانت أعظم منظر رآه الرحالة فى رحلاته قاطبة ، وهو يصف مواقعها وصفا يشهد له بعمق البحث ودقة التحرى اذ يقول : « وهى متناهية فى الكبر ، منقسمة إلى قسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر (يقصد القرن الذهبى) ، واسم هذا النهر إبسمى . وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة . والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لاسبيل اليه من جهة البحر . والكنيسة العظمى « أياصوفيا » هى فى وسط هذا القسم . وأما القسم الثانى فيسمى الغَلَطَة وهو بالعدوة الغربية وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج ومنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومة وأهل إفرانسة . . » ، ويفيض الرحالة فى وصف الكنيسة العظمى « أياصوفيا » والمانستارات[1] (الأديار) التى كانت تغص بها قسطنطينية يومئذ ، ويصف رسومها وأحوالها وسكانها من

---

(١) هذه لفظة ابن بطوطة عربها كما هو ظاهر عن كلمة Monastère وهو تعريب حسن

رهبان وعذارى وقد دخلها وطاف بها باذن خاص من الامبراطور الذى عين له مترجما يصحبه فى طوافه .

وأقام الرحالة فى مدينة قسطنطين عدة أسابيع ثم غادرها وقد بهرته الحضارة اليونانية وآيات عمرانها وفخامتها ، وما كشفت من ترف كان يقضم يومئذ أسس المجتمع البيزنطى . واخترق شمال الأناضول ثانية فى فصل الشتاء ، وعانى قره وثلجه . ثم اتجه شرقا الى بلاد التركستان ونزل بخوارزم وكانت يومئذ ولاية من أقاليم السلطان أوزبك خان الذى تقدم ذكره . ثم قصد بخارى وكانت قد خربها التتار يومئذ ، ووقف خاشعا أمام قبر اسماعيل البخارى مصنف الجامع الصحيح ، وجال فى تلك الأنحاء حينا وألم فى رحلته بتلك المناسبة بلمحة من تاريخ التتار من عهد چنكيزخان ، ثم اخترق بلوخستان ودخل الهند من الشمال الغربى فوصل الى أقليم البنجاب حسبما يروى فى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) .

⁂

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى رحلات ابن بطوطة ، وهنا تبدو روح المخاطرة قوية فى نفسه ، فنراه يضطرم عزما الى التوغل غير مكترث بما يلقى من صنوف الشدائد ، فيجوز أقاليم الهند الشاسعة من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق ويتصل بملوكها من المسلمين أو غيرهم ، ونراه يطمئن الى الاستقرار فى بعض هذه الممالك ويحاول التقرب الى ملوكها وخدمتهم ونيل الحظوة لديهم . وقد وصل الى غايته أكثر من مرة ، فتقرب الى السلطان أحمد شاه ملك الأقاليم الشمالية وصاحب بلاط «دهلى» فولاه القضاء وعهد اليه ببعض المهام والسفارات ، فسلخ فى خدمته أعواما ؛ ومن ثم نراه يخصص فى رحلته قسما كبيرا لتاريخ هذه المملكة ونظمها وعمرانها . ويذهب الرحالة فى مخاطراته إلى أبعد من ذلك فيصطحب الحملات الحربية ، ويؤسر ذات مرة ويشرف على الهلاك فلا ينجو إلا بأعجوبة . ولا يقتصر على تجوال الأقاليم الداخلية ، بل يجوس خلال الشواطئ الهندية حتى نهايتها الجنوبية ويعبر الى «سيلان» حيث يصف « القدم المقدس » المعروف بقدم آدم . ويقدم

لنا الرحالة فى هذا القسم من رحلته طائفة كبيرة من الروايات والصور الطريفة ، فيصف لنا كثيرا من معتقدات الهندوس ، وتقاليدهم الدينية ومعابدهم الخفية ، وحياتهم الاجتماعية وما يتخللها من رسوم مثيرة ، كحرق النساء عند وفاة أزواجهن ، والحج إلى نهر (الكنغ) وأغراق البعض لانفسهم فيه تقربا إلى الله وتخليدا للروح ؛ وفيه يكشف عن عميق تأثره وانفعاله من روعة هذه الرسوم الوثنية ويقول إنه كاد يسقط عن فرسه حين رؤيته لمشهد الاحراق . كذلك يصف كل ما وقع عليه من غرائب الطبيعة والشجر والحيوان فى هذه الانحاء الحافلة . ووصفه لكل ذلك قوى ممتع . ويقول لنا فى هذا القسم إن القرصان الهندوس طلعوا على ركبه ذات مرة فسلبوه كل شىء ، بما فى ذلك مذكرات كان يدونها عن كثير من المشاهد . ولعل فى ذلك ما يفسر دقة الرحالة فى ذكر التواريخ والمواقع والحوادث والصور . فهو بلا ريب كان يدون كثيرا من مشاهده ، وقد احتفظ بكثير من هذه المذكرات عند عودته ، وعليها اعتمد فى املاء رحلته .

وتقلب ابن بطوطة فى الهند وممالكها وبحارها وجزائرها أعواما طويلة ، ثم جاز الى الشرق أيضا ، فطاف جزائر الهند الشرقية أعنى جاوة وسومطرة ثم اتجه نحو الشمال . وهنا يقول لنا إنه سافر بعد ذلك الى الصين ، ويصف طبيعتها ومجتمعاتها ، غير أنه ليس واضحا فى هذا القسم ، ويخيل لنا أنه يعنى بالصين ، الهند الصينية وجنوب الصين ، وأنه لم يتوغل فى اتجاه الشمال إلا قليلا . وبعد أن تجول فى تلك الأنحاء حينا عاد الى جاوة مخترقا المحيط الهندى الى الهند فاخترقها ثانية ؛ ثم ركب البحر الى شاطئ السند الجنوبى ، ثم اخترق فارس والعراق والشام ومصر عائدا الى وطنه ، وركب البحر من تونس فطاف بسردانية ثم اخترق مراكش الى فاس فوصلها سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) أعنى بعد أن سلخ ربع قرن فى الطواف حول الأرض ، وذلك فى عهد السلطان أبى عنان المرينى . ثم قصد الى مسقط رأسه طنجة ، وزار قبر والدته . ولم يمكث طويلا حتى دفعه شغف الطواف والتجوال الى عبور البحر الى الأندلس وتعرف ثغورها وقواعدها التى كانت يومئذ ما زالت

زاهرة نضرة رغم انحصارها فى جزء صغير من شـبه الجزيرة ورغم اشتغال المسلمين يومئذ بالذود المتواصـل عن أراضيهم وحرياتهم التى كانت تنذرها اسبانيا النصرانية بالمحو العاجل . وكان قدومه الى غرناطة أيام النصريين فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن الوليـد النصرى ؛ فتعرف بعلمائها وفقهائها . ثم جاز البحر ثانيـة الى مراكش ولم يستقر هنا أيضا، بل قصد الى السودان من طريق الصحراء ودرس أحوال قبائله واتصل بسلاطينه وأمرائه . وفى أثناء رجوعه وصلته أوامر السلطان أبى عنان بالعودة الى فاس ، فكر اليها راجعا واستقر بها بعد طول التجوال والغربة فى سـنة ٧٥٥ ﻫ (١٣٥٤ م) أى لثلاثين سنة كاملة من خروجه الأول من مسقط رأسـه . وكان يومئذ كهلا فى الثالثة والخمسين من عمره وقد خرج من طنجة كما رأيت فتى فى الثانية والعشرين .



استقر ابن بطوطة فى بلاط فاس بعد طول البعاد والتجوال ؛ وقربه السلطان اليه وكان يطربه بطريف أخباره وبديع سمره ويقص عليه أخبار البلاد والمجتمعات التى رآها . وذاع أمر الرحالة يومئذ واشتهر بغريب أخباره وقصصه ورماه البعض بالمبالغـة والكذب ؛ ذلك أنه يجب أن نذكر أن المجتمع الذى أفضى اليـه الرحالة المسلم بمـا رأى وسمع من عجائب المجتمع الأسيوى وروائعه لم يكن أقل انكارا أو تحاملا من المجتمع الذى قص عليـه سلفه مركوبولو مشاهداته . ويعرب ابن بطوطة عن تألمه لهذا التحامل فى بعض المواطن فيقول « ان الله يعلم صـدق ما أقول وكفى به شهيدا » . وكانت قصة ابن بطوطة وقصته ورحلاته ماتزال حية قوية حينما كتب الفيلسوف ابن خلدون مقدمتـه الشهيرة، ولم يكن مضى على وفاة الرحالة يومئذ سوى أعوام قلائل . وقد رأى ابن خلدون الرحالة وعرفه فى بلاط فاس أيام خدمته للسلطان أبى عنان، وهو يصفه فى مقدمته بما يأتى : « ورد على المغرب فى عهـد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب فى بلاد

العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكانة واستعمله فى خطة القضاء . ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ... فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه . ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير السلطان ، فارس بن وردار ففاوضته فى هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره ... » وهكذا غمط الرحالة الكبير حقه من مجتمع عصره كما غمط سلفه مركو بولو . على أن الصدى الذى أثارته رحلاته كان أبعد مدى وأعمق أثرا من ذلك الذى أثارته رحلات مركو بولو ؛ فقد نفذ الرحالة المسلم الى مجتمعات إسلامية على الأغلب ، قاصية غير معروفة من بقية العالم الاسلامى ، واستطاع أن يصل الى أعماق نظمها ورسومها وعقليتها ؛ وقد نفذ الى جنبات مجتمعات متنوعة : فمن الأندلس الى شرق إفريقية الى الهند الى جاوة الى الصين ، وجال فى كل منها وشاهد ودرس ؛ ولكن مركو بولو اقتصر على اختراق أواسط القارة الأسيوية أعنى ممالك التتار فقط ودخلها بعقلية غربية بعيدة عن تفهمها كل الفهم . ومن ثم جاءت ملاحظات الرحالة المسلم أدق وأصدق من ملاحظات سلفه الفرنجى . واذا استثنينا بعض الروايات الغريبة التى اتهم من أجلها بالإغراق ، فان رواياته سواء فى التاريخ أو الجغرافيا أو الأحوال الاجتماعية بما يتجلى فيها من عمق فى البحث وقوة فى التصوير تكون وثيقة من أنفس وثائق التاريخ الأسيوى والجغرافيا الأسيوية . ثم ان فى أسلوب الرحالة فوق ذلك من خفة وفكاهة ما ينم عن خفة روحه ووفرة ملحه . فهو يحملك طوال رحلته مشوقا الى اتباعه فى مشاهداته وملاحظاته وصوره وفى كل ما يرويه عن شخصه .

وللرحالة فيما يقص عن شخصه روايات طريفة فهو يقص عليك مثلا كيف تزوج أثناء رحلته مرارا ورزق أولادا عدة ، وكيف كان التجوال يقضى عليه بترك زوجاته وأولاده الى مصاير لا يعرفها ولم يسمع بها ، وكيف كان يتعشق المآكل الشهية

والفواكه العذبة ؛ وكيف يصل سفراته من بلد إلى بلد واقليم الى اقليم بما كان يحصله فى طريقه من هدايا الأكابر وصلات الأمراء والملوك ؛ وكيف حاول ذات مرة أن يحمل أحد سلاطين الهند على أداء ديونه الفادحة بمدحه بقصيدة نظمها؛ وكيف كان شديد الفضول فى تعرّف العادات الاجتماعية الغريبة من الشعائر الوثنية ورسوم الجنائز والزواج ؛ وكيف شاهد فى الهند أعمال السحرة والفقراء فراعه أن رأى ذات يوم ساحرا يقطع أمامه شخصا حيا إلى أربع قطع ثم يلحمها ثانية فيعود الشخص حيا يرزق، وهذه بلا ريب من أعمال الشعوذة الحديثة التى نسمع بحدوث أمثالها اليوم فى أوربا . هذا إلى نبذ تاريخية صادقة، وصور قوية فى كل نواحى الطبيعة والحياة العامة .

وأنفق ابن بطوطه بقية حياته فى هدوء ودعة يدهش مجتمع عصره بما رأى وشهد، وتوفى بعد أن جاوز السبعين من عمره، نحو سنة ٧٧٥ ﻫ (١٣٧٤ م) . وقد أملى ابن بطوطة رحلته ولم يكتبها . أملاها على ابن جزى وهو فقيه أندلسى تقرب مثل ابن بطوطة إلى بنى مرين ، وكان إملاؤها بأمر السلطان أبى عنان سنة ٧٥٦ ﻫ فى مدينة فاس . ويصف ابن جزى الرحالة فيها « بالشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الأرض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض الذى طاف معتبرا وطوى الأمصار مختبرا » ولكن روح ابن بطوطة ورشاقة أسلوبه وقوة تعبيره تمثل فى ما سطره ابن جزى . ويقول ابن جزى نفسه إنه نقل كلام الشيخ أبى عبد الله (ابن بطوطة) « بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها . وربما أوردت لفظه على وضعه » وهكذا دونت تلك الرحلة الشهيرة التى تحفظ للرحالة المسلم مقاما رفيعا بين أقطاب الرّحل فى العالم، وأطلق عليها هذا الاسم الشائق : « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

وقد أدرك البحث الحديث قيمة أثر ابن بطوطة فترجمت رحلته إلى الانجليزية والفرنسية، وظهرت فى أوربا منذ أوائل القرن الماضى قبل أن تظهر فى المشرق

بمدة طويلة . ولا زالت تحتفظ بقيمتها التاريخية والجغرافية بين أنفس آثار العصور الوسطى [1] .

---

(١) نشرت رحلة ابن بطوطة منذ منتصف القرن التاسع عشر فى باريس بعناية المستشرقين دفرمرى وسانجنيتى مع ترجمة فرنسية ، فى أربعة مجلدات صدرت بين سنتى ١٨٥٣ و١٨٥٩ . وطبعت بالقاهرة أكثر من مرة . وترجمت إلى الانكليزية منذ سنة ١٨٢٩ بعناية المستشرق الانكليزى « س . ل » . وترجم المستشرق الألمانى فون متسيك فصولها المتعلقة بالهند والصين الى الألمانية ، وترجمت مقتطفات منها الى لغات أخرى .

الفصل الحادى والعشرون

أساطير دينيـــة

توجه سير التاريخ

كان للاساطير الدينية أثرها فى التاريخ فى كل العصور ، فكانت مبعثا لطائفة من الظواهر والحوادث الكبرى ، وكانت سندا لدول شامخة قامت على أسسها ، وبطولات غامضة اشتقت منها أسباب بطولتها واستعارت ثوب زعامتها ، ثم كانت أشد وأعمق فى تأثيرها المعنوى ، فكانت تغزو مجتمعات التاريخ ، فترسم لها مناهج الحياة ، وتصوغ لها ماترى من العقائد والمبادئ والتقاليد .

ولم يخل دين من الأديان الكبرى من طائفة من هذه الأساطير القوية . ولكن تلك التى ترتبط منها بالملك والسياسة كانت أبعدها أثرا فى سير الحوادث التاريخيـة . على أن الزعامة السياسـية فى أمثال هـذه الأساطير لم تكن إلا نتيجة للزعامة الدينيـة . ولما كانت الدعوة إلى النبوة قد ضعفت هيبتها على كر العصور مذ قامت الأديان الكبرى وتوطدت دعائمها ، فإن هذه الأساطير كانت تتخذ دائما شكل تراث النبوة أو ملحقاتها ليس غير .

وقد بلغت هذه الأساطير الدينية السياسـية فى الدول الاسـلامية ذروة القوة والازدهار ، وكانت أسطورة المهدى من بينها أقواها وأبعدها أثرا . ونعرف أن الشيعة شادوا صرح دعوتهم الدينية والسياسية على طائفة من هذه الأساطير والمزاعم ، وكان التبشير بالمهدى المنتظر علما لدعوتهم السياسية بعد أن وطدوا دعائم دعوتهم الدينيه ، واستطاعوا بما حشدوه من الفرق الثورية و السرية الهدامة أن يقوضوا أسس الدولة العباسية عنوان المبادئ والدعوات الخصيمة . على أن أسطورة المهدى ليست من

خلق الشيعة، وان كان الشيعة هم الذين استغلوها على كر العصور . فالكلام يرجعها الى عصر النبي ذاته . وهنالك طائفة من الأحاديث المختلفة تشير الى هذه الأسطورة، ولكنها موضع كثير من الجدل والريب . هذا الى طائفه أخرى من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من كبار الصحابة . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال «انه لابدّ فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت، يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون، ويعيد مجد الاسلام ودولته ، ويسمى بالمهدى» ولم يكن للأسطورة أهمية فى بدء الدولة الاسلامية، ولكنها قويت فى أواخر القرن الثانى للهجرة، واتجهت اليها فكرة الشيعة، وعنى أئمتهم ودعاتهم بأن يضعوا لها الأسانيد الكلامية والشروح التاريخية حتى أصبحت جزءا من العقيدة الشيعية ذاتها؛ واتخذت أسطورة المهدى صبغتها السياسية على يد إحدى فرقهم المعروفة بالأثنى عشرية، وهم من الامامية الذين يسوقون حق الامامة فى ولد على بن أبى طالب حتى جعفر الصادق؛ ثم يختلفون الى فرقتين تقول الأولى بامامة ابنه إسماعيل وهم الاسماعيلية، وتقول الثانية بامامة ابنه موسى الكاظم ثم بجماعة من ولده بالتوالى حتى محمد المهدى، وهو الثانى عشر من الأئمة ولذا سموا بالاثنى عشرية . ويقول هؤلاء إن محمدا المهدى خاتم أئمتهم لم يمت ولكنه اختفى، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ويسمونه بالمدى المنتظر، أو الفاطمى المنتظر لأنه فى زعمهم من ولد فاطمة . وهذا تخصيص من الشيعة للأسطورة العامة التى لم يقف أصحابها عند إرسال النبوءة جزافا بل جرؤا بعضهم على التحديد والضبط، فعينوا لظهور المهدى آخر المائة السابعة، بل عينوا لذلك سنة معينة هى سنة ٦٨٣ ﻫ . فلما انصرم هذا العصر ولم يظهر المهدى زعم بعض الدعاة ان هذا التاريخ إنما هو ميلاد المهدى لا عام ظهوره . وزعم آخرون أن ظهور المهدى يكون فى سنة ٧٤٣ ﻫ . وكلهم يتقدم لتأييد نبوءته بأسانيد واهية ويستتر وراء الرموز والاشارات الغامضة مما يدل على أنهم كانوا ينطقون بوحى دعوة سرية . وزعم الكندى الفيلسوف ان المهدى يجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتتح الأندلس ورومة وقسطنطينية ويملك الأرض،

وهو ما ندهش لصدوره من فيلسوف حر التفكير[١] .

وقد حاول الشيعة منذ عصور الاسلام الأولى أن يطبقوا هذه الأسطورة بصورة عملية فخرج كثير من دعاتهم أيام الدولة العباسية فى الحجاز ، وفى خراسان ، وانتحلوا الامامة ، وزعم بعضهم انه المهدى . ولكن أولئك الدعاة الذين ظهروا فى المشرق لم يستطيعوا القيام إلا بطائفة من ثورات محلية تحطمت جميعها على صخرة الدولة العباسية التى كانت يومئذ فى أوج قوتها . ولكن لاح للشيعة فى أواخر القرن الثالث أن الفرصة قد سنحت لأن يقوموا بضربة حاسمة . فشهروا أسطورة المهدى من جديد سلاحا فى يدهم وآثروا أن يحاولوا التجربة هذه المرة بعيدا عن المشرق ، فى صحارى المغرب وبين قبائله وقد كان يسودها يومئذ انحطاط فكرى شامل ، وغمار مظلمة من البداوة والخرافة تدنو الى الوثنية . وهكذا ظهر عُبَيد الله المهدى ، مسلحا بهذه الأسطورة ، واستطاع بعد خطوب ووقائع جمة أن ينتزع ملك الأغالبة وأن ينشىء فى إفريقية أول دولة شيعية ، هى دولة العُبَيديين الفاطميين ، وأن يجنى الثمار السياسية لدعوة دينية لبثت تعمل فى الخفاء على تقويض أسس الدولة العباسية زهاء قرن .

وفى قفار إفريقية وهضاب المغرب الأقصى أيضا ، عرف التاريخ الاسلامى أعظم تجربة لأسطورة المهدى المنتظر . وكانت وقتئذ قد خرجت من التخصيص الذى قصدها به الشيعة الى التعميم الذى عرفت به فى عصور الاسلام الأولى . وكانت مجتمعات المغرب وقبائله كما قدمنا مهدا صالحا لأمثال هذه الدعوات ، ولاسيما فى هذا العصر الذى انحدرت فيه الى أشنع مراحل الانحطاط الفكرى والتعصب الدينى . ففى سنة ٥١٥ من الهجرة ظهر بمدينة سوس داعية يسمى محمد بن عبد الله ابن تومرت ، ولم ينتحل لنفسه صفة معينة فى المبدأ ، بل اكتفى بالدعوة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان قد درس فى المشرق ، فى بغداد وغيرها ، وكانت دولة

(١) راجع فى شرح دعوة المهدى المنتظر ، وما يتعلق بها من الجدل الفقهى فى ابن خلدون — المقدمة — (بولاق) ج ٢٦٠ وما بعدها . وراجع فى عقائد الشيعة وسياق الامامة الشيعية — المقدمة — ص ١٦٤ وما بعدها .

المرابطين قد دخلت يومئذ فى دور الاحتضار ، فالتفت حوله قبائل مصمودة التى كان ينتمى إلى احداها . وبعد أعوام من الدعوة زعم أنه المهدى المعصوم وساق نسبته إلى النبي عليه السلام ، وانتحل لتأييد دعواه امارات وشواهد وأحاديث معينة ، ثم رفع لواء الثورة وما زال يحارب المرابطين حتى تصدعت دولتهم ، وسقطت فريسة فى يد عبد المؤمن خلفه وأعظم صحبه ، وأسس المهدى ودعاته بذلك دولة الموحدين التى حكمت أقطار المغرب كلها وافتتحت الأندلس وأسبغت على دولة الاسلام فى المغرب واسبانيا قوة وبهاء جديدين . وكان ابن تومرت من بين دعاة المهدية أوفرهم براعة وذكاء وحزما وزهدا ، وكان نفوذه الروحى أقوى دعامة لقيام دولته التى لبثت عصرا تحافظ على خواصها الروحية وتخضع السياسة والحرب لصولة الدين .

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى خرج بالسوس فى عصر السلطان يوسف ابن يعقوب داعية من الصوفية يعرف بالتويزرى زعم انه المهدى المنتظر وتبعه كثير من الدهماء ، ولكن ولاة الأمر دسوا عليه من قتله غيلة ، فانقطع أمره بذلك قبل أن يستفحل . وظهر أيضا فى أواخر هذا القرن داعية آخر يعرف بالعباس فزعم انه المهدى وتبعه كثير من أهل غمارة وهاجم مراكش وأحرقها ، ولكنه قتل غيلة أيضا .

ولم ينس الجيل الحاضر بعد قيام محمد احمد المهدى بطل السودان القومى فى أواخر القرن المنصرم وما اقترن بدعوته من حوادث جسام

* *

ومثل أسطورة المهدى المنتظر ، أسطورة المسيح المنتظر . وهى ترجع إلى أصل يهودى ، ولها فى الاسلام مكان أيضا ؛ بل تمزج أحيانا بأسطورة المهدى ، فيقال ان المسيح المنتظر يظهر فى أثر المهدى ، أو يظهر معه ويأتم به . على أنها لم تلق فى النصرانية تطبيقا عمليا . وقد يرجع ذلك إلى أن الأساطير الدينية هى تراث الكنيسه تصوغها طبقا لما تهوى ، وتلوح بها وتوحى بتطبيقها متى شاءت لتحقيق غاية من غاياتها . على أن فكرة المسيح المنتظر قويت فى المجتمع اليهودى فى وقت

من الأوقات، فظهر شابيتاى تسبى فى أواخر القرن السابع عشر فى أزمير، وزعم انه المسيح المنتظر، وتبعه كثير من اليهود فى أوربا وفى المشرق، ولقب نفسه «بملك ملوك» ولم تخمد دعوته إلا باعتقال السلطان إياه ووفاته فى سنة ١٦٧٦؛ غير أن بقية من أتباعه لاتزال اليوم فى سلانيك وتركيا . وظهر فى أثر شابيتاى، فى سهول روسيا الغربية مثل اليوكرين وبولونيا عدد من الدعاة اليهود فى القرن الثامن عشر، استتروا بهذه الأسطورة وأمثالها لقيادة الدهماء واستغلال إيمانهم وهم جميعا من "الكاباليين"، ومنهم من كان يتقن ضروب السحر والكيمياء ويستعين بها على شق طريقه وتقوية دعوته؛ على أنهم جميعا لم يكونوا أكثر من أفاقين محليين وكانت دعواتهم تخمد بسرعة، وقلما تخلف أثرا . ويرجع ذلك إلى ظروف العصور والأمكنة التى ظهروا فيها، وبخاصة إلى انحطاط مجتمعاتها . ومن ثم فإنا نراهم يظهرون فى أظلم بقاع أوربا، فى مجتمعات روسيا الجنوبية التى كانت يومئذ فى حالة شنيعة من التأخر والانحطاط الفكرى، وهنالك فقط يحرزون شيئا من النجاح .

ونرى فى النصرانية أسطورة القيامة تؤثر فى خيال المجتمعات الأوربية أعمق تأثير فى أواخر القرن العاشر . والمعروف أن فكرة انتهاء العالم فى المستقبل القريب كانت منذ أقدم عصور النصرانية تستهوى جموعا غفيرة من النصارى، وهى ترجع فى نفس الوقت إلى فكرة ظهور المسيح أو عودته إلى وجه الأرض وفاء لوعد يقال انه قطعه على نفسه . وعندئذ، على ماتزعم الأسطورة، يفصل النصارى عن باقى البشر ويستأثرون بحياة الجنان . وكان المقدر أن هذه الظاهرة الكبرى تحدث بعد الف عام من مولد المسيح، ففى أواخر القرن العاشر، قويت هذه الأسطورة، فى أذهان المجتمعات النصرانية وهبت على أوربا ريح من الروعة والاستكانة واتخذت شكلها المادى فى احياء حياة الزهد والرهبانية فى كثير من أنحاء أوربا ولا سيما فى إيطاليا، وفى اشتداد بأس الكنيسة، وتوطد سلطانها الروحى . ولما حلت سنة الف استولى على كثير من المجتمعات نوع من الرعب العام . ويروى أن

كثيرا من الناس هاموا يومئذ فى رؤوس الجبال ، ومنهم من استأمن الأديرة على أمواله . ولم تنقشع هذه السحب المروعة من جو أوربا حتى كانت الكنيسة قد استقت منها قوة جديدة وحتى امتلأت أقبية الأديرة بالكنوز والنفائس ؛ وكانت فرصة الكنيسة التالية فى تقوية نفوذها وبسط سلطانها على مجتمعات أوربا المظلمة ، فى دفع أوربا الى سهول المشرق لتخوض معارك الحروب الصليبية .

وفى الحروب الصليبية بثت الكنيسة أساطيرها الروحية فى عقول الدهماء والكافة ، بل فى عقول الفرسان والسادة ، فتدفق سيل النصارى الى المشرق فى الظاهر «لينقذوا قبر المسيح و بيت المقدس وليموتوا شهداء و يظفروا بجنات الخلد و يطهروا من كل إثم» ولتوطد الكنيسة فى الواقع سلطانها ، وتدفع خطر الاسلام الداهم عنها ؛ وقد كان سيل الاسلام يومئذ ينذر باقتحام أوربا من الأناضول على يد السلاجقة ، ومن اسبانيا على يد المرابطين ؛ فكان للأساطير الدينية بذلك آثارها العميقة فى تلك المعارك البربرية الكبرى .

⁂

وقد ملأت أسطورة المهدى المنتظر فراغا كبيرا فى الكلام الاسلامى . ومن الغريب أنها لبثت حتى فى أزهر عصرر الاسلام موردا لا ينضب للتنبؤ والجدل ؛ وقد رأيت أنها لم تخل من حدس فلاسفة كالكندى . على أن مفكرا عظيما هو ابن خلدون يعامل الأسطورة بتحفظ ، ويقنع بعرض ما قيل بشأنها ، ويترك مجال الاثبات والنفى لعلماء الكلام ، ولكنه يميل فى نفس الوقت الى ناحية النفى[1] .

وعلى أى حال فان هذه الأسطورة الكبرى لم تلق مهادا خصبة ولم تزدهر إلا فى قفار إفريقية وهضابها النائية ، وبين قبائلها المتعصبة التى كانت يومئذ فى حال تدنو الى الوثنية والهمجية منها الى الاسلام والتمدن .

---

(١) المقدمة — ٢٧٣ و ٢٧٥

ثبت المراجع

١ — المراجع العربية

تاريخ الطبرى (الأمم والملوك)

تاريخ ابن الأثير (الكامل)

تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر)

عيون الأخبار لابن قتيبة

فتوح البلدان للبلاذرى

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم

العيون والحدائق فى أخبار الحقائق

معجم البلدان لياقوت الحموى

خطط المقريزى (المواعظ والاعتبار)

سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى

البيان المغرب لابن عذارى المراكشى

بغية الملتمس للضبي (فى المكتبة الأندلسية)

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .

أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر

الحلة السيراء لابن الأبار

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام

رحلة ابن بطوطة

وفيات الأعيان لابن خلكان

صبح الأعشى للقلقشندى

٢ — المراجــع الغربيــة

AMEER ALI : A short History of the Saracens.
CREASY : Decisive Battles of the World.
FINLAY : Greece under the Romans.
" : Byzantine Empire.
GIBBON : Decline and Fall of the Roman Empire.
HODGKIN : Charles the Great.
IRVING : The Conquest of Granada.
LANE - POOLE : A History of Egypt in the Middle Ages.
" : The Moors in Spain.
G. MILLER : History philosophically illustrated.
MUIR : Life of Mohamed.
PRESCOTT : History of Ferdinand and Isabella.
" : History of Philip II. of Spain.
TACITUS : Annals.
THUCYDIDES : Peloponnesian War.
TRAVELS OF MARCO POLO, the Venetian.

✣
✣ ✣

BAYLE : Dictionnaire Historique et Critique.
BOUQUET : Recueil des Historiens de Gaule et de la France.
CARDONNE : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne.
DE JOINVILLE : Histoire de Saint Louis.
DOZY : Essai sur l'Histoire de l'Islamisme.
" : Histoire des Musulmans de l'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides.
" : Recherches sur l'Histoire et Littérature de L'Espagne pendant le moyen âge.
" : Le Cid.
ENCYC. DE L'ISLAM.
ZELLER : Histoire de L'Allemagne.

✣
✣ ✣

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.

Goldziher : Die Religion des Islams.

Fr. von Schlegel : Philosophie der Geschichte.

✣
✣ ✣

Condé : Historia de la dominacion de los arabos en Espana [الترجمة الانكليزية]

✣
✣ ✣

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

Direnbourg : Les Manuscrits Arabes de L'Escurial.

فهرس الأعلام التاريخية والجغرافية

ومقابلها الإفرنجى

Abydos	أبِدس
Alfonso	الأدفنش أو الأذفنش
Algeciras	الجزيرة
Alhambra	الحمراء
Almeria	ألمرية
Almunecar	المنكّب
Almohades	المُوَحِّدون
Almoravides	المرابطون
Alpujarras, Alpuxarras	البشرات أو البشرة
Anastasius	نسطاس
Andrix	أندرش
Amorium	عمُّورية
Aragon	الثغر الأعلى أو أرغن
Asturias	اشتروريش
Baeza – Baza	بسطة
Bari	بارة
Bascons Navarre	بلاد البشكنس أو بسكونية
Boabdil	أبو عبد الله
Bordeaux	بردال
Caesarius	قيصريوس
Calabria	قلورية
Charles – Karl, Charlemagne	قارلة
Castile	قِشتالة
Castrogiovanni	قصريانة
Cid il Campeador	السيد الكنبيطور
Crete	إقريطش
Cuidad de la Peurta	مدينة الباب
Cyrus	قيروس (المقوقس)
Edessa	مدينة الرُّها
Euphemios	فيمى
Franks	الفرنج
Feudalism	نظام الإقطاع
Galicia	جليقية
Gaul – la Gaule	غاليس
Girgenteo	جرجنت
Goths	القوط
Granada	غرناطة
Guadix	وادى آش
Hellespont	مضيق الدردنيل
Inquisition	ديوان التحقيق
Leo of Tripolis	غلام زرافة
Leon	ليون أو إليون

Lerida	لاردة
Loja	لَوْشه
Lombardy	انكبردية أو بلاد اللنبرد
Lucena	حصن اللسانة
Lyon	لوذون
Malaga	مالِقة
Mauresques Moriscoes	المور يسكيون أو العرب المتنصرون
Munuza	عثمان بن أبى نسعة
Naples	نابل
Narbonne	أربونة
Niebla	لبلة
Normans	النورمان أو المجوس
Palermo	بلرم
Pergamus	بُرجان
Phœnix	فينقية
Propontis	بحر المرمرة
Pyrénées	جبال البرت أو الممرات
Ragusa	رغوس
Roger	رجار
Le Rhône	نهر — وادى رذونة
Roncesvalles	باب الشزرى
Sancho	شانجه
Santa Fé	شنتفى
Saragossa	سَرَقُسطة
Sclavonians Slaves	الصقالبة
Segura	شـــقر
Seville	إشبيلية أو حمص
Sierra Nevada	جبل شُلير
Syracuse	سرقوسة
Taranto	تارانت
Tarsus	طرسوس
Theodosius	تيدوس
Toledo	طليطلة
Toulouse	تولوشة
Thessalonica	سلانيك
Tours et Poitiers	بلاط الشهداء
Valenica	بلنسية
Velez	بِلش
Velez Malaga	بلش مالقة
Villa Leunga	جبل بللنقة
Xenil	نهر شنيل
Zamora	سَمورة

فهـــرس أبجـــدى عام

(ا)

(ت)

(ج — خ)

(د)

(ر — ز)

(س)

(ش)

كمل طبع كتاب "مواقف حاسمة" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٢ (١٣ مارس سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٧ /١٩٣٣/ ٢١٠٠)

